مجلة جامعة الطائف

للآداب والتربية

مجلة علمية محكمة

المجلد الأول - العدد الرابع

ذو الحجة ١٤٣١ هـ - ديسمبر ٢٠١٠ م

رقم الإيداع: ١٤٣٠/٤٧٤٣
ردمد: ١٦٥٨-٤٧٦٧

الآراء الواردة في المجلة لا تمثل بالضرورة وجهة نظر الجامعة
ولا أسرة تحرير المجلة، بل تمثل وجهة نظر الباحثين.

الطباعة:
مطابع السروات بجدة

التصميم
الأعمال الثقافية
lifejed@gmail.com

بسم الله الرحمن الرحيم

مجلة جامعة الطائف

المجلد الأول - العدد الرابع ١٤٣١هـ - ٢٠١٠م

هيئة التحرير

رئيس هيئة التحرير

أ. د. عالي سرحان القرشي

أمين التحرير

أ. د. سعود عبد الله الروقي

أعضاء هيئة التحرير

أ. د. مصطفى يس السعدني أ. د. حسن البنا محمود

د. جابر محمد عبد الله

الإعداد الفني

عادل سعود الروقي سلمان علي السليماني

محتويات العدد

● **الإدارة والاقتصاد**

نظام مقترح للتأمين الصحي التعاوني التكافلي على طلاب
ومنسوبي الجامعات (دراسة تطبيقية على جامعة الطائف) ..... **أ.د. إبراهيم بن الحسن الحكمي**
..... **د. وجيه عبد الله مصطفى** ١١

● **التربية**

مستوى الدعم الذي يقدمه مديرو المدارس لمعلمي غرف المصادر
التي يوجد بها طلبة من ذوي صعوبات التعلم وعلاقته بدافعية
معلميهم في مدينة عمان ..... **د.واصف العايد** ٨٥

● **علوم الشريعة**

التأصيلُ الفقهي وأثرهُ في فقهِ الإمامِ والخطيب ..... **د.فهد بن سعد الجُهني** ١٢١

● **اللغة العربية وآدابها**

الآخر في الرواية السعودية (دراسة في الخطاب الثقافي) ..... **د. حسن محمد النعمي** ١٥٩
الملفوظ الشعري والمنطوق النفسي في ديوان «وحي الحرمان» ..... **د.حامد بن صالح الربيعي** ١٨٩
علاقة الماء بالدم في شعر المتنبي «دراسة وصفية تحليلية» ..... **د . صلوح بنت مصلح الحربي** ٢٢٥
التقديم والتأخير في المتشابه اللفظي في القرآن الكريم
«دراسة نحوية دلالية» ..... **د . بريكان سعد الشلوي** ٢٤٧

● **القسم الإنجليزي**

الإنجليزية المتأثرة بالعربية
والعربية المتأثرة بالإنجليزية ودراسات اكتساب اللغة الثانية ..... **د . محمد علي الخيري** ١٠

١

الإدارة والاقتصاد

جامعة الطائف

نظام مقترح للتأمين الصحي التعاوني التكافلي على طلاب ومنسوبي الجامعات (دراسة تطبيقية على جامعة الطائف)

أ.د. إبراهيم بن الحسن الحكمي

الأستاذ بقسم علم النفس بكلية التربية - جامعة الطائف

د. وجيه عبد الله مصطفى

الأستاذ المشارك بقسم الاستثمار والتمويل - كلية العلوم الإدارية والمالية بجامعة الطائف

مجلة جامعة الطائف - الآداب والتربية (الإدارة والاقتصاد)
المجلد الأول - العدد الرابع - ذو الحجة ١٤٣١هـ - ديسمبر ٢٠١٠م

الملخص

من الملاحظ أن هناك كثرة لمنسوبي وطلاب جامعة الطائف وقلة عدد الأطباء المقدمين للخدمة الصحية بفرعي الطلاب والطالبات، كما أن من يقوم بتقديم الرعاية الصحية هو في حقيقة الأمر ممارس عام، كما أن الصيدلية لا تتوفر فيها كافة الأدوية، المحصلة النهائية هي انخفاض مستوى الرعاية الصحية المقدمة لطلاب ومنسوبي الجامعة .

لذا اتجه هذا البحث إلى دراسة هذه الظاهرة ، هادفا إلى تقييم فعالية الخدمة الصحية التي تقدمها الجامعة وتحديد أوجه القصور التي تعاني منها . وفي ضوء نتائج الدراسة الاستطلاعية التي قام بها الباحثان، فضلا عن الاستفادة من تجارب الجامعات الأخرى العربية والأجنبية، اقترح الباحثان نظاماً للتأمين الصحي على طلاب الجامعة والعاملين بها ، ومن أهم فوائد نظم التأمين الصحي أنها تساهم بدور فعال في تحسين مستوى الخدمات الصحية المقدمة للطلاب ومنسوبي الجامعة كما ونوعا، وتوفير بدائل مناسبة لتقديم خدمات الرعاية الصحية ذات مستوى مناسب وبأسعار اقتصادية.

مقدمة

مما لاشك فيه أن الصحة العامة وصحة الطلاب ومنسوبي الجامعة هي أغلى ما تملكه الجامعات، وهي ثروة يجب الحفاظ عليها وصيانتها، حيث أن هذا الطالب وذلك المنسوب هو الهدف لكل ما تقدمه برامج وخطط التنمية من خدمات، وأن مطلب الحياة هو أول مطالب ذلك الإنسان، وأهم مقومات الحياة هي الصحة. ومن جهة أخرى فإن هذا الطالب وذلك المنسوب هو الوسيلة الأولى لعمليات التنمية ذاتها، وهو الذي يعتمد عليه بعد الله - تعالى - في نجاح هذه العمليات واستمرارها، حيث أن الطالب أو المنسوب المريض لا يمكن أن يعمل أو يخطط أو حتى يفكر في خدمة مجتمعه حتى يشفى وتحل مشكلاته الصحية (عبد الرحمن حمد الحميضي، ٢٠٠٢).

وهناك عدة عوامل مهمة كان لها تأثير على مستوى الخدمات الصحية المقدمة لمستحقيها من الطلاب ومنسوبي الجامعة، ومن أهم هذه العوامل ارتفاع تكلفة تقديم الخدمات الصحية خارج الجامعة، مما أدى إلى زيادة الإقبال على الخدمات الصحية التي تقدمها الجامعة لطلابها ومنسوبيها، من ناحية أخري هناك زيادة مطردة لقبول الطلاب سنة بعد أخري مع ثبات عدد الأطباء بالوحدة الصحية الجامعية، أو زيادتهم بنسب لا تتناسب مع نسب الزيادة الطلابية، مما أدى إلى عدم كفاية الخدمات الصحية التي تقدمها الوحدات الطبية سواء بفرع الطلاب أو فرع الطالبات كما ونوعا، ونتج عن هذا ضعف مستوى الخدمة الصحية داخل الجامعة كما ونوعا (G. Flores . et la . 2002).

لذا يري الباحثان ضرورة البحث عن بديل يقدم رعاية صحية ذات مستوى مناسب، ومن هذه البدائل نظام التأمين الصحي التعاوني، والذي يختص بتوفير الخدمات الصحية لطلاب ومنسوبي جامعة الطائف أسوةً بما هو مطبق في كثير من الجامعات العربية وخاصةً في العديد من الجامعات الخليجية والأردنية والمصرية (الدريس، ٢٠٠٤، خالد سعد سعيد، ١٩٩٦).

مشكلة البحث

من الملاحظ أن هناك كثرة لمنسوبي وطلاب جامعة الطائف وقلة عدد الأطباء المقدمين للخدمة الصحية بفرعي الطلاب والطالبات، وبالتالي نجد أن هناك زحام شديد وطول فترة انتظار لحين دخول الطالب أو منسوب الجامعة إلى الطبيب المعالج. المشكلة الأكبر أن معظم من يقوم بتقديم هذه الرعاية الصحية هو في حقيقة الأمر ممارس عام، كما أن الصيدلية لا تتوفر فيها كافة الأدوية ويستغرق طلب الدواء أحيانا فترات طويلة، ولا يتم طلب الدواء حتى

تنفد الكمية بكاملها، كما أنه في كثير من الأحيان لا يتوافر في صيدلية الجامعة الكثير من الأدوية. والمشكلة تظهر أيضا إذا أخذ الطبيب الوحيد أو الطبيبة الوحيدة أجازة - كما حدث في أحد الأعوام الماضية في إجازة الحج - ولم يتم توفير البديل. والجدول التالي يوضح تطور أعداد الطلاب المستجدين والمقيدين والخريجين بالجامعة من سنة ١٤٢٦/٢٥: سنة ١٤٣٠/٢٩ بشطري الطلاب والطالبات، وكذلك تطور أعداد الأطباء خلال نفس الفترة :

جدول رقم (١)

تطور أعداد الأطباء والطلاب المستجدين والمقيدين والخريجين بالجامعة من ١٤٢٦/٢٥ : ١٤٣٠/٢٩ بشطري الطلاب والطالبات

بيان	25/1426	26/1427	27/1428	28/1429	29/1430
الطلاب المستجدون	2934	3433	6509	9894	11139
الطلاب المقيدون	11193	12942	19276	29170	37633
الطلاب الخريجون	848	1223	3380	4948	4922
الإجمالي	14975	17598	29165	44012	53694
عدد الأطباء المتواجدين باستمرار بالعيادات●	7	8	8	12	14
متوسط عدد الطلاب التي يخدمهم الطبيب الواحد	2139	2200	3646	3668	3835

يتضح من الجدول السابق أن متوسط عدد الطلاب الذي يخدمهم الطبيب الواحد خلال الفترة السابقة حوالي ٣٠٩٨ طالب خلال العام الواحد، أي بمتوسط ١٩ طالب يوميا .○

أضف إلى ذلك أعضاء هيئة التدريس ومعاونيهم ومنسوبي الجامعة من موظفين وإداريين، هم أيضا يترددون على الوحدة الصحية الجامعية، وهم في حاجة إلى رعاية صحية من كشف طبي وصرف للأدوية.

ولا شك أن هذا العدد الواجب تقديم الرعاية الصحية له كبير بالنسبة لكل طبيب، ويؤدي إلى طول فترة انتظار من ناحية، وعدم تقديم الرعاية الصحية بالشكل المناسب من ناحية أخرى .

● بشطر الطلاب بالحوية، وشطر الطالبات بقروى والفيصلية والسداد فقط، دون الفروع الأخرى .

○ الفصل الدراسي الواحد ١٦ أسبوع، والأسبوع الدراسي ٥ أيام، وبالتالي يكون عدد أيام الدراسة الفعلية في العام الدراسي بالكامل = ١٦×٢×٥ = ١٦٠ يوم .

ومن واقع الدراسة الاستطلاعية التي قام بها فريق البحث عن طريق استبانة أعددت لهذا الغرض، يتضح أن هناك قصور واضح وانخفاض في جودة الخدمة الصحية التي تقدمها الوحدات الصحية بالجامعة، ويرجع ذلك أساساً إلى كثرة عدد طلاب ومنسوبي الجامعة مع قلة عدد الأطباء المتواجدين بهذه الوحدات الصحية، كما أن هناك نقص في كثير من الأدوية بصيدليات هذه الوحدات.

أهمية البحث

تمثلت أهمية البحث في :

أولا: الأهمية العلمية

تمثلت هذه الأهمية في ندرة الأبحاث العلمية التي تناولت هذه المشكلة بالجامعات السعودية.

ثانيا: الأهمية العملية

تمثلت هذه الأهمية في أن نتائج هذا البحث سوف تسهم في استخلاص الحقائق التي تفيد في تصميم نظام للخدمة الصحية بالجامعة، وهو ما يحقق مزايا عديدة، اقتصادية واجتماعية، مباشرة وغير مباشرة، للطلاب والمنسوبين والجامعة ذاتها .

هدف البحث

سعى هذا البحث نحو تحقيق الأهداف التالية :

١- تقييم الخدمة الصحية المقدمة حالياً لطلاب ومنسوبي جامعة الطائف، من خلال استطلاع آراء المستفيدين بهذه الخدمة .

٢- التعرف على أوجه القصور أو الضعف التي تقلل من مستوى الخدمة الصحية المقدمة للطلاب والمنسوبين بالجامعة .

٣- تقديم حلول مناسبة لمشكلة انخفاض مستوى الخدمة الصحية التي تقدمها الوحدات الصحية الموجودة بالجامعة بشطري الطلاب والطالبات لمنسوبي الجامعة وطلابها، وذلك من خلال تقديم مقترح لبناء نظام للتأمين الصحي التعاوني على طلاب ومنسوبي جامعة الطائف، وتحديد المتطلبات التنظيمية والإدارية والبشرية والمالية والطبية المطلوبة لتطبيق هذا النظام، وكيفية توفير مصادر التمويل المناسبة لهذا النظام، كما هو معمول به في الكثير من الجامعات العربية والأجنبية.

حدود البحث

تمثلت أهم حدود البحث في الآتي :

١- مجتمع الدراسة محل التطبيق هو طلاب وطالبات ومنسوبي جامعة الطائف.

٢- مجتمع الدراسة محل التعاقد والمسئول عن توفير برنامج التأمين الصحي لطلاب ومنسوبي الجامعة هو شركات التأمين الصحي التعاوني الموجودة بالمملكة.

٣- لا يمتد هذا البحث إلى قياس آراء الأطراف الأخرى ذات الصلة بنظام العلاج الصحي بالجامعة وهي: إدارة الجامعة - الأطباء والصيادلة المقدمين للخدمة .

فروض البحث

قامت هذه الدراسة على عدة فروض أساسية وهى :

الفرض الأول

«لا توجد فروق ذات دلالة إحصائية بين متوسط المشاكل التي يتعرض لها كلا من الطلاب وأعضاء هيئة التدريس والموظفين المراجعين للوحدة الصحية وذلك بمستوى معنوية ٥٪».

الفرض الثاني

«لا توجد فروق ذات دلالة إحصائية بين متوسط أراء كلا من الطلاب وأعضاء هيئة التدريس والموظفين المراجعين للوحدة الصحية حول ضعف الدور الحالي للجامعة في توفير خدمة صحية مناسبة لطلابها ومنسوبيها وذلك بمستوى معنوية ٥٪».

الفرض الثالث

«لا توجد فروق ذات دلالة إحصائية بين متوسط أراء كلا من الطلاب وأعضاء هيئة التدريس والموظفين المراجعين للوحدة الصحية حول أهمية وجود برنامج للتأمين الصحي يغطي المخاطر الصحية التي يتعرض لها الطالب والمنسوب وذلك بمستوى معنوية ٥٪».

الفرض الرابع

«لا توجد فروق ذات دلالة إحصائية بين متوسط أراء كلا من الطلاب وأعضاء هيئة التدريس والموظفين المراجعين للوحدة الصحية بشأن الاعتبارات الواجب مراعاتها من جانب جامعة الطائف عند اختيار شركة التأمين الصحي التعاوني التي سيتم التعاقد معها دون غيرها وذلك بمستوى معنوية ٥٪».

الدراسات السابقة

هناك العديد من الدراسات التي تناولت موضوع الرعاية الصحية لطلاب ومنسوبي الجامعات، ومن أهم هذه الدراسات ما يلي :

1- Health Care Access of Hispanic Young Adults in the United States.

يعد نظام الرعاية الصحية الطلابية في الولايات المتحدة الأمريكية أضخم الأنظمة على مستوى العالم. وتقدم الرعاية الصحية في النظام الأمريكي من خلال نظم التأمين الطبي الخاص مع مساعدة حكومية فيدرالية لغير القادرين. وبخلاف النظم الحكومية الصحية فإن النظام الصحي الأمريكي يعتمد على سوق التأمين الصحي الخاص ولا يوجد بها نظام للتأمين الصحي الإلزامي كما هو سائد في كثير من دول أوربا. ففي الولايات المتحدة يوجد عدد كبير من شركات التأمين التي توفر الرعاية الصحية بأنواعها الأولية (مستوصفات وعيادات طبية)، والثانوية (مستشفيات عامة)، والمتقدمة (مستشفيات تخصصية) للطلاب وللعاملين بالمدارس والجامعات، وذلك مقابل اشتراكات شهرية أو سنوية معينة (Smith JP،2004) .

2- Self-Reported Psychosocial Health Among Adults In Canada With Traumatic Brain Injury Archives of Physical Medicine and Rehabilitation

يتم توفير الرعاية الصحية في كندا من خلال نظام تأمين وطني صحي شامل لجميع الخدمات الصحية. وتبلغ نسبة تغطية سكان كندا بالتأمين الصحي ١٠٠٪، بمعنى أن جميع سكان كندا لديهم تأمين صحي بما فيهم طلاب الجامعات والمعاهد والمدارس باختلاف مراحلها. ويقوم نظام التأمين الصحي في كندا على خمسة مبادئ أساسية وهى (Melissa L. et la ، 2006):

- العمومية: أي توفير جميع الخدمات الصحية المتاحة لجميع السكان المؤمن عليهم وبشروط موحدة.
- الشمولية: أي تقديم جميع الخدمات الصحية التي يوفرها الممارسون العاميون وأطباء الأسنان والخدمات الصحية الأخرى.
- الإتاحية: أي توفير أمكانية الوصول إلى خدمات الأطباء والمستشفيات بدون حواجز مالية أو التحيز على أساس الدخل أو العمر أو الوضع الصحي.
- التجوالية: أي ضمان التغطية عند غياب المواطن من مكان إقامته أو سفره في أرجاء البلاد.
- الإدارة العامة: أي إدارة النظام بواسطة جهاز حكومي تحدده الحكومة المحلية وعلى أساس غير ربحي.

(٣) نظام التأمين الصحي في جامعة الإمارات

تقدم الرعاية الصحية لطلاب ومنسوبي جامعة الإمارات من خلال عقد سنوي قابل للتجديد مع أحدى شركات التأمين الصحي، وذلك بموجب نظام المناقصة العامة، حيث تتم ترسية العطاء على أقل الأسعار المقدمة من شركات التأمين الصحي المختلفة ذات السمعة الطيبة. ويقوم نظام التأمين الصحي بهذه الجامعة على نظام الدفع المباشر Direct Billing الذي تتلقى فيه الشبكة الصحية تكاليف العلاج مباشرة من شركة التأمين الصحي المتعاقد معها من قبل الجامعة، وفي حالة المريض الخارجي (Out-patient) يتم دفع ٥٠ درهم فقط لكل استشارة طبية من قبل العضو المشترك للدلالة على الجدية في طلب الخدمة الطبية .

(٤) نظام التأمين الصحي بجامعة القدس

يقوم نظام التأمين الصحي بجامعة القدس على عدة تعليمات وهى :

- يجب على المريض أن يكون طالباً في الجامعة وأن يكون قد سدد رسوم التأمين الصحي المستحقة عليه والذي تقره الجامعة في بداية العام الدراسي.
- على المريض أن يدفع ٢٥٪ من ثمن كل وصفة طبية، ٤٠٪ من فاتورة المستشفى على أن لا يزيد التزام الجامعة عن ٣٠٠ دينارا سنوياً.
- لا تدفع الجامعة تكاليف المرافقين في المستشفى وأجرة نقل المريض وسيارة الإسعاف.
- لا تعترف الجامعة بأية وصفة طبية إلا إذا صدرت عن طبيب الجامعة أو المرافق الطبية المعتمدة من قبل الجامعة.
- لا يحق للمريض العلاج بالمستشفى إلا بتحويل من الطبيب المعالج المعتمد لدى الجامعة.
- لا يجوز للمرضى العلاج في المستشفيات على نفقة الجامعة إلا بعد مرور شهر واحد من تاريخ اشتراكهم بالتأمين الصحي.
- يستثنى من هذا التأمين الأمراض المزمنة كالسكري والضغط والربو وهبوط الكلى وأمراض القلب واستئصال اللوزتين وانحراف الأنف والصور الطبقية والملونة وفحص الأنسجة والسرطان وعمليات التجميل والأمراض المزمنة والجلدية والجنسية والتناسلية والعقلية والنفسية والخلقية والعلل والعاهات البدنية والولادة والإصابات الناتجة عن ممارسة هوايات الرياضة وحوادث السير والأمراض الناتجة عنها وكافة العمليات التي كان المؤمن عليه بحاجة لإجرائها قبل التأمين.
- لا يجوز الاستفادة من تأمينين لنفس المرض.
- يلغى التأمين فوراً إذا أسيء استعماله.

- الطالب مؤمن صحيا خلال فترة دوامه في الجامعة ويدفع الطالب اشتراك التأمين الصحي في بداية كل فصل ويتوقف التأمين أثناء العطل التي تزيد مدتها على أسبوعين باستثناء استمرارية العلاج.

(٥) نظام التأمين الصحي للعاملين في الجامعة الأردنية

يوجد لدى الجامعة الأردنية نظاما للتأمين الصحي للعاملين في الجامعة الأردنية ابتداء من سنة ٢٠٠٣، ويعمل به منذ تاريخ نشره في الجريدة الرسمية. ويدار هذا النظام من خلال صندوق يسمي صندوق التأمين الصحي للعاملين في الجامعة (قانون الجامعات الأردنية الرسمية، ٢٠٠١).

وتشمل الخدمة الطبية عمليات الفحص الطبي السريري والمخبري والشعاعي والمعالجة الفيزيائية والاختصاصية والعمليات الجراحية والولادة غير الطبيعية والإقامة في المستشفيات وأي معالجة أخرى ينص عليها هذا النظام .

ويدار هذا النظام من خلال لجنة تسمى (لجنة إدارة الصندوق) والمكونة من خمسة أشخاص من العاملين في الجامعة من ذوي الخبرة والاختصاص لمدة سنتين قابلة للتجديد. وتتألف الموارد المالية لهذا الصندوق مما يلي :

- المبالغ المخصصة له في موازنة الجامعة والمستشفى .
- المساهمة السنوية من الجامعة والمستشفى في الصندوق .
- بدل اشتراكات ومساهمات المشتركين والمنتفعين .
- عوائد استثمار أموال الصندوق .
- المنح والهبات والتبرعات التي ترد إليه وفقاً لأحكام التشريعات المعمول بها في الجامعة.

ويكون الاشتراك في التأمين الصحي اختيارياً للعاملين في الجامعة، وينتفع من خدمات الصندوق كل من :

- زوج أو زوجة المشترك .
- البنات غير المتزوجات .
- الأولاد الذين لم تتجاوز أعمارهم الثامنة عشرة .
- الوالدين إذا كان المشترك هو المعيل الوحيد لهما .

(٦) نظام التأمين الصحي لطلبة الجامعة الهاشمية

الاشتراك هنا في برنامج التأمين الصحي يكون إجبارياً لجميع طلبة الجامعة المسجلين فيها (بما في ذلك الفصل الصيفي). ومدة الاشتراك تكون هي المدة الواقعة بين أول يوم لبداية

الفصل الدراسي الذي سجل فيه الطالب وينتهي في اليوم السابق لبداية الفصل الذي يليه، شريطة تسديده للرسوم الجامعية ورسوم التأمين الصحي. وإذا تأخر المشترك في دفع الرسوم المقررة يكون تأمينه سارياً اعتباراً من تاريخ دفع رسم الاشتراك. ويحدد رسم الاشتراك على الوجه التالي:

- سبعة دنانير أردنية لكل فصل دراسي لطلبة البرنامج العادي.
- اثنان وخمسون ونصف دولار لكل فصل دراسي لطلبة البرنامج الدولي.
- يدفع الرسم مقدماً مع الرسوم الجامعية ولا يجوز استرداده.
- لا يعفى أي طالب من الرسم مهما كانت الأسباب.
- كما تتحمل الجامعة جميع تكاليف معالجة الحالات الطارئة للمشتركين من الطلبة الضيوف من خارج المملكة خلال فترة استضافتهم من قبل الجامعة للدراسة فيها لمدة تزيد على أربعة أسابيع.

(٧) نظام التأمين الصحي في جامعة البتراء

يقوم نظام التأمين الصحي لطلاب جامعة البتراء على مجموعة من التعليمات وهي:

- يغطى النظام كل طلاب الجامعة خلال الفصل الدراسي الذي يسدد فيه الطالب رسومه الدراسية المستحقة عليه للجامعة، ويعتبر تأمين الطالب الصحي ساري المفعول اعتباراً من الشهر الذي يسدد فيه تلك الرسوم وحتى نهاية الفصل الدراسي المعني بما في ذلك عطلة ما بين الفصلين.
- يتم تغطية علاج الطلبة داخل الشبكة الطبية المعتمدة بنسبة ١٠٠٪
- تعتبر البطاقة الجامعية سارية المفعول هي الوثيقة الرسمية لأغراض التأمين الصحي .
- ضرورة إبراز البطاقة الجامعية عند مراجعة الجهات الطبية المعتمدة .
- في حالة مراجعة أية جهة طبية غير معتمدة تدفع التكاليف مباشرة من الطالب ومن ثم تقدم هذه التكاليف مشفوعة بالفواتير والتقارير الطبية لمطالبة الشركة حيث تتم تسويتها حسب أسعار الشبكة الطبية المعتمدة للشركة .

(٨) التأمين الصحي في جامعة البلقاء التطبيقية

يعمل بنظام التأمين الصحي لطلبة جامعة البلقاء التطبيقية اعتباراً من بدء العام الدراسي، ويستفيد من التأمين الطبي الطالب المسجل على أي فصل دراسي بما في ذلك الفصل الدراسي الصيفي. ورسوم الاشتراك في هذا النظام هي خمسة عشر ديناراً للفصل الدراسي الواحد.

ويستفيد الطلبة من جميع الخدمات الطبية المقدمة داخل عيادة الطلبة مجاناً من حيث الكشف الطبي أو الأدوية أو الفحوصات المخبرية المتوفرة في عيادة الطلبة، ولا يشمل التأمين الطبي المراجعات خارج المستشفى أو العيادات الخارجية للمستشفى من حيث أتعاب الأطباء أو أسعار فحوصات المختبر أو الأشعة إلا إذا كانت محولة من عيادة الطلبة في الجامعة. وينتهي العمل بالتأمين الطبي للطلبة في الحالات التالية :

- التخرج من الجامعة.
- الفصل من الجامعة لأي سبب من الأسباب.
- إساءة استخدام التأمين الطبي، أو السماح لأشخاص آخرين بالاستفادة منه.

الفصل الثاني
الدراسة التطبيقية
المبحث الأول
التأمين الصحي بجامعة الطائف
- أرقام وحقائق -

مقدمة

في هذا الفصل تعرض فريق البحث للنقاط التالية :

- محاولة التعرف على حجم المشاكل التي يتعرض لها طلاب ومنسوبي جامعة الطائف عند مراجعتهم للوحدة الصحية الموجودة بالجامعة.
- محاولة التعرف على الدور الحالي للجامعة في توفير خدمة صحية مناسبة لطلاب ومنسوبي جامعة الطائف .
- محاولة التعرف على أهمية وجود برنامج للتأمين الصحي يغطي المخاطر الصحية التي يتعرض لها الطالب والمنسوب.
- محاولة التعرف على الأسباب التي تدفع الجامعة للتعاقد مع شركة تأمين صحي معينة دون غيرها، وذلك لعمل عقد تأمين صحي تعاوني لصالح طلابها.

مجتمع الدراسة

مجتمع الدراسة هو طلاب ومنسوبي جامعة الطائف من أعضاء هيئة تدريس وموظفين وإداريين، ٥٤٥٢٨ طالب ومنسوب عن العام الجامعي ١٤٣٠/٢٩ هـ، منهم ٢٠٩١٨ طالباً، ٣٢٧٧٥ طالبة، ٨٣٤ عضو هيئة تدريس وموظف وإداري. (التقرير السنوي لجامعة الطائف، ١٤٢٩ - ١٤٤٣٠ هـ).

عينة الدراسة

بفرض أن فريق البحث يرغب في ألا تبتعد نسبة العينة عن النسبة الحقيقية للمجتمع بأكثر من ٠,٠٥ وذلك بدرجة ثقة ٩٥٪ فإن حجم العينة يتحدد من العلاقة التالية:

$$n = p(1-p)\left(\frac{z_{\frac{\alpha}{2}}}{\varepsilon}\right)^2$$

حيث إن :

ε هي خطأ التقدير وتساوي ٠,٠٥

p هي احتمال تحقق الحادث المطلوب .

ويجب التنويه إلى أنه عند تحديد درجة الثقة وتحديد قيمة خطأ التقدير فإن استخدام $p = 0.5$ في الصيغة السابقة سوف يؤدى إلى الحصول على أكبر قيمة ممكنة لحجم العينة (n) (Chao. L.L.. 1990).

وبالتعويض في الصيغة السابقة، يكون عدد مفردات العينة مساويا لـ ٣٨٤ مفردة. وقد اختيرت عينة من كل من كلية بطريقة النسبة والتناسب، وتم اختيارهم عن طريق العينة العشوائية الطبقية. وتم تحليل ومناقشة نتائج العينة التي بلغت ٣٣٤ ووردت استباناتهم بشكل كامل ونهائي، أي بنسبة ٨٧٪ تقريبا، وهي نسبة مقبولة إحصائيا. ويوضح الجدول التالي توزيع مفردات العينة على النحو التالي :

جدول رقم (٢)

توزيع مفردات العينة حسب النوع وحسب الوضع داخل الجامعة

النوع / الوضع داخل الجامعة	ذكور		إناث		المجموع	
	عدد	نسبة	عدد	نسبة	عدد	نسبة
الطلاب	٩٨	٪٢٨,٩	٨٤	٪٢٤,٣	١٨٢	٪٥٣,٣
أعضاء هيئة التدريس	٦١	٪٢٠,١	٣٣	٪١٠,٩	٩٤	٪٣٠,٩
موظفون وإداريون	٣٨	٪١٢,٥	٢٠	٪٣,٣	٥٨	٪١٥,٨
المجموع	١٩٧	٪٦١,٥	١٣٧	٪٣٨,٥	٣٣٤	٪١٠٠

أداة الدراسة

تم بناء أداة مسحية مكونة من عدة محاور، لتقييم الخدمة الصحية المقدمة حاليا لطلاب ومنسوبي الجامعة، والتعرف على أوجه القصور الموجودة في نظام الرعاية الصحية الموجود حالياً بالجامعة، ثم التعرف على أهمية اقتراح نظام للتأمين الصحي على طلاب ومنسوبي الجامعة. وقد تم إعداد ٣ استبانات لتحقيق الأهداف السابقة وهي:

- استبانه خاصة بطلاب وطالبات الجامعة
- استبانه خاصة بأعضاء هيئة التدريس
- استبانه خاصة بالعاملين بالجامعة من إداريين وموظفين

وتتكون كل استبانة من خمسة أجزاء وهي:

الجزء الأول: بيانات عامة مثل:

- الكلية
- القسم
- النوع
- الجنسية
- العمر
- الحالة الاجتماعية

الجزء الثاني: المشاكل التي يتعرض لها الطالب والمنسوب - سواء كان عضو هيئة تدريس أو موظف أو عامل - المراجع للوحدة الصحية بالجامعة.

الجزء الثالث: الدور الحالي للجامعة في توفير خدمة صحية مناسبة لطلابها ومنسوبيها.

الجزء الرابع: أهمية وجود برنامج للتأمين الصحي يغطي المخاطر الصحية التي يتعرض لها الطالب والمنسوب .

الجزء الخامس: الأسباب التي يمكن أن تدفع جامعة الطائف للتعاقد مع شركة تأمين صحي تعاوني معينة دون غيرها.

وكل محور يتكون من مجموعة من الأسئلة وكل سؤال يحتاج الإجابة عنه بـ (صحيح تماما = ٥ درجات)، (صحيح غالبا = ٤ درجات)، (صحيح بدرجة متوسطة = ٣ درجات)، (صحيح إلى حد ما = ٢ درجة)، (غير صحيح تماما = ١ درجة).

المنهج المستخدم

تم استخدام المنهج المسحي في تجميع البيانات الخاصة بالدراسة، ويعتبر هذا المنهج أقرب مناهج البحث العلمي لحل مشكلة الدراسة الحالية، وهو منهج معروف ويعتمد على وصف المتغيرات محل الدراسة .

خطة العمل

تم تخصيص فريق مكون من ٨ طلاب، حيث قام كل طالب بتعبئة ٥٠ استبانه تقريبا.

صدق وثبات الاستبانات.

بالنسبة للصدق: فقد تم عرض الاستبانات قبل بدء توزيعها على ٤ أساتذة في كليتي التربية والعلوم الإدارية والمالية بجامعة الطائف. الذين أبدوا ملاحظاتهم على هذه الاستبانات وقد حذفت بعض البنود وأضيفت بنود أخرى حسب ما أقترحه هؤلاء، ومن ثم صممت الاستبانات بصورتها النهائية والتي تعتبر أداة الدراسة الأساسية.

بالنسبة لثبات الاستبانات: فقد تم حساب معامل الثبات لكل استبانه ولكل جزء من أجزائها باستخدام معامل ألفا كرونباخ، وقد بلغ معامل الثبات الكلي حوالي ٠,٩٠٩ بالنسبة لاستبانه

الطلاب، ٠,٨٦٣ بالنسبة لاستبانه أعضاء هيئة التدريس، ٠,٩٣١ بالنسبة للإستبانة الخاصة بالموظفين. ومن الواضح أن الثلاث استبانات تتمتع بدرجة ثبات عالية تمكن من استخدامها لتحقيق أغراض الدراسة.

بالنسبة للمحور الأول: المشاكل التي يتعرض لها الطالب أو عضو هيئة التدريس أو الموظف المراجع للوحدة الصحية بالجامعة

لقياس حجم المشاكل التي يتعرض لها المراجع للوحدة الصحية بالجامعة، اعتمد الباحثان في تفسير نتائج الدراسة على الحدود الحقيقية لفئات المقياس الخماسي المستخدم في الإجابة على فقرات الاستبانة وذلك على النحو التالي :

- تكون درجة الموافقة عالية على وجود مشاكل عندما يكون المتوسط الحسابي ٤,٥ درجة فأكثر.
- تكون درجة الموافقة فوق المتوسطة عندما يكون المتوسط الحسابي من ٣,٥ درجة إلى أقل من ٤,٥ درجة .
- تكون درجة الموافقة متوسطة عندما يكون المتوسط الحسابي من ٢,٥ درجة إلى أقل من ٣,٥ درجة .
- تكون درجة الموافقة منخفضة عندما يكون المتوسط الحسابي من ١,٥ درجة إلى أقل من ٢,٥ درجة .
- لا توجد موافقة عندما يكون المتوسط الحسابي أقل من ١,٥ درجة .

وللتعرف على حجم هذه المشاكل من واقع أراء مفردات العينة تم تفريغ بيانات الاستبانات لهذا المحور، ثم تم حساب المتوسطات الحسابية والانحرافات المعيارية لكل سؤال وارد بهذه الاستبانات لهذا المحور، وكانت نتائج الدراسة تشير إلى:

١- بشكل عام تميل اتجاهات مفردات عينة الدراسة إلى الموافقة بدرجة فوق المتوسطة على وجود مشاكل تحيط بالطلاب ومنسوبي الجامعة المراجعين للوحدة الصحية من وجهة نظر عينة الدراسة، حيث بلغ المتوسط الحسابي العام ٣,٤١

٢- أعطى مفردات عينة الدراسة درجة موافقة فوق متوسطة على أن أكبر المشاكل التي تواجه الطلاب ومنسوبي الجامعة المراجعين للوحدة الصحية وهي:

- عدم وجود أطباء في معظم التخصصات المطلوبة، وأن الطبيب الموجود ما هو إلا ممارس لكل التخصصات .

- هناك قلة في عدد الأطباء الموجودين بالوحدة الصحية بالجامعة.
- هناك فترات انتظار كبيرة في العيادة دون مبرر.
- البطء الشديد في إجراءات العمل قبل الدخول إلى الطبيب المعالج .
- اختلاف إجراءات إنهاء الدخول إلى الطبيب المعالج بالوحدة الصحية تختلف من منسوب إلى آخر ومن طالب إلى آخر.

بالنسبة للمحور الثاني: الدور الحالي للجامعة في توفير خدمة صحية مناسبة لطلابها ومنسوبيها.

وللتعرف على هذا الدور من واقع أراء مفردات العينة، تم تفريغ بيانات الاستبانات لهذا المحور، ثم تم حساب المتوسطات الحسابية والانحرافات المعيارية لكل سؤال وارد بهذه الاستبانات لهذا المحور، وقد أشارت نتائج الدراسة إلى :

١- بشكل عام تميل اتجاهات مفردات عينة الدراسة إلى الموافقة بدرجة منخفضة حول دور الجامعة في توفير خدمة صحية لطلابها ومنسوبيها، حيث بلغ المتوسط الحسابي العام ٢,٤

٢- كانت أهم الانتقادات الموجهة للجامعة في هذا الصدد هي:

- مهارة الأطباء اللذين يقدمون الخدمة الصحية للطالب أو المنسوب بالجامعة دون المستوى .
- ضعف جهود الجامعة الهادفة للاهتمام بالطالب والمنسوب كمريض .
- قلة استجابة الجامعة لملاحظات وشكاوي الطالب ومنسوب الجامعة كمريض .
- ضعف الإجراءات التي تحددها الجامعة لكي يحصل الطالب ومنسوب الجامعة على الخدمة الصحية من الجهات الصحية الأخرى .
- ضعف جهود الجامعة لحل مشاكل الطالب ومنسوب الجامعة مع الجهات الصحية الأخرى المقدمة للخدمة.

بالنسبة للمحور الثالث: أهمية وجود برنامج للتأمين الصحي يغطي المخاطر الصحية التي يتعرض لها الطالب والمنسوب المريض

وللتعرف على حجم هذه الأهمية من واقع أراء مفردات العينة، تم تفريغ بيانات الاستبانات لهذا المحور، ثم تم حساب المتوسطات الحسابية والانحرافات المعيارية لكل سؤال وارد بهذه الاستبانة لهذا المحور، وقد أشارت نتائج الدراسة إلى :

١- بشكل عام تميل اتجاهات مفردات عينة الدراسة إلى الموافقة بدرجة فوق المتوسطة، حيث بلغ المتوسط الحسابي العام ٤,١١، على أهمية وجود برنامج للتأمين الصحي يغطي المخاطر التي يتعرض لها الطالب والمنسوب المريض .

٢- أعطى مفردات عينة الدراسة درجة موافقة فوق متوسطة لأهم العناصر الممثلة لوجود برنامج للتأمين الصحي لطلاب الجامعة وهي :

- إن وجود هذا النوع من وثائق التامين الصحي التعاوني سوف يوفر خدمات صحية أشمل لطلاب ومنسوبي الجامعة.
- إن وجود هذا النوع من وثائق التامين الصحي التعاوني سوف يلبي رغبة طلاب ومنسوبي الجامعة في توفير قدر مناسب من الرعاية الصحية لهم حاليا ولعائلاتهم مستقبلا .
- إن وجود هذا النوع من وثائق التامين الصحي التعاوني سوف يعمل على تحقيق قدر مناسب من الرعاية الصحية لطلاب ومنسوبي الجامعة .
- إن وجود هذا النوع من وثائق التامين الصحي التعاوني سوف يوفر قدرا مناسبا من التغطية الصحية لطلاب ومنسوبي الجامعة ، بينما يحمل الجامعة اقل قدر من الأعباء المالية ، ويجنبها هدر مواردها المنصرفة من خلال الوحدة الصحية بالجامعة .
- هذا النوع من وثائق التامين الصحي التعاوني سوف يجعل قدرة الجامعة على توفير أنظمة صحية بمواصفات خاصة تلاءم مستوى منسوبيها .

المحور الرابع: الأسباب التي يمكن أن تدفع جامعة الطائف للتعاقد مع شركة تأمين صحي تعاوني معينة دون غيرها - من وجهة نظر الطلاب والمنسوبين كمستفيدين من هذه الخدمة.

وللتعرف على أهم هذه الأسباب من واقع أراء مفردات العينة، تم تفريغ بيانات الاستبانات لهذا المحور، ثم تم حساب المتوسطات الحسابية والانحرافات المعيارية لكل سؤال وارد بهذه الاستبانات لهذا المحور، وقد أشارت نتائج الدراسة إلى :

١- بشكل عام تميل اتجاهات مفردات عينة الدراسة إلى الموافقة بدرجة فوق المتوسطة على أن هناك العديد من الأسباب التي يمكن أن تدفع جامعة الطائف للتعاقد مع شركة تأمين صحي تعاوني معينة دون غيرها، حيث بلغ المتوسط الحسابي العام للموافقة على هذه الأسباب ٤,٢٦

٢- أعطى مفردات عينة الدراسة درجة موافقة فوق متوسطة لأهم الأسباب التي تدفع الجامعة للتعاقد مع شركة تأمين صحي دون غيرها وهي :

- تفضيل التعاقد مع شركة تأمين صحي تعاوني تتيح لطلاب ومنسوبي جامعة الطائف (المستفيدين) حرية اكبر في اختيار الطبيب المعالج.
- تفضيل التعاقد مع شركة تأمين صحي تعاوني تتيح لطلاب ومنسوبي جامعة الطائف معلومات صحيحة وكاملة عن الخدمة الصحية المقدمة .
- تفضيل التعاقد مع شركة تأمين صحي تعاوني قادرة على توفير خدمات طبية طارئة أو استثنائية لطلاب ومنسوبي جامعة الطائف .

- تفضيل التعاقد مع شركة تأمين صحي تعاوني قادرة على أن تتابع الخدمة المقدمة لطلاب و منسوبي جامعة الطائف قبل وأثناء وبعد العلاج.
- تفضيل التعاقد مع شركة تأمين صحي تعاوني تتعامل مع مستشفيات مشهورة وأطباء أكفاء يقدمون خدمات طبية متميزة لطلاب ومنسوبي جامعة الطائف.

المبحث الثاني
اختبار الفروض الإحصائية

في ضوء مشكلة البحث وأهميته فضلا عن تحقيق الهدف الرئيسي من هذا البحث، فقد قام فريق البحث بصياغة واختبار الفروض التالية وهى :

الفرض الأول

«لا توجد فروق ذات دلالة إحصائية بين متوسط المشاكل التي يتعرض لها كلا من الطلاب وأعضاء هيئة التدريس والموظفين المراجعين للوحدة الصحية وذلك بمستوى معنوية ٥٪».

وقد تم اختبار هذا الفرض باستخدام اختبار تحليل التباين في اتجاه واحد One Way ANOVA) Analysis Of Variance). وذلك على النحو التالي:

الفرض العدمى $H_o : \mu_1 = \mu_2 = \mu_3$

الفرض البديل $H_1 : \mu_1 \neq \mu_2 \neq \mu_3$ في اتجاهين.

وباستخدام البيانات المتاحة وحزم البرامج الجاهزة SPSS توصل فريق البحث إلى النتائج التالية :

جدول رقم (٣)

متوسط المشاكل التي يتعرض لها كلا من الطلاب وأعضاء هيئة التدريس والموظفين

بيان	عدد مفردات الدراسة	متوسط المشاكل	الانحراف المعياري للمشاكل ٪	حدود الثقة بدرجة ثقة ٩٥٪		أقل قيمة	أكبر قيمة
				الحد الأدنى للثقة	الحد الأعلى للثقة		
الطلاب	162	3.7593	1.31784	3.5548	3.9637	1.00	5.00
أعضاء هيئة التدريس	94	3.0319	1.52719	2.7191	3.3447	1.00	5.00
الموظفين	48	4.7292	.70679	4.5239	4.9344	2.00	5.00
الإجمالي	304	3.6875	1.42272	3.5269	3.8481	1.00	5.00

جدول رقم (٤)

اختبار ليفن لتجانس التباين

إحصاءة ليفن	درجات الحرية (١)	درجات الحرية (٢)	مستوى المعنوية
29.208	2	301	.000

جدول رقم (٥)

اختبار F لفحص فرضيات تحليل التباين

بيان	مجموع المربعات	درجات الحرية	متوسط المربعات	F	مستوى الدلالة
بين المجموعات	93.318	2	46.659	27.009	.000
داخل المجموعات	519.995	301	1.728		
الإجمالي	613.313	303			

جدول رقم (٦)

نتائج اختبار شيفيه، LDS للمقارنات البعدية حسب المشاكل التي يتعرض لها الطلاب وأعضاء هيئة التدريس والموظفين عند مراجعتهم للوحة الصحية بالجامعة

الاختبار	العامل (I)	العامل (J)	متوسط الفروق (I-J)	الخطأ المعياري	مستوى الدلالة	فترة الثقة	
						الحد الأدنى	الحد الأدنى
Scheffe	1.00	2.00	.72734(×)	.17042	.000	.3081	1.1466
		3.00	-.96991(×)	.21600	.000	-1.5013	-.4386
	2.00	1.00	-.72734(×)	.17042	.000	-1.1466	-.3081
		3.00	-1.69725(×)	.23317	.000	-2.2708	-1.1237
	3.00	1.00	.96991(×)	.21600	.000	.4386	1.5013
		2.00	1.69725(×)	.23317	.000	1.1237	2.2708
LDS	1.00	2.00	.72734(×)	.17042	.000	.3920	1.0627
		3.00	-.96991(×)	.21600	.000	-1.3950	-.5449
	2.00	1.00	-.72734(×)	.17042	.000	-1.0627	-.3920
		3.00	-1.69725(×)	.23317	.000	-2.1561	-1.2384
	3.00	1.00	.96991(×)	.21600	.000	.5449	1.3950
		2.00	1.69725(×)	.23317	.000	1.2384	2.1561

يتضح من الجداول السابقة ما يلي:

من جدول رقم (٣) والذي يوضح المتوسطات والانحرافات المعيارية المشاكل التي يتعرض لها الطلاب وأعضاء هيئة التدريس والموظفين عند مراجعتهم للوحدة الصحية بالجامعة، يتضح أن متوسط هذه المشاكل كانت على النحو التالي:

- للطلاب والطالبات كان متوسط حجم هذه المشاكل ٣,٨، وبانحراف معياري ١,٣
- لأعضاء هيئة التدريس كان متوسط حجم هذه المشاكل ٣، وبانحراف معياري ١,٥
- للموظفين كان متوسط حجم هذه المشاكل ٤,٧، وبانحراف معياري ١

وهذا يعني أن حجم المشاكل التي يتعرض لها الموظفين تحتل المرتبة الأولى ثم الطلاب وأخيرا أعضاء هيئة التدريس .

من جدول رقم (٤) والذي يوضح اختبار ليفن لتجانس التباين Test of Homogeneity of Variances وفيه يظهر أن تباين متوسط المشاكل التي يتعرض لها كلا من الطلاب وأعضاء هيئة التدريس والموظفين غير متساوية، حيث أن قيمة مستوى المعنوية Sig. أقل من مستوى

الدلالة المطلوبة ، ٠٥, فهي كما واضح من هذا الجدول تعادل ٠,٠٠٠

من جدول رقم (٥) والذي يوضح اختبار F لفحص فرضيات تحليل التباين الثنائي يتضح أن: هناك فروق ذات دلالة إحصائية على مستوى ٠٥, ، بين كلا من الطلاب وأعضاء هيئة التدريس والموظفين، حيث كانت قيمة مستوى الدلالة .Sig أقل من مستوى الدلالة المطلوبة ٠٥, فهي كما واضح من هذا الجدول تعادل ٠,٠٠، وأن قيمة F المحسوبة تعادل ٢٧,٠٠٩ وبدرجات حرية بين المجموعات ٢، وداخل المجموعات ٣٠١، وبالتالي فهي تقع في منطقة رفض الفرض العدمي وقبول الفرض البديل .

من جدول رقم (٦) والذي يوضح نتائج اختبار شيفيه واختبار LDS للمقارنات البعدية يتضح أن•:

- مقدار الفروق بين الطلاب وكلا من أعضاء هيئة التدريس والموظفين قد بلغ ٠,٧٢٧ ، -٠,٩٧٠ على الترتيب، وهذه الفروق ذات دلالة إحصائية بمستويات معنوية أقل من ٠٥, .
- مقدار الفروق بين أعضاء هيئة التدريس وكلا من الطلاب والموظفين قد بلغ -٠,٧٢٧ ، -١,٧٠ على الترتيب، وهذه الفروق ذات دلالة إحصائية بمستويات معنوية أقل من ٠٥, .
- مقدار الفروق بين الموظفين وكلا من الطلاب وأعضاء هيئة التدريس قد بلغ ٠,٩٧ ، ١,٧٠ على الترتيب، وهذه الفروق ذات دلالة إحصائية بمستويات معنوية أقل من ٠٥, .

نخلص مما سبق أنه من نتائج اختبار F واختبار شيفيه واختبار LSD الواردة بجداول رقم (٥)، (٦) ومستوى دلالتها، يتضح أن هناك فروق كثيرة بين متوسطات المشاكل التي يتعرض لها كلا من الطلاب وأعضاء هيئة التدريس والموظفين عند مراجعتهم للوحدة الصحية بالجامعة، أي أن «توجد فروق ذات دلالة إحصائية بين متوسط المشاكل التي يتعرض لها الطلاب وأعضاء هيئة التدريس والموظفين عند مراجعتهم للوحدة الصحية بالجامعة وذلك بمستوى معنوية ٥٪».

الفرض الثاني

«لا توجد فروق ذات دلالة إحصائية بين متوسط أراء كلا من الطلاب وأعضاء هيئة التدريس والموظفين المراجعين للوحدة الصحية حول ضعف الدور الحالي للجامعة في توفير خدمة صحية مناسبة لطلابها ومنسوبيها وذلك بمستوى معنوية ٥٪».

• يستخدم اختبار شيفيه في إجراء جميع المقارنات بين الأوساط وهى الطريقة المفضلة في حالة كون حجوم الخلايا غير متساوية أو عند الرغبة في إجراء مقارنات معقدة كأن نقارن ثلاث مجتمعات بمجتمع واحد أو مجتمعين مقابل مجتمعين أو غيرها من مثل هذه المقارنات.

وقد تم اختبار هذا الفرض باستخدام اختبار تحليل التباين في اتجاه واحد One Way ANOVA (Analysis Of Variance). وذلك على النحو التالي:

الفرض العدمى $H_o : \mu_1 = \mu_2 = \mu_3$

الفرض البديل $H_1 : \mu_1 \neq \mu_2 \neq \mu_3$ في اتجاهين.

وباستخدام البيانات المتاحة وحزم البرامج الجاهزة SPSS توصل الباحثان إلى النتائج التالية:

جدول رقم (٧)

متوسط آراء كلا من الطلاب وأعضاء هيئة التدريس والموظفين حول ضعف الدور الحالي للجامعة في توفير خدمة صحية مناسبة

بيان	عدد مفردات الدراسة	متوسط الآراء	الانحراف المعياري للمشاكل ٪	حدود الثقة بدرجة ثقة ٩٥٪		أقل قيمة	أكبر قيمة
				الحد الأدنى للثقة	الحد الأعلى للثقة		
الطلاب	162	2.2901	1.37720	2.0764	2.5038	1.00	5.00
أعضاء هيئة التدريس	94	2.6596	1.35641	2.3818	2.9374	1.00	5.00
الموظفين	48	1.9375	1.09944	1.6183	2.2567	1.00	5.00
الإجمالي	304	2.3487	1.34856	2.1965	2.5009	1.00	5.00

جدول رقم (٨)

اختبار ليفن لتجانس التباين

إحصاءة ليفن	درجات الحرية (١)	درجات الحرية (٢)	مستوى المعنوية
3.228	2	301	.041

جدول رقم (٩)

اختبار F لفحص فرضيات تحليل التباين

بيان	مجموع المربعات	درجات الحرية	متوسط المربعات	F	مستوى الدلالة
بين المجموعات	17.756	2	8.878	5.011	.007
داخل المجموعات	533.283	301	1.772		
الإجمالي	551.039	303			

جدول رقم (١٠)

نتائج اختبار شيفيه، واختبار LDS للمقارنات البعدية حسب آراء الطلاب وأعضاء هيئة التدريس والموظفين حول ضعف الدور الحالي للجامعة في توفير خدمة صحية مناسبة

الاختبار	العامل (I)	العامل (J)	(I-J) متوسط الفروق	الخطأ المعياري	مستوى الدلالة	فترة الثقة	
						الحد الأدنى	الحد الأدنى
Scheffe	1.00	-.36945	.17258	.7940	.103	.0551	-.36945
		.35262	.21874	.1855	.274	.8907	.35262
	2.00	.36945	.17258	.0551	.103	.7940	.36945
		.72207(×)	.23613	.1412	.010	1.3030	.72207(×)
	3.00	-.35262	.21874	.8907	.274	.1855	-.35262
		-.72207(×)	.23613	1.3030	.010	-.1412	-.72207(×)
LDS	1.00	-.36945(×)	.17258	.7091	.033	-.0298	-.36945(×)
		.35262	.21874	.0778	.108	.7831	.35262
	2.00	.36945(×)	.17258	.0298	.033	.7091	.36945(×)
		.72207(×)	.23613	.2574	.002	1.1868	.72207(×)
	3.00	-.35262	.21874	.7831	.108	.0778	-.35262
		-.72207(×)	.23613	1.1868	.002	-.2574	-.72207(×)

يتضح من الجداول السابقة ما يلي:

من جدول رقم (٧) والذي يوضح المتوسطات والانحرافات المعيارية لأراء مفردات الدراسة من الطلاب وأعضاء هيئة التدريس والموظفين حول ضعف الدور الحالي للجامعة في توفير خدمة صحية مناسبة لطلابها ومنسوبيها على النحو التالي:

- للطلاب والطالبات كان متوسط حجم هذه الآراء ٢,٣، وبانحراف معياري ١,٤
- لأعضاء هيئة التدريس كان متوسط حجم هذه المشاكل ٢,٧، وبانحراف معياري ١,٤
- للموظفين كان متوسط حجم هذه المشاكل ١,٩، وبانحراف معياري ١,١

وهذا يعني أن رأي أعضاء هيئة التدريس حول انخفاض دور الجامعة الحالي في توفير خدمة صحية مناسبة لطلابها ومنسوبيها يحتل المرتبة الأولى ثم الطلاب وأخيرا الموظفين .

من جدول رقم (٨) والذي يوضح اختبار ليفن لتجانس التباين Test of Homogeneity of Variances وفيه يظهر أن تباين متوسط أراء مفردات الدراسة من الطلاب وأعضاء هيئة التدريس والموظفين حول ضعف الدور الحالي للجامعة في توفير خدمة صحية مناسبة لطلابها ومنسوبيها غير متساوية، حيث أن قيمة مستوى المعنوية Sig. أقل من مستوى الدلالة المطلوبة، ٠٥, فهي كما واضح من هذا الجدول تعادل ٠,٠٤١

من جدول رقم (٩) والذي يوضح اختبار F لفحص فرضيات تحليل التباين يتضح أن: هناك فروق ذات دلالة إحصائية عند مستوى ٠٥, ، بين أراء كلا من الطلاب وأعضاء هيئة التدريس والموظفين حول الدور الحالي الضعيف للجامعة في توفير خدمة صحية مناسبة لمنسوبيها، حيث كانت قيمة مستوى الدلالة Sig. أقل من مستوى الدلالة المطلوبة ٠٥, ، فهي كما واضح من هذا الجدول تعادل ٠,٠٠٧، وأن قيمة F المحسوبة تعادل ٥,٠١١ وبدرجات حرية بين المجموعات ٢، وداخل المجموعات ٣٠١، وبالتالي فهي تقع في منطقة رفض الفرض العدمي وقبول الفرض البديل .

من جدول رقم (١٠) والذي يوضح نتائج اختبار شيفيه واختبار LDS للمقارنات البعدية يتضح أن :

- لا توجد فروق ذات دلالة إحصائية بين الطلاب وكلا من أعضاء هيئة التدريس والموظفين.
- لا توجد فروق ذات دلالة إحصائية بين أعضاء هيئة التدريس والطلاب.
- توجد فروق ذات دلالة إحصائية بين أعضاء هيئة التدريس والموظفين، وقد بلغ هذا الفرق ٠,٧٢

نخلص مما سبق أنه من نتائج اختبار F واختبار شيفيه LSD الواردة بجداول رقم (٩)، (١٠) ومستوى دلالتها، يتضح أن هناك فروق ذات دلالة إحصائية بين متوسطات أراء كلا من

أعضاء هيئة التدريس والموظفين فقط، أي أن «توجد فروق ذات دلالة إحصائية بين متوسط أراء كلا من الطلاب وأعضاء هيئة التدريس والموظفين حول الدور الحالي الضعيف للجامعة في توفير خدمة صحية مناسبة لمنسوبيها وذلك بمستوى معنوية ٥٪».

الفرض الثالث

«لا توجد فروق ذات دلالة إحصائية بين متوسط أراء كلا من الطلاب وأعضاء هيئة التدريس والموظفين المراجعين للوحدة الصحية حول أهمية وجود برنامج للتأمين الصحي يغطي المخاطر الصحية التي يتعرض لها الطالب والمنسوب وذلك بمستوى معنوية ٥٪».

وقد تم اختبار هذا الفرض باستخدام اختبار تحليل التباين في اتجاه واحد One Way ANOVA (Analysis Of Variance). وذلك على النحو التالي:

الفرض العدمى $H_o : \mu_1 = \mu_2 = \mu_3$

الفرض البديل $H_1 : \mu_1 \neq \mu_2 \neq \mu_3$ في اتجاهين.

وباستخدام البيانات المتاحة وحزم البرامج الجاهزة SPSS توصل الباحثان إلى النتائج التالية:

جدول رقم (١١)

متوسطات أراء كلا من الطلاب وأعضاء هيئة التدريس والموظفين المراجعين للوحدة الصحية حول أهمية وجود برنامج للتأمين الصحي يغطي المخاطر الصحية التي يتعرض لها الطالب والمنسوب

بيان	عدد مفردات الدراسة	متوسط المشاكل	الانحراف المعياري للمشاكل ٪	حدود الثقة بدرجة ثقة ٩٥٪		أقل قيمة	أكبر قيمة
				الحد الأدنى للثقة	الحد الأعلى للثقة		
الطلاب	162	4.2469	1.37720	4.0559	4.4380	1.00	5.00
أعضاء هيئة التدريس	94	3.8617	1.35641	3.5665	4.1569	1.00	5.00
الموظفين	48	4.0417	1.09944	3.6537	4.4297	1.00	5.00
الإجمالي	304	4.0954	1.34856	3.9461	4.2447	1.00	5.00

جدول رقم (١٢)

اختبار ليفن لتجانس التباين

إحصاءة ليفن	درجات الحرية (١)	درجات الحرية (٢)	مستوى المعنوية
1.685	2	301	.187

جدول رقم (١٣)

اختبار F لفحص فرضيات تحليل التباين

بيان	مجموع المربعات	درجات الحرية	متوسط المربعات	F	مستوى الدلالة
بين المجموعات	8.991	2	4.496	2.596	.076
داخل المجموعات	521.242	301	1.732		
الإجمالي	530.234	303			

جدول رقم (١٤)

نتائج اختبار شيفيه، واختبار LDS للمقارنات البعدية حسب متوسطات أراء كلا من الطلاب وأعضاء هيئة التدريس والموظفين المراجعين للوحدة الصحية حول أهمية وجود برنامج للتأمين الصحي يغطي المخاطر الصحية التي يتعرض لها الطالب والمنسوب

الاختبار	العامل (I)	العامل (J)	(I-J) متوسط الفروق	الخطأ المعياري	مستوى الدلالة	فترة الثقة	
						الحد الأدنى	الحد الأدنى
Scheffe	1.00	2.00	.38521	.17062	.080	-.0345	.8049
		3.00	.20525	.21626	.638	-.3267	.7372
	2.00	1.00	-.38521	.17062	.080	-.8049	.0345
		3.00	-.17996	.23345	.743	-.7542	.3943
	3.00	1.00	-.20525	.21626	.638	-.7372	.3267
		2.00	.17996	.23345	.743	-.3943	.7542
LDS	1.00	2.00	.38521(×)	.17062	.025	.0494	.7210
		3.00	.20525	.21626	.343	-.2203	.6308
	2.00	1.00	-.38521(×)	.17062	.025	-.7210	-.0494
		3.00	-.17996	.23345	.441	-.6394	.2794
	3.00	1.00	-.20525	.21626	.343	-.6308	.2203
		2.00	.17996	.23345	.441	-.2794	.6394

يتضح من الجداول السابقة ما يلي :

من جدول رقم (١١) والذي يوضح المتوسطات والانحرافات المعيارية لأراء مفردات الدراسة من الطلاب وأعضاء هيئة التدريس والموظفين المراجعين للوحدة الصحية حول أهمية وجود برنامج للتأمين الصحي يغطي المخاطر الصحية التي يتعرض لها الطالب والمنسوب كانت على النحو التالي:

- للطلاب والطالبات كان متوسط حجم هذه الآراء ٤,٢، وبانحراف معياري ١,٤
- لأعضاء هيئة التدريس كان متوسط حجم هذه الآراء ٣,٩، وبانحراف معياري ١,٤
- للموظفين كان متوسط حجم هذه الآراء ٤,١، وبانحراف معياري ١,٣

وهذا يعني أن رأي الطلاب حول أهمية وجود برنامج للتأمين الصحي يغطي طلاب ومنسوبي الجامعة يحتل المرتبة الأولى ثم الموظفين ثم أعضاء هيئة التدريس .

من جدول رقم (١٢) والذي يوضح اختبار ليفن لتجانس التباين Test of Homogeneity of Variances وفيه يظهر أن تباين متوسط أراء مفردات الدراسة من الطلاب وأعضاء هيئة التدريس والموظفين حول أهمية وجود برنامج التأمين الصحي متساوية، حيث أن قيمة مستوى المعنوية Sig. أكبر من مستوى الدلالة المطلوبة ٠٥, ، فهي كما واضح من هذا الجدول تعادل ١٨٧, ٠

من جدول رقم (١٣) والذي يوضح اختبار F لفحص فرضيات تحليل التباين الثنائي يتضح أن: ليس هناك فروق ذات دلالة إحصائية على مستوى ٠٥, ، بين أراء كلا من الطلاب وأعضاء هيئة التدريس والموظفين حول أهمية وجود برنامج للتأمين الصحي يغطي طلاب ومنسوبي جامعة الطائف، حيث كانت قيمة مستوى الدلالة Sig. أكبر من مستوى الدلالة المطلوبة ٠٥, ، فهي كما واضح من هذا الجدول تعادل ٠,٠٧٦، وأن قيمة F المحسوبة تعادل ٤,٤٩٦ وبدرجات حرية بين المجموعات ٢، وداخل المجموعات ٣٠١، وبالتالي فهي تقع في منطقة قبول الفرض العدمي ورفض الفرض البديل .

من جدول رقم (١٤) والذي يوضح نتائج اختبار شيفيه واختبار LDS للمقارنات البعدية يتضح أن: لا توجد فروق ذات دلالة إحصائية بين الطلاب وأعضاء هيئة التدريس والموظفين حول مدى أهمية وجود برنامج للتأمين الصحي يوفر الحماية الصحية لطلاب ومنسوبي الجامعة .

نخلص مما سبق أنه من نتائج اختبار F واختبار شيفيه واختبار LSD الواردة بجداول رقم (١٣)، (١٤) ومستوى دلالتها، يتضح أنه ليس هناك فروق ذات دلالة إحصائية بين متوسطات أراء كلا من الطلاب وأعضاء هيئة التدريس والموظفين حول أهمية برنامج التأمين الصحي، أي

أن «لا توجد فروق ذات دلالة إحصائية بين متوسط أراء كلا من الطلاب وأعضاء هيئة التدريس والموظفين حول أهمية برنامج التأمين الصحي وذلك بمستوى معنوية ٥٪».

الفرض الرابع

«لا توجد فروق ذات دلالة إحصائية بين متوسط أراء كلا من الطلاب وأعضاء هيئة التدريس والموظفين المراجعين للوحدة الصحية بشأن الاعتبارات الواجب مراعاتها من جانب جامعة الطائف عند اختيار شركة التأمين الصحي التعاوني التي سيتم التعاقد معها دون غيرها وذلك بمستوى معنوية ٥٪».

وقد تم اختبار هذا الفرض باستخدام اختبار تحليل التباين في اتجاه واحد One Way ANOVA (Analysis Of Variance). وذلك على النحو التالي:

الفرض العدمى $H_o : \mu_1 = \mu_2 = \mu_3$

الفرض البديل $H_1 : \mu_1 \neq \mu_2 \neq \mu_3$ في اتجاهين.

وباستخدام البيانات المتاحة وحزم البرامج الجاهزة SPSS توصل الباحثان إلى النتائج التالية :

جدول رقم (١٥)

متوسط أراء كلا من الطلاب وأعضاء هيئة التدريس والموظفين المراجعين للوحدة الصحية بشأن الاعتبارات الواجب مراعاتها عند اختيار شركة تأمين صحي دون غيرها

بيان	عدد مفردات الدراسة	متوسط الآراء	الانحراف المعياري للمشاكل ٪	حدود الثقة بدرجة ثقة ٩٥٪		أقل قيمة	أكبر قيمة
				الحد الأدنى للثقة	الحد الأعلى للثقة		
الطلاب	162	4.1914	1.10073	4.0206	4.3621	1.00	5.00
أعضاء هيئة التدريس	94	3.8511	1.48800	3.5463	4.1558	1.00	5.00
الموظفين	48	4.5625	.71179	4.3558	4.7692	3.00	5.00
الإجمالي	304	4.1447	1.20728	4.0085	4.2810	1.00	5.00

جدول رقم (١٦)

اختبار ليفن لتجانس التباين

إحصاءة ليفن	درجات الحرية (١)	درجات الحرية (٢)	مستوى المعنوية
15.343	2	301	.000

جدول رقم (١٧)

اختبار F لفحص فرضيات تحليل التباين

بيان	مجموع المربعات	درجات الحرية	متوسط المربعات	F	مستوى الدلالة
بين المجموعات	16.836	2	8.418	5.965	.003
داخل المجموعات	424.795	301	1.411		
الإجمالي	441.632	303			

جدول رقم (١٨)

نتائج اختبار شيفيه، واختبار LDS للمقارنات البعدية حسب متوسطات أراء كلا من الطلاب وأعضاء هيئة التدريس والموظفين المراجعين للوحدة الصحية بشأن الاعتبارات الواجب مراعاتها عند اختيار شركة تأمين صحي دون غيرها

الاختبار	العامل (I)	العامل (J)	(I-J) متوسط الفروق	الخطأ المعياري	مستوى الدلالة	فترة الثقة	
						الحد الأدنى	الحد الأدنى
Scheffe	1.00	2.00	.34029	.15403	.089	-.0386	.7192
		3.00	-.37114	.19523	.166	-.8514	.1091
	2.00	1.00	-.34029	.15403	.089	-.7192	.0386
		3.00	-.71144(×)	.21075	.004	-1.2299	-.1930
	3.00	1.00	.37114	.19523	.166	-.1091	.8514
		2.00	.71144(×)	.21075	.004	.1930	1.2299
LDS	1.00	2.00	.34029(×)	.15403	.028	.0372	.6434
		3.00	-.37114	.19523	.058	-.7553	.0130
	2.00	1.00	-.34029(×)	.15403	.028	-.6434	-.0372
		3.00	-.71144(×)	.21075	.001	-1.1262	-.2967
	3.00	1.00	.37114	.19523	.058	-.0130	.7553
		2.00	.71144(×)	.21075	.001	.2967	1.1262

يتضح من الجداول السابقة ما يلي :

من جدول رقم (١٥) والذي يوضح المتوسطات والانحرافات المعيارية لأراء مفردات الدراسة من الطلاب وأعضاء هيئة التدريس والموظفين المراجعين للوحدة الصحية بشأن الاعتبارات الواجب مراعاتها عند اختيار شركة تأمين صحي دون غيرها كانت على النحو التالي:

للطلاب والطالبات كان متوسط حجم هذه الآراء ٤,٢، وبانحراف معياري ١,١

لأعضاء هيئة التدريس كان متوسط حجم هذه المشاكل ٣,٩، وبانحراف معياري ١,٥

للموظفين كان متوسط حجم هذه المشاكل ٤,٦، وبانحراف معياري ١

وهذا يعني أن رأي الموظفين حول الأسباب التي يمكن أن تدفع الجامعة للتعاقد مع شركة تأمين صحي دون غيرها يحتل المرتبة الأولى ثم الطلاب ثم أعضاء هيئة التدريس .

من جدول رقم (١٦) والذي يوضح اختبار ليفن لتجانس التباين Test of Homogeneity of Variances وفيه يظهر أن تباين متوسط أراء مفردات الدراسة من الطلاب وأعضاء هيئة التدريس والموظفين حول بشأن الاعتبارات الواجب مراعاتها عند اختيار شركة تأمين صحي دون غيرها غير متساوية، حيث أن قيمة مستوى المعنوية Sig. أقل من مستوى الدلالة المطلوبة ٠٥,٠ ، فهي كما واضح من هذا الجدول تعادل ٠,٠٠٠

من جدول رقم (١٦) والذي يوضح اختبار F لفحص فرضيات تحليل التباين يتضح أن: هناك فروق ذات دلالة إحصائية على مستوى ٠٥,٠ ، بين أراء كلا من الطلاب وأعضاء هيئة التدريس والموظفين حول الأسباب التي يمكن أن تدفع جامعة الطائف للتعاقد مع شركة تأمين صحي دون غيرها، حيث كانت قيمة مستوى الدلالة Sig. أقل من مستوى الدلالة المطلوبة ٠٥,٠ ، فهي كما واضح من هذا الجدول تعادل ٠,٠٣، وأن قيمة F المحسوبة تعادل ٥,٩٦٥ وبدرجات حرية بين المجموعات ٢، وداخل المجموعات ٣٠١، وبالتالي فهي تقع في منطقة رفض الفرض العدمي وقبول الفرض البديل .

من جدول رقم (١٨) والذي يوضح نتائج اختبار شيفيه واختبار LDS للمقارنات البعدية يتضح أن:

لا توجد فروق ذات دلالة إحصائية بين الطلاب وكلا من أعضاء هيئة التدريس والموظفين حول الأسباب التي يمكن أن تدفع جامعة الطائف للتعاقد مع شركة تأمين صحي تعاوني معينة دون غيرها .

توجد فروق ذات دلالة إحصائية بين أعضاء هيئة التدريس والموظفين حول الأسباب التي يمكن أن تدفع جامعة الطائف للتعاقد مع شركة تأمين صحي تعاوني معينة دون غيرها .

نخلص مما سبق أنه من نتائج اختبار F واختبار شيفيه واختبار LSD الواردة بجداول رقم (١٧)، (١٨) ومستوى دلالتها، يتضح أن هناك فروق ذات دلالة إحصائية بين حول الأسباب التي يمكن أن تدفع جامعة الطائف للتعاقد مع شركة تأمين صحي تعاوني معينة دون غيرها، أي أن «توجد فروق ذات دلالة إحصائية بين متوسط أراء كلا من الطلاب وأعضاء هيئة التدريس والموظفين حول الأسباب التي يمكن أن تدفع جامعة الطائف للتعاقد مع شركة تأمين صحي تعاوني معينة دون غيرها وذلك بمستوى معنوية ٥٪».

الفصل الثالث
النظام المقترح لنظام التأمين
الصحي على طلاب وطالبات ومنسوبي جامعة الطائف

مقدمة

في ضوء الدراسة التطبيقية والتي تؤكد انخفاض مستوى الخدمة الصحية التي تقدمها الجامعة حالياً لطلابها ومنسوبيها، يقترح الباحثان إنشاء صندوق خاص بجامعة الطائف يقدم لطلاب الجامعة ومنسوبيها الرعاية الصحية داخل وخارج المستشفيات وصرف الدواء، من خلال التعاقد مع إحدى مؤسسات التأمين الصحي التعاوني بمقتضى وثيقة تأمين صحي واحدة لتغطية جميع طلاب الجامعة ومنسوبيها وأسرهم، وتكون مسئولية جامعة الطائف (المؤمن له) سداد قيمة الاشتراكات في مواعيد استحقاقها، وفى المقابل تكون مسؤولية مؤسسة التأمين الصحي التعاوني (المؤمن) توفير الرعاية الصحية لطلاب ومنسوبي الجامعة، على أن تكون مهام الإدارة المسئولة عن توفير نظام التأمين الصحي لطلاب ومنسوبي جامعة الطائف هي :

١- تحويل المرضى من طلاب ومنسوبي جامعة الطائف المؤمن عليهم إلى خارج مستشفيات وزارة الصحة، إلى المستشفيات والعيادات والمستوصفات الخاصة .

٢- التعامل مع الحالات الطارئة للمرضى من طلاب ومنسوبي جامعة الطائف المؤمن عليهم وإصدار بطاقات التغطية لهم بعد موافقة اللجنة المختصة على الحالة.

٣- التعامل مع موافقات الإعفاء من الاشتراكات لحالات خاصة بعد موافقة اللجنة المختصة.

٤- العمل على إنشاء آلية اتصال فعالة ما بين الإدارة المسئولة عن التامين الصحي بالجامعة ومزودي خدمة التأمين الصحي التعاوني.

٥- صرف البطاقات للمستفيدين من التأمين الصحي من طلاب ومنسوبي جامعة الطائف.

٦- توفير قاعدة بيانات متكاملة لجميع المستفيدين من التأمين الصحي من طلاب ومنسوبي جامعة الطائف، تتضمن جميع التحويلات الخاصة بهم والوصفات التي تصرف لهم على حساب التأمين الصحي، وتضم أيضا جميع البيانات المالية لإدارة التأمين الصحي بالإضافة لتوفير معلومات عن المستفيدين من الإعفاءات.

ولا شك أن توفير وتطبيق هذا البرنامج الصحي التعاوني سوف يحقق عدة مزايا لعل أهمها ما يلي:

١- إن تطبيق هذا البرنامج الصحي التعاوني سوف يقوم بدور فعال في تحسين مستوى الخدمات

الصحية المقدمة للطلاب ومنسوبي الجامعة كما ونوعا وبأسعار اقتصادية (Bloom DE، Canning D، 2004).

٢- إن تطبيق هذا البرنامج الصحي التعاوني سوف يجسد مفهوم التكافل والتعاون داخل الجامعة، حيث تتحمل المجموعة مع الفرد في تحمل تكاليف العناية الصحية التي يحتاجها.

٣- إن تطبيق هذا البرنامج الصحي التعاوني سوف يؤدي إلى توفير مصادر التمويل لتوفير رعاية صحية عالية المستوى.

٤- إن تطبيق هذا البرنامج الصحي التعاوني سوف يعمل مستقبلا على توسيع مظلة التأمين الصحي التعاوني لشمول فئات جديدة، كأسر منسوبي الجامعة مثلا .

٥- إن تطبيق هذا البرنامج الصحي التعاوني سوف يحقق المحافظة على حقوق المستفيدين - طلاب ومنسوبي الجامعة - من خلال نظام تعاقدي متميز.

٦- إن تطبيق هذا البرنامج الصحي التعاوني سوف يعمل على توجيه الإنفاق والحد من الهدر والاستغلال الأمثل لموارد الجامعة وضمان استرداد التكلفة .

٧- إن تطبيق هذا البرنامج الصحي التعاوني سوف يعمل على توفير قاعدة بيانات متكاملة تحتوي على جميع البيانات لكل المستفيدين من التأمين الصحي التعاوني، يتسنى من خلالها الحصول على إحصائيات دقيقة تفيد في تخطيط الرعاية الصحية لجامعة الطائف وغيرها من الجامعات مستقبلا .

٨- إن تطبيق هذا البرنامج الصحي التعاوني سوف يعمل على تحسين جودة الخدمات الصحية المقدمة لطلاب ومنسوبي الجامعة، خاصة في ظل المنافسة القوية بين شركات التأمين الصحي التعاوني العاملة في سوق المملكة (عبد الإله الساعاتي، ٢٠٠٤) .

٩- إن تطبيق هذا البرنامج الصحي التعاوني سوف يجعل شركات التأمين الصحي تقوم بتطوير أنظمتها الإدارية والمالية والطبية والفنية لمراقبة واحتواء التكاليف وتوظيف الكوادر المؤهلة وتدريبها التدريب المناسب والعمل على توطين صناعة التأمين (عبد الإله الساعاتي، ١٤٢٤ هـ).

١٠- إن تطبيق هذا البرنامج الصحي التعاوني سوف يخفف من العبء على المستشفيات الحكومية بمدينة الطائف .

١١- إن تطبيق هذا البرنامج الصحي التعاوني سوف يكون له مردود غير مباشر على المجتمع، فتطبيق برنامج التأمين الصحي التعاوني سوف يؤدي إلي زيادة الطلب على خدمات المرافق الصحية، وزيادة الطلب على القوى العاملة الصحية (محمد إبراهيم شحاتة، ١٩٩٦).

١٢- إن تطبيق هذا البرنامج الصحي التعاوني سوف يساهم في تنظيم ونمو سوق العمل بمدينة الطائف، بالإضافة إلى إتاحة فرص وظيفية جديدة لأبناء مدينة الطائف (حسين برعي، ١٤٢٥ هـ) .

١٣- إن تطبيق هذا البرنامج الصحي التعاوني سوف يتيح الفرصة لبرامج جديدة للاستثمار في القطاع الصحي.

١٤- إن تطبيق هذا البرنامج الصحي التعاوني سوف يحقق تعزيز الشراكة مع القطاعات الأخرى، كقطاع الصحة وقطاع التأمين (صالح ناصر العمير، ١٩٩٦) .

ولا شك أن بحث أمر تطبيق نظام التأمين الصحي التعاوني لطلاب ومنسوبي الجامعة يستوجب أولا النظر إلى مشروعيته الدينية. ولقد أجازت هيئة كبار العلماء في المملكة العربية السعودية تطبيق نظام التأمين التعاوني، وذلك بموجب قرار هيئة كبار العلماء رقم (٥١) بتاريخ ١٣٩٧/٤/٤هـ، على أنه يتيح مشاركة المجموعة مع الفرد في تحمل تكاليف الخدمة العلاجية التي يحتاجها ولا يستهدف التجارة والربح .

خطوات وضع إستراتيجية لنظام التأمين الصحي بجامعة الطائف

يرى الباحثان أن هناك تسعة خطوات يجب أن تؤخذ في الاعتبار ويتم دراستها بعناية فائقة عند التخطيط لأي نظام للتأمين الصحي لكونها مكونات أساسية للنظام، وإذا أهملت بعض جوانبها سيؤثر ذلك حتما في فعالية وكفاءة النظام. وهذه الخطوات هي :

الخطوة الأولى: تحديد المستفيدين

الخطوة الأولى لتخطيط برنامج للتأمين الصحي بجامعة الطائف هي تحديد الفئات التي سيطبق عليها هذا البرنامج، وهم طلاب وطالبات ومنسوبي جامعة الطائف، ثم التدرج في التغطية لتشمل جميع فئات المجتمع محل التطبيق (أسر منسوبي جامعة الطائف مثلا) .

وهؤلاء المستفيدين يمكن تقسيمهم إلى عدة مجموعات على النحو التالي :

المجموعة الأولى: وتضم الفئات التالية :

١- معالي مدير الجامعة وسعادة وكلاء الجامعة وعمداء ووكلاء الكليات.

٢- رؤساء الأقسام العلمية وأعضاء هيئة التدريس ومعاونيهم من محاضرين ومعيدين .

٣- موظفي الجامعة المدرجة وظائفهم في نظام تشكيلات الوظائف في وزارة التعليم العالي بالمملكة ضمن الفئات التالية :

- الموظف المصنف
- الموظف بعقد
- الموظف بالراتب المقطوع

٤- طلاب وطالبات جامعة الطائف النظاميين .

الوثائق المطلوبة

- دفتر العائلة أو صورة مصدقة عنه .
- قرار التعيين أو العقد المبرم بين الجامعة والمنسوب .
- نموذج طلب الاشتراك .
- كشف الراتب (بالنسبة لمنسوبي الجامعة) .
- كتاب التزام بالاقتطاع الشهري من راتب المنسوب أو مكافئة الطالب.

المجموعة الثانية: منسوبي الجامعة من أعضاء هيئة تدريس وموظفين الذين يحالون إلى التقاعد.

الوثائق المطلوبة

- دفتر العائلة أو صورة مصدقة عنه .
- كتاب الإحالة إلى التقاعد .
- نموذج طلب الاشتراك .
- استدعاء من الجامعة للاشتراك في التامين الصحي .
- مخاطبة مديرية التقاعد لبدء الحسم وإعلام الجامعة به بكتاب رسمي .

المجموعة الثالثة: اختياريا لورثة منسوب الجامعة من أعضاء هيئة تدريس وموظفين المتوفى إذا كانوا يتقاضون راتبا تقاعديا من صندوق التقاعد .

الوثائق المطلوبة

- دفتر العائلة أو صورة مصدقة عنه .
- تسوية حقوق الورثة من مديرية التقاعد .
- نموذج طلب الاشتراك .
- مخاطبة مديرية التقاعد لبدء الحسم من المعاش وإعلام الجامعة بتاريخ بدء الحسم بكتاب رسمي .

المجموعة الرابعة: ورثة منسوب الجامعة من أعضاء هيئة تدريس أو الموظف المشترك والمتوفى بسبب الوظيفة الرسمية، على أن يعالج أفراد أسرته من خلال هذا النظام مجانا .

الوثائق المطلوبة

- تسوية حقوق الورثة من لجنة التقاعد / المالية للموظف المصنف .
- تسوية حقوق الورثة من الضمان الاجتماعي للموظف غير المصنف .

- كتاب من الكلية أو الإدارة التي كان يعمل بها المنسوب المتوفى لبيان انه توفي بسبب العمل أو أثناء العمل أو أثناء ذهابه من وإلى العمل من طريقه المعتاد .
- دفتر العائلة أو صورة مصدقة عنه .

المجموعة الخامسة : حالات أخرى وهي :

١- منسوبي الجامعة من أعضاء هيئة تدريس وموظفين والذين انتهت خدماتهم بسبب بلوغهم السن القانونية، دون أن يكون لهم حق التقاعد إذا كانوا قد امضوا في الخدمة عند بلوغهم تلك السن مدة لا تقل عن عشر سنوات، على أن يستمروا بدفع بدل الاشتراك في الصندوق بنفس النسبة التي يدفعها زملائهم في نفس الدرجة أو الفئة أو الكادر الوظيفي وذلك كل ستة شهور مقدما .

الوثائق المطلوبة

- دفتر العائلة أو صورة مصدقة عنه .
- كتاب مدة الخدمة السابقة مبينا فيه معادلة الدرجة والفئة التي كانوا يستحقونها وسبب إنهاء الخدمة.
- كتاب من مؤسسة الضمان الاجتماعي لبيان الراتب التقاعدي .
- نموذج طلب الاشتراك .
- إيصال بقيمة الاشتراك بنفس نسبة زملائهم في نفس الدرجة أو الفئة أو الكادر الوظيفي وذلك عن ستة شهور مقدما .

٢- منسوبي الجامعة من أعضاء هيئة تدريس وموظفين والذين انتهت خدماتهم بسبب المرض دون أن يكون لهم حق التقاعد، على أن يستمروا بدفع بدل الاشتراك بنفس النسبة التي كان من المفترض دفعها قبل المرض وذلك كل ستة أشهر مقدما .

الوثائق المطلوبة

- دفتر العائلة أو صورة مصدقة عنه .
- كتاب من الكلية أو الإدارة التي كان يعمل بها مبينا فيه سبب إنهاء الخدمة .
- كتاب الراتب من الضمان الاجتماعي .
- قرار من اللجنة الطبية .
- إيصال بقيمة الاشتراك بنفس النسبة التي كان من المفترض دفعها قبل المرض وذلك عن ستة شهور مقدما .

٣- الطلاب المبعوثون للخارج من قبل الجامعة خلال مدة الدراسة .

الوثائق المطلوبة

- دفتر العائلة أو صورة مصدقة عنه .
- كتاب من الكلية لبيان مدة الدراسة وانه على مقاعد الدراسة .

٤- المعارين والمجازين الراغبين بالاشتراك بالتامين الصحي .

الوثائق المطلوبة

- دفتر العائلة أو صورة مصدقة عنه .
- كتاب من الكلية أو الإدارة التي يعمل بها المنسوب يشير إلى بدء مدة الأجازة أو الإعارة وتاريخ انتهائها .
- كشف أخر راتب حصل عليه المنسوب .
- وصل بقيمة الاقتطاع لمدة سنة لصندوق التامين الصحي بنفس النسبة التي كان من المفترض دفعها قبل الأجازة أو الإعارة .

الخطوة الثانية : تحديد مدى شمولية الخدمات المقدمة

يرى الباحثان أنه عند البدء في تطبيق برنامج التأمين الصحي بجامعة الطائف أن يؤخذ في الاعتبار بمبدئي التدرج الأفقي والرأسي في التطبيق، ويقصد بمبدأ التدرج الأفقي أن يبدأ تطبيق النظام على فئة معينة من فئات مجتمع الجامعة، ثم تمتد التغطية تدريجيا لتشمل جميع طلاب ومنسوبي الجامعة وأسرهم، أما مبدأ التدرج الرأسي فيعنى أن يبدأ تطبيق النظام بمجموعة من الخدمات الصحية الأساسية، ثم تمتد التغطية تدريجيا لتشمل جميع الخدمات الصحية. مع ضرورة مراعاة الآتي:

- وضع أولوية لخدمات الرعاية الصحية الأساسية.
- تكلفة الرعاية الصحية ومدى توافرها ومصادر تمويلها.

وتتضمن الخدمات الصحية المتوقع تقديمها من خلال برنامج التأمين الصحي لجامعة الطائف لطلاب وطالبات ومنسوبي الجامعة، الخدمات الوقائية والعلاجية والتأهيلية والفحوص الطبية، وذلك وفقا للأسس الإنسانية والمهنية والفنية المتبعة في الممارسة، واسترشادا بالتوصيات الصادرة من منظمة الصحة العالمية وأسس وقواعد ومواصفات وشروط الجودة الشاملة. ويرى الباحثان أنه يمكن البدء بخدمات العلاج الطبي الأساسية أولا سواء خارج أو داخل المستشفيات، وذلك على النحو التالي:

أولا: العلاج داخل المستشفيات. ويشمل الآتي :

١- الإقامة داخل المستشفى لتقديم خدمات العلاج الطبي على أن تكون في العنابر ٢ سرير (درجة

ثانية)، على أنه يجوز للعضو المؤمن عليه من طلاب وطالبات ومنسوبي الجامعة أن تتم أقامته داخل غرفة منفردة (درجة أولى) على أن يتحمل هو فرق تكلفة الدرجة، وبعد الموافقة المسبقة على ذلك من الجامعة.

٢- الفحص والتشخيص والعلاج والجراحات في المستشفيات للحالات غير الحرجة بشرط الموافقة المسبقة على ذلك من الجامعة.

٣- خدمات العلاج الطبي للحالات الطارئة .

٤- خدمات نقل حالات الطوارئ داخل المملكة من خلال جهات معتمدة.

٥- قيمة تكاليف إقامة مرافق واحد للمريض العضو في نفس الغرفة في الحالات الحرجة بناء على توصية الطبيب المعالج، بشرط الموافقة المسبقة على ذلك من الجامعة.

٦- خدمات الإقامة في المستشفيات للولادة بكافة أنواعها بشرط الموافقة المسبقة على ذلك من الجامعة، على أن تسدد المريضة العضو مبلغ معين عن كل حالة ولادة (مثلا ٥٠٠ ريال عن كل حالة ولادة).

ثانيا: العلاج من خلال العيادات الخارجية للمستشفيات والمستوصفات والمراكز الصحية. ويشمل الآتي :

١- خدمات الفحص والتشخيص والعلاج لدى الأطباء العامين في العيادات والمراكز الصحية المحددة لعلاج المؤمن عليه على أن يسدد مبلغ ١٠ ريالات - مثلا - عن كل كشف جديد في كل مرة، وسداد ٢٠ ريال - مثلا - عن كل كشف جديد لدى الأطباء الأخصائيين أو الاستشاريين، بشرط أن يتم تحويله إليهم من الأطباء العامين، وتعفى المراجعات إذا تمت خلال مدة معينة (سبعة أيام مثلا) من تاريخ الفحص الأول من رسوم الكشف.

٢- خدمات الفحوصات المخبرية على أن يسدد عن الفحص مبلغ وقدره ١٠ ريالات - مثلا - بشرط أن يتم في المنشات العلاجية المحددة والتي تم التعاقد معها من خلال شركة التأمين الصحي التعاوني لعلاج المؤمن عليه.

٣- خدمات التشخيص بالأشعة بكافة أنواعها، على أن يسدد عن التشخيص مبلغ وقدره ١٠ ريالات - مثلا - وبشرط أن تتم في المنشات العلاجية المحددة لعلاج المؤمن عليه. وبالنسبة للفحص بالرنين المغناطيسي المقطعية وتنظير البطن يشترط الحصول على موافقة الجامعة أولا .

٤- خدمات العلاج الطبيعي للحالات العلاجية شرط الموافقة المسبقة من الجامعة على ذلك.

٥- يتحمل المريض ٣٠ ٪ - مثلا - من قيمة وصفة طبيبه، وفي حالة زيادة قيمة الوصفة الطبية على ٥٠٠ ريال يطلب موافقة الجامعة المسبقة لصرف الدواء.

٦- خدمات الفحص والتشخيص لدى أطباء أمراض النساء والحمل في المراكز والعيادات المحددة لعلاج المؤمن عليها، على أن تسدد المؤمن عليها مبلغ ١٠ ريالات - مثلا - عن كل كشف جديد في كل مرة، وسداد ٢٠ ريال عن كل كشف جديد لدى الأطباء الأخصائيين والاستشاريين، بشرط أن يتم تحويل المؤمن عليه بواسطة الأطباء العامين، وتعفى المراجعات إذا تمت خلال مدة معينة (أسبوع مثلا) من تاريخ الفحص الأول من رسوم الكشف .

ثالثا: توفير الخدمات العلاجية التالية :

- خدمات العلاج والرعاية الطبية لحالات إصابة العمل .
- خدمات العلاج والرعاية الطبية للمرضى المؤمن عليهم .
- خدمات الرعاية الطبية العاجلة في حالات الطوارئ الفردية والجماعية للمؤمن عليهم.
- الفحص الابتدائي للعاملين .
- الفحص الطبي الدوري للعاملين .
- التوصية بالإجازة المرضية للمصاب أو للمريض.
- العجز المتخلف عن الإصابة عن استقرار الحالة.
- العجز الناتج من المرض المهني.

رابعا: توفير عناصر الخدمة الطبية العلاجية التالية:

- الخدمات الصحية والطبية التي يقدمها الممارس العام.
- الخدمات الصحية والطبية التي يقدمها الأخصائي بما فيها خدمة طب الأسنان.
- الإقامة والعلاج بالمستشفى أو المركز التخصصي.
- العمليات الجراحية بأنواعها، وأنواع العلاج الأخرى.
- الرعاية الطبية والعلاج في حالات ما قبل الحمل والحمل والولادة.
- الفحص بالأشعة والفحوص المعملية اللازمة وغيرها من الفحوص الطبية النافذة وغير النافذة.
- صرف الأدوية والعلاج وغيره لكل ما تقدم داخل أو خارج المستشفيات.
- توفير الخدمات التأهيلية الطبية وتقديم الأجهزة الصناعية التعويضية.

ويحدد مجلس إدارة صندوق التأمين الصحي بالجامعة خدمات كل عنصر من العناصر المشار إليها طبقا لأسس ومعايير ومواصفات وشروط الجودة الشاملة. كما يجوز لمعالي مدير الجامعة إضافة خدمات أخري تتطلبها دواعي الممارسة، بناء علي توصية من مجلس إدارة صندوق التأمين الصحي بالجامعة .

أما بالنسبة لخدمات العلاج الطبي الأساسية المؤجلة فهي كالتالي:

- خدمات التشخيص والعلاج لكافة أمراض الأسنان واللثة ما عدا الحالات الطارئة.
- مستلزمات السمع والإبصار وتصحيح النظر بالجراحات والليزر ما عدا الحالات الطارئة.

الخطوة الثالثة: تحديد تكلفة النظام

من العناصر الأساسية لتخطيط أي برنامج صحي هي تحديد تكلفة تطبيق هذا البرنامج سواء في الأجل القريب أو الأجل الطويل، وذلك بغرض الوقوف على مدى إمكانية تطبيق وتنفيذ والاستمرار في تطبيق النظام من عدمه. ولا شك أن ذلك يتوقف على :

- أعداد طلاب وطالبات جامعة الطائف .
- أعداد منسوبي جامعة الطائف من أعضاء هيئة تدريس وإداريين وموظفين وعمال نظاميين.
- الإمكانيات المالية المتوافرة والتي من المتوقع تخصيصها لدعم هذا المشروع.
- مصادر التمويل الأخرى التي يمكن أن تكون روافد لتمويل هذا البرنامج من الاشتراكات التي يمكن أن يدفعها المستفيدين.
- الإمكانيات البشرية من إداريين وموظفين الواجب توافرهم لإدارة هذا البرنامج الصحي، وأيضا المنشآت الإدارية اللازمة لتطبيق النظام.
- الجهات المتوافرة والتي من المتوقع أن يتم التعاقد معها من شركات التأمين الصحي العاملة في سوق المملكة ذات السمعة الطيبة، وأماكن تقديم هذه الرعاية الصحية، من حيث الإمكانيات المادية المتوافرة بها كالمستشفيات والمستوصفات والعيادات وما تحتويه من أجهزة ومعدات ومعامل وأطباء وكوادر صحية وهيئة تمريض .

الخطوة الرابعة: تحديد مصادر التمويل

يرى الباحثان أن هناك الكثير من مصادر التمويل التي يمكن أن تدعم هذا البرنامج الصحي وهى:

- ما يدرج بميزانية الجامعة لدعم هذا المشروع وما يدرج بها من مبالغ لتقديم مزايا التأمين الصحي لطلاب وطالبات ومنسوبي جامعة الطائف .
- الاشتراكات: والتي سوف يقوم المستفيد بدفعها عند الانتفاع بمزايا التأمين الصحي وهم طلاب وطالبات ومنسوبي الجامعة، والتي سوف تستقطع من رواتب منسوبي الجامعة ومن مكافئات الطلبة شهريا.
- الرسوم: والتي سوف يقوم المستفيد بدفعها عند الانتفاع بمزايا التأمين الصحي، أي عند

ذهابه إلى المستشفى أو المستوصف أو العيادة لطلب الرعاية الصحية.

- غرامات تأخير دفع الاشتراكات .
- الإعانات والهبات والتبرعات والمساهمات الخيرية والأوقاف الخيرية.
- جزء من إيرادات أوقاف الجامعة .
- الوقف الخيري.
- موارد أخرى من خلال التعاون مع إمارة مكة المكرمة ومحافظة الطائف مثل :
  - نسبة من حصيلة السعر المحدد لبيع السجائر والتبغ بكافة أنواعه .
  - نسبة من حصيلة بيع تذاكر المنتزهات ودور الترفيه .
  - نسبة من حصيلة الرسم المقرر علي تراخيص مراكز العلاج والمستوصفات والمستشفيات والصيدليات والمعامل وما يماثلها من المنشآت الطبية .
  - نسبة من حصيلة صناديق الخدمات بمحافظة الطائف .
  - تخصص بالكامل لصالح التأمين الصحي ضريبة عن ملوثات البيئة من النواتج الصناعية الملوثة للبيئة والضارة بالأفراد والصادرة من المصانع والورش دون اتخاذ الإجراءات الملزمة لها من جهة الاختصاص .
  - نسبة من حصيلة لجان أصدقاء المرضى .
  - استكمال التغطية التمويلية من ميزانية الدولة في حالة عجز الحصص المحصلة والاحتياطات المالية المرحلة عن التغطية التمويلية .

الخطوة الخامسة : تحديد طرق تقديم الخدمات الصحية

يرى الباحثان أنه يمكن تحديد طريقة تقديم الخدمات الصحية لطلاب ومنسوبي الجامعة من خلال التعاقد مع إحدى شركات التأمين الصحي التعاوني ذات السمعة الطيبة لتقدم رعاية صحية عالية المستوى لفئة طلاب ومنسوبي جامعة الطائف. وهذه الرعاية الصحية تقدم من قبل مستشفيات ومستوصفات وعيادات ومراكز طبية خاصة عالية المستوى. وفي هذه الحالة تقوم جامعة الطائف (المؤمن له) بالتعاقد مع إحدى شركات التأمين الصحي التعاوني (المؤمن)، والتي تقوم هي بالتعاقد مع مجموعة من المستشفيات والمستوصفات والعيادات والمراكز الطبية الخاصة لتقديم الرعاية الصحية للمستفيدين مقابل اشتراكات سنوية أو شهرية تتحمل تكلفتها جامعة الطائف. وتقوم شركة التأمين بسداد المطالبات المالية للمنشآت الصحية والأطباء وفقا لنصوص العقود بينهم.

الخطوة السادسة : تحديد إجراءات العمل للمؤمن عليهم

الإجراءات المتبعة للحصول على بطاقة التأمين الصحي

- تقديم الوثائق للموظف المعني بالإدارة المسئولة عن برنامج التأمين الصحي بالجامعة.
- تدقيق تلك الوثائق.
- التسجيل في سجل البطاقات.
- كتابة البطاقة.
- تدقيق البطاقة وختمها بالخاتم الرسمي .
- التوقيع وتسليم البطاقة .

إضافة المنتفعين على البطاقة (لمنسوبي الجامعة فقط)

١- بالنسبة لإضافة الزوجة

الوثائق المطلوبة

- دفتر العائلة أو صورة مصدقة عنه .
- إقرار من الزوج ما يفيد بأن زوجته غير مشتركة بأي نظام صحي آخر.

٢- بالنسبة لإضافة زوج المنسوبة العاجز

الوثائق المطلوبة

- تقرير طبي من اللجنة الطبية يفيد بأن بنسبة العجز لدى زوج المنسوبة٧٠ ٪ وما فوق.
- إقرار من الزوجة المنسوبة بأن الزوج العاجز غير مشترك أو منتفع بأي نظام صحي أخر .
- ما يفيد بأن الزوج العاجز لا يتقاضى راتب تقاعدي من المالية أو الضمان إلا في حدود معينة (.....ريال شهريا) .

٣- بالنسبة لإضافة الأولاد الذين لم يكملوا الثامنة عشرة

الوثائق المطلوبة

- دفتر العائلة للوالد أو صورة مصدقة عنه .
- دفتر العائلة للوالدة أو صورة مصدقة عنه .
- أن لا يكون الزوج مشترك بأي تأمين صحي أخر.

٤- بالنسبة لإضافة الأولاد الذين يتلقون التعليم في الكليات والجامعات داخل وخارج المملكة حتى تاريخ إنهائهم الدراسة وحتى بلوغهم الخامسة والعشرون من العمر أي التاريخين اسبق

الوثائق المطلوبة

- دفتر العائلة للوالد أو صورة مصدقة عنه .
- شهادة من الكلية أو الجامعة أو المدرسة .

٥- بالنسبة لإضافة الأولاد المعاقون العاجزون عن إعالة أنفسهم

الوثائق المطلوبة

- دفتر العائلة للوالد أو صورة مصدقة عنه .
- تقرير طبي من اللجنة الطبية ما يفيد بأن الابن أو البنت معاق بنسبة عجز ٥٠٪ وما فوق

٦- بالنسبة لإضافة البنات العازبات والأرامل والمطلقات

بالنسبة للعازبات

الوثائق المطلوبة

- دفتر العائلة للوالد أو صورة مصدقة عنه .

بالنسبة للأرامل

الوثائق المطلوبة

- دفتر العائلة للوالد أو صورة مصدقة عنه.
- ما يثبت أن يكون الوالد هو المعيل الشرعي الوحيد وأنها لا تتقاضى راتب تقاعدي كوريثة للزوج .

بالنسب للمطلقات

الوثائق المطلوبة

- دفتر العائلة أو صورة مصدقة عنه للوالد .
- ما يثبت أن يكون الوالد هو المعيل الشرعي الوحيد (حجة إعالة) .

مكان تقديم الخدمة

الإدارة المسئولة عن التامين الصحي بجامعة الطائف .

تجديد البطاقة

الوثائق المطلوبة

- دفتر العائلة أو صورة مصدقة عنه أو الهوية الشخصية .
- بطاقة التامين الصحي .
- كتاب من الكلية أو الإدارة التي يعمل بها المنسوب أو الموظف .

تعديل الدرجة

الوثائق المطلوبة

- دفتر العائلة أو صورة مصدقة عنه .
- بطاقة التأمين الصحي .
- قرار الترفيع للمنسوب أو الموظف لبيان درجته الوظيفية .

إصدار بدل فاقد

الوثائق المطلوبة

- دفتر العائلة أو صورة مصدقة عنه .
- استدعاء وتبليغ الشرطة .
- كتاب من الكلية أو الإدارة التي يعمل بها المنسوب أو الموظف مبينا فيه رقم بطاقة التأمين وأن المنسوب أو الموظف ما زال على رأس العمل .
- إيصال استلام رسوم بقيمة (١٠٠ ريال مثلا) عن أول مرة، (٢٠٠ ريال مثلا) لكل مرة لاحقة .

إصدار بدل تالف

الوثائق المطلوبة

- دفتر العائلة أو صورة مصدقة عنه.
- بطاقة التأمين الصحي التالفة .
- إيصال استلام رسوم بقيمة (١٠٠ ريال مثلا) عن أول مرة، (٢٠٠ ريال مثلا) لكل مرة لاحقة .

الخطوة السابعة : تحديد طرق دفع المطالبات المالية لمقدمي الخدمة

يرى الباحثان أنه إذا تم التعاقد مع إحدى شركات التأمين الصحي التعاوني فإن طرق دفع المطالبات المالية سوف تتم بطريقة أو أكثر من الطرق التالية :

- تعويض المريض وفقا للفواتير التي يقدمها في حدود شروط وثيقة التأمين إذا كانت شركة التأمين تعطيه الحق في الذهاب لأي مستشفى أو لأي طبيب.
- دفع المطالبات المالية مباشرة للمنشآت الصحية أو الأطباء وفقا للعقود المبرمة بينهم إذا كان هناك قائمة بمجموعة معينة من المستشفيات والمستوصفات والعيادات والمراكز الطبية الخاصة يجب على المريض أن يختار منها.

الخطوة الثامنة: تحديد تبعية النظام

عند التخطيط لأي نظام للضمان الصحي فأنه يجب أيضا تحديد الجهة التي سوف يتبعها هذا النظام. ويرى الباحثان أنه من الأفضل أن تكون تبعية هذا النظام لجامعة الطائف، ويدرج هذا النظام ضمن الهيكل التنظيمي لجامعة الطائف وتحت رعاية معالي مدير الجامعة، فالجامعة هي بمثابة الجهة الممولة والجهة المستفيدة من مزايا الرعاية الصحية وهى أقدر على إدارة هذا النظام بكفاءة أعلى .

الخطوة التاسعة: تحديد طريقة إدارة النظام

من الأمور الأساسية التي يجب أن تؤخذ في الاعتبار عند تخطيط برنامج للضمان الصحي هي تحديد كيفية إدارة هذا النظام. ويرى الباحثان أن هناك مجموعة من الأسس يجب أن تؤخذ في الاعتبار لإنجاح نظام التأمين الصحي بجامعة الطائف وهى :

- ضرورة توفير نظام سجلات طبية لجميع طلاب وطالبات ومنسوبي الجامعة.
- ضرورة توفير نظام مالي ومحاسبي جيد لهذا النظام .
- ضرورة توفير معايير تضمن جودة الخدمات الصحية المقدمة لطلاب ومنسوبي الجامعة.
- ضرورة توفير نظام رقابي على استخدامات وموارد النظام واكتشاف حالات الانحرافات أول بأول .
- ضرورة توفير نظام إكتواري جيد لهذا النظام حتى نضمن تكافئ الموارد مع الاستخدامات .

ويرى الباحثان أن أدارة هذا النظام أو الصندوق يجب أن تتم وفقا للآلية التالية :

١- إنشاء صندوق يسمى» صندوق التأمين الصحي لطلاب وطالبات ومنسوبي جامعة الطائف» كون له الشخصية الاعتبارية، ويتبع معالي مدير جامعة الطائف، ويكون له موازنة خاصة تعد علي نمط الموازنات التجارية.

٢- هذا الصندوق يقوم بتمويل خدمات التأمين الصحي لطلاب وطالبات ومنسوبي الجامعة، على أن يقوم هذا الصندوق بما يلي :

- التعاقد مع أحدي شركات التأمين الصحي التعاوني التي تقوم بالتعاقد مع جهات تقوم بتقديم الخدمات الصحية والطبية، أيا كانت ملكيتها حكومية أو أهلية أو خاصة، مع ضرورة مراعاة المعايير الأساسية للجودة الشاملة.
- الإشراف علي تنفيذ ما يتم من تعاقدات لتقديم الخدمة، والتأكد من تطبيق معايير الجودة الشاملة .

- وضع القواعد المالية للصرف من أموال الصندوق.
- الرقابة المالية والمتابعة الكاملة لكل ما يتم من أعمال.

٣- يتولي إدارة الصندوق مجلس إدارة يشكل بقرار من معالي مدير الجامعة، ويقوم علي تصريف أمور الصندوق، وإقرار السياسة العامة التي يسير عليها. وله أن يتخذ القرارات اللازمة لتحقيق الأغراض التي أنشئ من أجلها، كما يختص بتقرير الحساب السنوي الختامي عن نشاط الصندوق. ولا تكون قرارات الصندوق نافذة إلا بعد اعتمادها من معالي مدير الجامعة.

٤- تتكون أموال الصندوق من :

- ما يدرج بميزانية الجامعة لهذا المشروع.
- الإعانات والتبرعات والهبات التي يقبلها مجلس إدارة الصندوق.
- المبالغ التي تخصم من رواتب منسوبي الجامعة ومن مكافئات الطلاب والطالبات شهريا.
- حصيلة استثمار أموال الصندوق.

٥- تزاد قيمة ما يدرج بميزانية الجامعة لهذا المشروع والتي تخصص لصندوق التأمين الصحي بالجامعة سنويا بواقع نسبة معينة - ٥٪ مثلا .

٦- في حالة وجود فائض في أموال الصندوق يرحل إلي حساب خاص، ولا يجوز الصرف منه إلا بموافقة مجلس إدارة الصندوق.

٧- تلتزم الخزانة العامة بالمملكة بأداء قيمة العجز في أموال الصندوق إذا لم تكف الاحتياطات المختلفة في تسوية العجز .

٨- يصدر بتشكيل مجلس إدارة الصندوق قرار من معالي مدير الجامعة، ويمثل رئيس المجلس الصندوق أمام القضاء وفي صلته بالغير، ويتولي مجلس الإدارة بما يلي :

- العمل علي تطبيق خطة الجامعة لتوفير الرعاية الصحية للخاضعين لأحكام هذا الصندوق من طلاب وطالبات ومنسوبي الجامعة ومتابعة تنفيذه.
- تحديد مستويات خدمات الرعاية الصحية وشروط وأساليب تقديمها.
- إصدار القرارات والتعليمات المنظمة لتقديم خدمات الرعاية الصحية، وفقا للسياسات التي يقرها مجلس الصندوق .
- وضع اللوائح الداخلية والمالية، ولوائح الرعاية الصحية والطبية التي يعمل بها في فرعي الصندوق - فرع الطلاب وفرع الطالبات - ومتابعة تنفيذ الأعمال المكلف بها هذه الفروع وفحص وإقرار حساباتها .
- إقرار موازنة الصندوق وحساباته الختامية السنوية ومركزه المالي .

- إصدار القرارات واللوائح المتعلقة بالشئون المالية والإدارية والفنية للصندوق وذلك دون التقييد بالقواعد الحكومية .
- وضع مشروعات اللوائح المتعلقة بتعيين العاملين في الصندوق وفروعه وتحديد رواتبهم ومكافآتهم ومعاشاتهم وقواعد ترقياتهم وتنقلاتهم وفصلهم، وذلك دون التقييد بالأحكام العامة للعاملين المدنين بالدولة، ويصدر بهذه اللوائح قرارات يعتمدها مدير الجامعة .
- فحص التقارير الدورية التي تقدم عن سير العمل في الصندوق وفروعه .
- النظر في كل ما يرى معالي مدير الجامعة عرضه من مسائل تدخل في اختصاص الصندوق.
- رفع مشروعات قرارات الصندوق ومحاضر اجتماعاته إلي معالي مدير الجامعة للنظر في اعتمادها خلال مدة لا تتجاوز الأسبوعين، ويجوز لمدير الجامعة رد قرار أو أكثر إلي المجلس لمزيد من الدراسة مشفوعا برأي المعالي .

٩- يكون للصندوق رئيس لمجلس إدارته يصدر بتعيينه قرار من معالي مدير الجامعة.

١٠- يكون لرئيس مجلس إدارة الصندوق الاختصاصات والسلطات لتصريف الشئون الفنية والمالية والإدارية في حدود السياسة التي يضعها مجلس إدارة الصندوق .

١١- ينشأ بفرعي الطلاب والطالبات فروع للصندوق تباشر المهام التالية :

- حصر المؤمن عليهم الخاضعين لأحكام هذا النظام وإصدار البطاقات الصحية، وتوفير جميع البيانات والمعلومات الإحصائية عن جماعة المؤمن عليهم .
- تحصيل الموارد ومتابعة هذا التحصيل، وفقا للنظام الذي يضعه مجلس الإدارة .
- الإشراف علي تنفيذ برنامج التأمين الصحي بالجامعة في حدود ما يقرره الصندوق من سياسات وبرامج وتمويل، وبصفة خاصة إبرام الاتفاقات مع شركات التأمين الصحي التعاوني وفق ما يحدده الصندوق لتقديم الخدمة الطبية التأمينية ونوعها ومراحلها وأسلوب وشروط تقديمها وأسعارها في إطار ما حدده هذا النظام.
- الرقابة علي أعمال الجهات الصحية والطبية القائمة بالتنفيذ وفقا للتعاقدات، محققة لأغراض الجودة الشاملة ومراعاة المستويات المحددة للخدمة.
- ما يسند إليه مجلس الإدارة من أعمال أخرى.

النتائج والتوصيات

أولا: النتائج

من واقع الدراسة التطبيقية توصلت الدراسة للنتائج التالية :

١- بالنسبة للمحور الأول: كانت أهم المشاكل التي يتعرض لها الطالب أو عضو هيئة التدريس أو الموظف المراجع للوحدة الصحية بالجامعة هي :

- عدم وجود أطباء في معظم التخصصات المطلوبة .
- قلة في عدد الأطباء الموجودين بالوحدة الصحية بالجامعة.
- طول فترات الانتظار في العيادة دون مبرر .
- البطء الشديد في إجراءات العمل قبل الدخول إلى الطبيب المعالج .
- اختلاف إجراءات إنهاء الدخول إلى الطبيب المعالج بالوحدة الصحية تختلف من منسوب إلى آخر ومن طالب إلى آخر.

٢- بالنسبة للمحور الثاني: الدور الحالي للجامعة في توفير خدمة صحية مناسبة لطلابها ومنسوبيها، حيث كانت أهم الانتقادات الموجهة للجامعة في هذا الصدد هي:

- انخفاض مهارة الأطباء اللذين يقدمون الخدمة الصحية للطالب أو منسوب الجامعة.
- ضعف جهود الجامعة الهادفة للاهتمام بالطالب والمنسوب كمريض .
- قلة استجابة الجامعة لملاحظات وشكاوي الطالب ومنسوب الجامعة كمريض .
- ضعف الإجراءات التي تحددها الجامعة لكي يحصل الطالب ومنسوب الجامعة على الخدمة الصحية من الجهات الصحية الأخرى .
- ضعف جهود الجامعة لحل مشاكل الطالب ومنسوب الجامعة مع الجهات الصحية الأخرى المقدمة للخدمة.

٣- بالنسبة للمحور الثالث: أهمية وجود برنامج للتأمين الصحي يغطي المخاطر الصحية التي يتعرض لها الطالب والمنسوب المريض، حيث تم تحديد أهم العناصر الممثلة لضرورة وجود برنامج للتأمين الصحي لطلاب الجامعة وهي :

- توفير خدمات صحية أشمل لطلاب ومنسوبي الجامعة.
- توفير قدر مناسب من الرعاية الصحية لطلاب ومنسوبي الجامعة حاليا ولعائلاتهم مستقبلا.
- تحقيق قدر مناسب من الرعاية الصحية لطلاب ومنسوبي الجامعة .
- توفير قدرا مناسبا من التغطية الصحية لطلاب ومنسوبي الجامعة ، مقابل قدر أقل من الأعباء المالية ، ويجنب الجامعة هدر مواردها المنصرفة من خلال الوحدة الصحية بالجامعة.
- توفير أنظمة صحية بمواصفات خاصة تلاءم مستوى طلاب ومنسوبي الجامعة .

٤- المحور الرابع: الأسباب التي يمكن أن تدفع جامعة الطائف للتعاقد مع شركة تأمين صحي تعاوني معينة دون غيرها. حيث تمثلت أهم هذه الأسباب في :

- تفضيل التعاقد مع شركة تأمين صحي تعاوني تتيح لطلاب ومنسوبي جامعة الطائف (المستفيدين) حرية اكبر في اختيار الطبيب المعالج.
- تفضيل التعاقد مع شركة تأمين صحي تعاوني تتيح لطلاب ومنسوبي جامعة الطائف معلومات صحيحة وكاملة عن الخدمة الصحية المقدمة.
- تفضيل التعاقد مع شركة تأمين صحي تعاوني قادرة على توفير خدمات طبية طارئة أو استثنائية لطلاب ومنسوبي جامعة الطائف .
- تفضيل التعاقد مع شركة تأمين صحي تعاوني قادرة على أن تتابع الخدمة المقدمة لطلاب و منسوبي جامعة الطائف قبل وأثناء وبعد العلاج.
- تفضيل التعاقد مع شركة تأمين صحي تعاوني تتعامل مع مستشفيات مشهورة وأطباء أكفاء يقدمون خدمات طبية متميزة لطلاب ومنسوبي جامعة الطائف.

٥- بالنسبة للفرض الأول: هناك فروق ذات دلالة إحصائية بين متوسط المشاكل التي يتعرض لها الطلاب وأعضاء هيئة التدريس والموظفين عند مراجعتهم للوحدة الصحية بالجامعة وذلك بمستوى معنوية ٥٪

٦- بالنسبة للفرض الثاني: لا توجد فروق ذات دلالة إحصائية بين متوسط أراء كلا من الطلاب وأعضاء هيئة التدريس والموظفين حول الدور الحالي الضعيف للجامعة في توفير خدمة صحية مناسبة لمنسوبيها وذلك بمستوى معنوية ٥٪

٧- بالنسبة للفرض الثالث: لا توجد فروق ذات دلالة إحصائية بين متوسط أراء كلا من الطلاب وأعضاء هيئة التدريس والموظفين حول أهمية برنامج التأمين الصحي وذلك بمستوى معنوية ٥٪

٨- بالنسبة للفرض الرابع: توجد فروق ذات دلالة إحصائية بين متوسط أراء كلا من الطلاب وأعضاء هيئة التدريس والموظفين حول الأسباب التي يمكن أن تدفع جامعة الطائف للتعاقد مع شركة تأمين صحي تعاوني معينة دون غيرها وذلك بمستوى معنوية ٥٪».

التوصيات

من واقع الدراسة التطبيقية يتقدم الباحثان بمجموعة من التوصيات وهي :

١- يرى الباحثان إنه يمكن تحسين مستوى الرعاية الصحية المقدمة لطلاب ومنسوبي الجامعة عن طريق الأخذ بنظام للتأمين الصحي التعاوني الخاص، حيث تقوم الجامعة بالتعاقد مع

إحدى شركات التأمين الصحي الخاص لتقديم برنامج للطلاب والعاملين بالجامعة وإصدار بطاقة تأمين والتي تضمن لحاملها الخدمات الطبية المتفق عليها مقابل اشتراك معين يمثل نسبة من راتب المنسوب ومبلغ محدد يستقطع من مكافئة الطالب.

٢- يرى الباحثان إنه يمكن مواجهة مشكلة تمويل مزايا برنامج التأمين الصحي من خلال محاولة الاستغلال الأمثل للموارد المتاحة عن طريق سلامة التخطيط وحسن الإدارة وزيادة التوعية لطلاب ومنسوبي الجامعة بأهمية حسن التعامل مع ما يقدمه البرنامج من مزايا صحية.

٣- يرى الباحثان إنه يمكن مواجهة مشكلة تمويل مزايا برنامج التأمين الصحي عن طريق البحث عن بدائل لتمويل البرنامج وذلك عن طريق:

- فرض رسوم على المستفيدين من طلاب ومنسوبين عند تقديم الخدمات الصحية .
- تحمل المستفيد لنسبة من قيمة فاتورة العلاج.
- فرض رسوم على الإقامة في المستشفيات.
- فرض رسوم على بعض العمليات مثل عمليات التجميل ونحوها.

٤- يوصي الباحثان بضرورة الاستفادة من التبرعات والهبات من المؤسسات الخيرية والتجارية والأفراد من خريجي جامعة الطائف في دعم برنامج التأمين الصحي المقدم لطلاب ومنسوبي جامعة الطائف.

٥- يوصي الباحثان بضرورة تفعيل دور وقف الجامعة، كمصدر من مصادر تمويل برنامج التأمين الصحي.

٦- يرى الباحثان ضرورة الاهتمام بنشر الثقافة التأمينية الصحية بين أفراد جامعة الطائف، حيث تعتبر ثقافة التأمين جديدة نسبياً على المجتمع السعودي، خاصة فيما يخص التأمين الصحي.

٧- يوصي الباحثان بضرورة أن يكون لمجلس الضمان الصحي التعاوني في المملكة دورا أكبر، من حيث تطوير برامج التأمين الصحي وتثقيف العملاء على البرامج التي يتم تسويقها من قبل شركات التأمين.

٨- يوصي الباحثان بأنه يجب على الجهات المختصة القيام بالإشراف والرقابة على عمليات التأمين الصحي بما يحقق العدالة ورفع الغبن والاستغلال وحماية المستأمنين.

المراجع

أولا باللغة العربية

١. بدران عبد الرحمن العمر، الخطر والتأمين في القطاع الصحي، مجلة تجارة الرياض، العدد ٤٧١، ديسمبر ٢٠٠١ م .

٢. حسين برعي،التأمين الصحي: الآثار الإدارية على القوى العاملة والأنظمة، مؤتمر التأمين الصحي التعاوني ١٤٢٥هـ ٢٠٠٤ م، القاهرة: مركز صالح عبد الله كامل .

٣. خالد بن سعد بن سعيد، بدران بن عبد الرحمن العمر، تجارب عالمية مختارة في التأمين الصحي، الرياض: بحث مقدم لندوة تقديم الخدمات الصحية بين مسؤوليات الدولة ودور القطاع الخاص- نوفمبر ١٩٩٦م.

٤. صالح ناصر العمير، دور شركات التأمين في نظام التأمين الصحي وتجربة التعاونية للتأمين- بحث مقدم لندوة تقديم الخدمات الصحية بين مسؤوليات الدولة ودور القطاع الخاص- الرياض نوفمبر ١٩٩٦م .

٥. عبد الإله الساعاتي، حسن العمري، الضمان الصحي التعاوني في المملكة العربية السعودية بين النظرية والتطبيق، جدة: مطبعة المحمودية ١٤٢٤ هـ .

٦. عبد الإله الساعاتي، التأمين الصحي التعاوني في المملكة: دور شركات التأمين، القاهرة: ورقة عمل مقدمة إلى مؤتمر التأمين الصحي التعاوني المنعقد بمركز صالح عبد الله كامل ١٤٢٥هـ الموافق ٢٠٠٤م.

٧. عبد الرحمن حمد الحميضي، التأمين الصحي أحد ركائز اقتصاديات الصحة، مجلة تجارة الرياض، العدد ٤٧٨، يوليو ٢٠٠٢ م .

٨. عبد اللطيف الدريس، التأمين الصحي - الواقع والمأمول، القاهرة: ورقة عمل مقدمة إلى مؤتمر التأمين الصحي التعاوني المنعقد بمركز صالح عبد الله كامل، ١٤٢٥هـ، ٢٠٠٤ م .

٩. عبد المحسن صالح الحيدر، محمد على التركي، نظام التأمين الصحي التعاوني في المملكة العربية السعودية - بحث ميداني، الرياض: معهد الإدارة العامة، مركز البحوث، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢ م.

١٠. محمد إبراهيم شحاتة، ملائمة التأمين الصحي وكيفية تطبيقه، ورقة عمل مقدمة لندوة تقديم وتمويل الخدمات الصحية بين مسؤوليات الدولة ودور القطاع الخاص، الرياض رجب ١٤١٧ هـ، نوفمبر ١٩٩٦ م .

١١. محمد سالم البكر، أنماط التأمين الصحي، الكويت: ورقة عمل مقدمة في ندوة التخطيط الصحي الثامنة، أبريل ١٩٩٤م .

التقارير

١٢. نظام الضمان الصحي التعاوني - قرار مجلس الوزراء رقم (٧١) وتاريخ ٤/٢٧/ ١٤٢٠هـ - جريدة أم القرى العدد ٣٧٦٢ - ٣٠ جمادى الأولى ١٤٢٠هـ.

١٣. الكتاب الإحصائي السنوي، أعداد متفرقة من ١٤١٩ إلى ١٤٢٨ هـ، مصلحة الإحصاء العامة، وزارة التخطيط السعودية.
١٤. خطة التنمية السابعة، أعداد متفرقة من ١٤١٩ إلى ١٤٢٨ هـ، وزارة التخطيط، المملكة العربية السعودية.
١٥. تقارير سوق التأمين السعودي، أعداد متفرقة من ٢٠٠٠- ٢٠٠٩ م – دراسة سنوية – التعاونية للتأمين.

ثانيا: باللغة الانجليزية

1. Anne Beeson Royalty and Jean M. Abraham، (2006) ،: Health insurance and labor market outcomes: Joint decision-making within households ، Journal of Public Economics ، Volume 90، Issues 8-9، September ،Pages 1561-1577
2. Bhargava A، et al ، (2001) ، Modeling the effects of health on economic growth. Journal of Health Economics، Issues 20، p .p 423:440.
3. Bloom DE، Canning D، (2004) ، Health، wealth and welfare. Finance and Development، Issues 41، p. p10:15.
4. Brown E، Ojeda V، Wyn R، Levan R. (2006) ، Racial and ethnic disparities in access to health insurance and health care، UCLA Center for Health Policy Research .
5. Carrin G، (2003) ،Community-based health insurance schemes in developing countries: facts، problems and perspectives. .
6. Chao ، L.L.، (1990) ، Statistics for management scientific ، N.Y .
7. G. Flores، E. Fuentes-Afflick and O. Barbot ، (2002) ، The health of Latino children: urgent priorities، unanswered questions، and a research agenda ، JAM ، p. p. 82: 90.
8. Hall ، K. ، (2001) ، Japan، s health insurance system nearly bankrupt ، Japan ، Associated Press.
9. Smith JP ،(2006) ، Health Care Access of Hispanic Young Adults in the United States . Journal of Adolescent Health ، Volume 39، Issue 5 ، November 2006 ، p. p 627: 633
10. Hsiao ، William C. (1994): «Comparative Social Financing System: Lessons From International Experience .» Paper presented at the Social Financing of Heath Care Services Conference held in Cairo ، Egypt ، January، p. p 9:12

11. L. Ku and S. Matani. (2001) . Left out: immigrants. access to health care and insurance . Health Aft . Millwood . p. p. 247: 256
12. Macroeconomics and health . (2001) investing in health for economic development . Report of the Commission on Macroeconomics and Health. Geneva. World Health Organization.
13. Mayer D et al. Health.(2000) . growth and income distribution in Latin American and the Caribbean: a study of determinants and regional and local behaviour. Washington DC. Pan American Health Organization.
14. P.I. Documet and R.K. Sharma . (2004) . Latinos. health care access: financial and cultural barriers. Imager Health . p. p. 5: 13.
15. S.T. Callahan and W.O. Cooper . (2005) . Un insurance and health care access among young adults in the United States. Pediatric . p. p. 88: 95.
16. T.A. La Veist. J.V. Bowie and M. Cooley . (2000). Quille. Minority health status in adulthood: the middle years of life . Health Care Finance Rev . p. p. 9: 21
17. The work of WHO in the Eastern Mediterranean Region. Annual Report of the Regional Director 1 January-31 December 2002. Cairo. World Health Organization. Regional Office for the Eastern Mediterranean.
18. The World Health Report (2009) . Changing history. Geneva. World Health Organization.
19. Xu K et al.. (2003). Household catastrophic health expenditure: a multicountry analysis. Lancet. July 12.

جامعة الطائف

الملاحق•

نظام مقترح للتأمين الصحي التعاوني التكافلي على طلاب ومنسوبي الجامعات

(دراسة تطبيقية على جامعة الطائف)

استقصاء موجه لطلاب وطالبات جامعة الطائف

إعداد

أ.د. إبراهيم الحكمي

الأستاذ بقسم علم النفس بكلية التربية - جامعة الطائف

د. وجيه بن عبد الله مصطفى

الأستاذ المشارك بكلية العلوم الإدارية والمالية

• نظراً لكبر حجم كل استبانة، فإن الباحثين أدرجا الاستبانة الأول فقط، وهي نفسها الاستابة الثانية والثالثة، ولكن الاختلاف الوحيد في ان الاستبانة الثانية وجهت لأعضاء هيئة التدريس، والثالثة وجهت للموظفين والإداريين، ولكن المحاور واحدة في الثلاث استبانات .

عزيزي الطالب / الطالبة:

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته وبعد :

من أكثر قضايا التخطيط والتنمية إثارة للجدل، قضية الرعاية الصحية للمواطن وما ينبغي أن يخصص لها من ميزانية الدولة وذلك لسببين هما:

١-أن الإنسان هو هدف التنمية كما أنه وسيلتها، والصحة هي أول متطلبات الإنسان وأهم مقومات الحياة.

٢- أن الخدمات الصحية تعد أغلى أنواع الخدمات تكلفة حيث يبلغ حجم الإنفاق العالمي على الخدمات الصحية سنوياً تريليوني دولار ويتوقع أن تزيد خلال السنوات القادمة.

والواقع أن الصحة العامة وصحة طلاب وطالبات ومنسوبي الجامعة من أعضاء هيئة تدريس وإداريين وموظفين هي أغلى ما تملكه جامعة الطائف، وهي ثروة يجب الحفاظ عليها وصيانتها، حيث أن هذا الطالب وذلك المنسوب هو الهدف لكل ما تقدمه برامج وخطط التنمية من خدمات، وأن مطلب الحياة هو أول مطالب ذلك الإنسان، وأهم مقومات الحياة هي الصحة. ومن جهة أخرى فإن هذا الطالب وذلك المنسوب هو الوسيلة الأولى لعمليات التنمية ذاتها، وهو الذي يعتمد عليه بعد الله - تعالى - في نجاح هذه العمليات واستمرارها، حيث أن الطالب أو المنسوب المريض لا يمكن أن يعمل أو يخطط أو حتى يفكر في خدمة مجتمعه حتى يشفى وتحل مشكلاته الصحية.

إلا أنه من الملاحظ أن هناك كثرة لمنسوبي وطلاب جامعة الطائف وقلة عدد الأطباء المقدمين للخدمة الصحية بفرعي الطلاب والطالبات من خلال الوحدة الصحية بكل فرع، وبالتالي نجد أن هناك زحام شديد وطول فترة انتظار لحين دخول الطالب أو منسوب إلى الطبيب المعالج. المشكلة الأكبر أن معظم من يقوم بتقديم هذه الرعاية الصحية هو في حقيقة الأمر طبيب عام. كما أن الصيدلية لا تتوفر فيها كافة الأدوية ويستغرق طلب الدواء أحيانا فترات طويلة، ولا يتم طلب الدواء حتى تنفد الكمية بكاملها، كما أنه في كثير من الأحيان لا يتوافر في صيدلية الجامعة الكثير من الأدوية. المشكلة أيضا في قسم الطالبات، حيث توجد في العيادة طبيبة واحدة في قسم الباطنية للنساء، وإذا حضرت إحدى الطالبات أو إحدى المراجعات بعد الساعة التاسعة فإنها لن تظفر برقم لشدة الزحام. والمشكلة تظهر أيضا إذا أخذ الطبيب الوحيد أو الطبيبة الوحيدة أجازة - كما حدث في العام الماضي في إجازة نصف العام - ولم يتم توفير البديل.

وقد حاولت الكثير من الدول مواجهة مثل هذه المشاكل من خلال توفير نظم للتأمين الصحي على طلاب الجامعة والعاملين بها. ومن أهم فوائد نظم التأمين الصحي أنها تساهم بدور فعال

في تحسين مستوى الخدمات الصحية المقدمة للطلاب ومنسوبي الجامعة كما ونوعا، وتوفير بدائل مناسبة لتقديم خدمات الرعاية الصحية ذات مستوى مناسب وبأسعار اقتصادية.

وتقوم فكرة التأمين الصحي التعاوني على أساس وجود شركة للتأمين الصحي تقوم بتجميع الموارد المالية من الأعضاء المشتركين في النظام، ومشاطرة مخاطر الإنفاق الطبي بين جميع أعضائها. وتجميع الأموال يعني أن الموارد المالية المتاحة في المجمَّع لا ترتبط بمساهم معيّن. فالتجميع يسمح بدعم الأصحاء للمرضى والأغنياء للفقراء، فضلاً عن حماية كل عضو من تحمل نفقات صحية باهظة.

لذا يقترح فريق البحث إنشاء صندوق خاص بجامعة الطائف يدرج بالهيكل التنظيمي للجامعة ويكون رئيسه المباشر هو معالي مدير الجامعة، ويقدم لطلاب ومنسوبي الجامعة الرعاية الصحية داخل وخارج المستشفيات وصرف الدواء من خلال التعاقد مع إحدى مؤسسات التأمين الصحي التعاوني بمقتضى وثيقة تأمين صحي واحدة لتغطية جميع طلاب الجامعة ومنسوبيها، وتكون مسئولية جامعة الطائف (المؤمن له) دفع قيمة الاشتراكات في مواعيد استحقاقها، وفى المقابل تكون مسؤولية مؤسسة التأمين الصحي التعاوني (المؤمن) توفير الرعاية الصحية لطلاب ومنسوبي الجامعة، من خلال مجموعة من المستشفيات والعيادات الخاصة المشهور لها بالكفاءة.

ولا شك أن بحث أمر تطبيق نظام التأمين الصحي التعاوني لطلاب ومنسوبي الجامعة يستوجب أولا النظر إلى مشروعيته الدينية. ولقد أجازت هيئة كبار العلماء في المملكة العربية السعودية تطبيق نظام التأمين التعاوني، وذلك بموجب قرار هيئة كبار العلماء رقم (٥١) بتاريخ ١٣٩٧/٤/٤هـ، على أنه يتيح مشاركة المجموعة مع الفرد في تحمل تكاليف الخدمة العلاجية التي يحتاجها ولا يستهدف التجارة والربح. وجاء في القرار ما يلي: «أن التأمين التعاوني من عقود التبرع التي يقصد بها أصالة التعاون على تفتيت الأخطار والاشتراك في تحمل المسئولية عند نزول الكوارث، وذلك عن طريق إسهام أشخاص بمبالغ نقدية تخصص لتعويض من يصيبه الضرر. فجماعة التأمين التعاوني لا يستهدفون تجارة ولا ربحا من أموال غيرهم وإنما يقصدون توزيع الأخطار بينهم والتعاون على تحمل الضرر» .

وسوف تقرأ عدد من العبارات التي تدور حول مدى أهمية الرعاية الصحية لطلاب ومنسوبي الجامعة، وما تراه مناسبا لتنمية هذه الخدمة. حيث ستجد في القسم الأول من هذه الاستبانة مجموعة من الأسئلة التي تدور حول بعض البيانات الشخصية، أما في القسم الثاني فستجد مجموعة من العبارات التي تهدف لمعرفة وجهة نظرك فيما يتعلق بالمشاكل التي

تتعرض لها أثناء زيارتك للوحدة الصحية الموجودة بجامعة الطائف، أما في الجزء الثالث فستجد مجموعة أخرى من العبارات التي تهدف لمعرفة وجهة نظرك حول الدور الحالي للجامعة في توفير خدمة صحية مناسبة لطلابها، أما الجزء الرابع فيتضمن عبارات معينة عن مدى أهمية وجود برنامج للتأمين الصحي لطلاب الجامعة. ولذا نرجو قراءة كل عبارة بدقة وتحديد الإجابة التي تعبر عن ما تشعر بها وتعتقد أنها تعبر عن رأيك بكل صدق من بين الخيارات المتاحة أمام كل عبارة. الرجاء الإجابة على جميع الأسئلة التي تشملها الصفحات التالية علماً بأن جميع ما تدلي به من معلومات لن يستخدم إلا لأغراض البحث العلمي فقط، ولن يطّلع عليها أحد غير المعنيين بالبحث.

شاكراً لك على تفضلك بالإجابة على هذه الأسئلة ومقدرين لكم حسن تعاونكم.

مع تحيات فريق البحث

الجزء الأول:
بيانات عامة

الكلية .....

القسم .....

المستوى الدراسي .....

النوع .....

الجنسية .....

العمر .....

الجزء الثاني:
المشاكل التي يتعرض لها الطالب المراجع للوحدة الصحية بالجامعة.

فيما يتعلق بالمشاكل التي تتعرض لها أثناء زيارتك للوحدة الصحية الموجودة بجامعة الطائف. نرجو تحديد هذه المشاكل وذلك بوضع علامة (✓) في الخانة المناسبة.

إلى أي مدى توافق أو لا توافق علي العبارات التالية:

العبـــــارة	صحيح تماماً	صحيح غالباً	صحيح بدرجة متوسطة	صحيح إلى حدٍ ما	غير صحيح مطلقاً
بالنسبة لأسلوب تعامل الموظف الموجود بالوحدة الصحية بالجامعة : ١- أشعر أن هناك سوء معاملة لي من قبل الموظف الموجود بالوحدة الصحية والذي يقوم بإدخالي إلى الطبيب المعالج.					
٢- أشعر أن هناك تحيز من قبل الموظف الموجود بالوحدة الصحية والذي يقوم بإدخالي إلى الطبيب المعالج تجاه بعض الجنسيات من مراجعي العيادة.					
بالنسبة لأسلوب تعامل الطبيب المعالج بالوحدة الصحية بالجامعة : ٣- أشعر أن هناك عدم ترحيب بي من قبل الطبيب المعالج الموجود بالوحدة الصحية، خاصة إذا كانت العيادة مزدحمة.					

العبـــــارة	صحيح تماماً	صحيح غالباً	صحيح بدرجة متوسطة	صحيح إلى حدٍ ما	غير صحيح مطلقاً
٤- أشعر أن هناك تحيز من قبل الطبيب المعالج الموجود بالوحدة الصحية تجاه بعض الجنسيات من مراجعي العيادة.					
بالنسبة لإجراءات العمل وأسلوب التنفيذ:					
٥- أشعر أن هناك بطء شديد في إجراءات العمل قبل الدخول إلى الطبيب المعالج .					
٦- أشعر أن إجراءات إنهاء الدخول إلى الطبيب المعالج بالوحدة الصحية تختلف من موظف إلى آخر .					
٧- أشعر أن إجراءات الإنهاء في الوحدة الصحية تتوقف على مزاجية الموظف الموجود .					
٨- أشعر أن إجراءات الإنهاء في الوحدة الصحية تختلف باختلاف جنسية المتقدم لإنهاء الإجراءات.					
بالنسبة لمستوى الخدمة الصحية المقدمة:					
٩- أشعر أن هناك قلة في عدد الأطباء الموجودين بالوحدة الصحية بالجامعة.					
١٠- أشعر أن هناك عدم وجود أطباء في معظم التخصصات المطلوبة، وأن الطبيب الموجود ما هو إلا ممارس لكل التخصصات .					
١١- أشعر أن هناك فترات انتظار كبيرة في العيادة دون مبرر.					
١٢- أشعر أن هناك تحيز من قبل بعض موظفي الوحدة الصحية للمرضى السعوديين والسماح لهم بالدخول، وإرجاء الجنسيات الأخرى لفترة من الزمن.					
١٣- أشعر أن هناك تحيز من قبل بعض أطباء الوحدة الصحية للمرضى السعوديين والسماح لهم بالدخول، وإرجاء الجنسيات الأخرى لفترة من الزمن.					
١٤- بصفة عامة أنت غير راض عن مستوى الخدمة الصحية التي تقدمها لك الجامعة حاليا ؟					

الجزء الثالث:
الدور الحالي للجامعة في توفير خدمة صحية مناسبة لطلابها

فيما يتعلق بالخدمة الصحية التي توفرها لك جامعة الطائف، فإلى أي مدى أنت راضي كمستفيد من الخدمة. نرجو تحديد درجة رضاك عن كل جانب من جوانب الخدمة المذكورة أدناه ، وذلك بوضع علامة (✓) في الخانة المناسبة .

إلى أي مدى أنت راضي أو غير راضي حاليا علي العبارات التالية :

جوانب الخدمة	راضي تماماً	راضي غالباً	راضي بدرجة متوسطة	راضي إلى حدٍ ما	غير راضي مطلقاً
١- استجابة الجامعة لملاحظاتك وشكاواك كمريض .					
٢- جهود الجامعة الهادفة للاهتمام بك كمريض .					
٣- الإجراءات التي تحددها لك الجامعة لتحصل على الخدمة الصحية من الجهات الصحية الأخرى.					
٤- جهود الجامعة لحل مشاكلك كمريض مع الجهات الصحية الأخرى المقدمة للخدمة.					
٥- إمكانية اختيارك للمستشفى من خلال الجامعة .					
٦- إمكانية اختيارك للطبيب المعالج من خلال الجامعة .					
٧- شمولية الخدمة الصحية المقدمة لك من قبل الجامعة (مدى تغطية الخدمة لاحتياجاتك الطبية المختلفة).					
٨- السرعة والمرونة في تقديم الخدمات الصحية التي تقدمها لك الجامعة.					

جوانب الخدمة	راضي تماماً	راضي غالباً	راضي بدرجة متوسطة	راضي إلى حدٍ ما	غير راضي مطلقاً
٩- مستوى مهارة الأطباء اللذين يقدمون الخدمة الصحية لك بالجامعة .					
١٠- الجهود التي تبذلها الجامعة لإعطائك معلومات صحيحة وكاملة عن خدمة الصحية التي تقدمها جهات أخرى.					
١١- قدرة الجامعة على توفير الخدمات الطبية الطارئة أو الاستثنائية إذا احتجت إليها .					
١٢- جهود الجامعة في مجال متابعة الخدمة المقدمة لك (قبل وأثناء وبعد العلاج).					
١٣- إلى أي مدى أنت راض (بصفة عامة) عن مستوى الخدمة الصحية التي تقدمها لك الجامعة حاليا ؟					

الجزء الرابع:
أهمية وجود برنامج للتأمين الصحي يغطي المخاطر الصحية التي يتعرض لها الطالب

فيما يتعلق بمدى وجود جهة تقدم خدمة صحية داخل وخارج المستشفيات عن طريق تعاقد يتم بين جامعة الطائف وإحدى شركات التأمين الصحي التعاوني، فإلى أي مدى أنت موافق على هذا الاقتراح وكمستفيد من هذه الخدمة. نرجو تحديد درجة موافقتك عن كل جانب من جوانب هذا الاقتراح المذكورة أدناه ، وذلك بوضع علامة (✓) في الخانة المناسبة.

إلى أي مدى أنت موافق أو غير موافق علي وجود برنامج للتأمين الصحي يغطي المخاطر الصحية التي تتعرض لها أنت كطالب بالجامعة

العبارة	درجة الموافقة				
	موافق تماماً	موافق غالباً	موافق بدرجة متوسطة	موافق إلى حدٍ ما	غير موافق مطلقاً
١- أرى أن هذا النوع من وثائق التامين الصحي التعاوني سوف يلبي رغبة طلاب الجامعة في توفير قدر مناسب من الرعاية الصحية لهم حاليا ولعائلاتهم مستقبلا .					
٢- أرى أن هذا النوع من وثائق التامين الصحي التعاوني سوف يجعل طلاب جامعة الطائف أكثر ولاءً للجامعة ، لما تقدمه لهم من رعاية وخدمة صحية .					
٣- أرى أن هذا النوع من وثائق التامين الصحي التعاوني سوف يعمل على تحقيق قدر مناسب من الرعاية الصحية لطلاب الجامعة .					
٤- أرى أن هذا النوع من وثائق التامين الصحي التعاوني سوف يوفر خدمات صحية أشمل لطلاب الجامعة.					
٥- أرى أن هذا النوع من وثائق التامين الصحي التعاوني سوف يوفر قدرا مناسبا من التغطية الصحية لطلاب الجامعة، بينما يحمل الجامعة اقل قدر من الأعباء المالية، ويجنبها هدر مواردها المنصرفة من خلال الوحدة الصحية بالجامعة .					

العبارة	درجة الموافقة				
	موافق تماماً	موافق غالباً	موافق بدرجة متوسطة	موافق إلى حدٍ ما	غير موافق مطلقاً
٦- أرى أن هذا النوع من وثائق التامين الصحي التعاوني سوف يوفر قدرا مناسبا من التغطية الصحية، بينما يتحمل طلاب الجامعة اقل قدر من الأعباء المالية من خلال الاشتراكات التي سوف تخصم من مكافئات الطلاب .					
٧- أرى أن هذا النوع من وثائق التامين الصحي التعاوني سوف يجعل قدرة الجامعة على توفير أنظمة صحية بمواصفات خاصة تلاءم مستوى طلابها .					
٨- أرى أن هذا النوع من وثائق التامين الصحي التعاوني سوف يجعل الجامعة قادرة على الاستجابة لملاحظات وشكاوى كافة طلابها (المستفيدين من الخدمة الصحية) بسرعة ومرونة.					
٩- أرى أن هذا النوع من وثائق التامين الصحي التعاوني سوف يجعل الجامعة محترفة في إدارة التامين الصحي، وبالتالي توفير خدمات صحية أفضل لطلابها مستقبلا .					
١٠- أرى أن هذا النوع من وثائق التامين الصحي التعاوني سوف يتيح للمستفيد الطالب حرية اكبر في اختيار المستشفى.					
١١- أرى أن هذا النوع من وثائق التامين الصحي التعاوني سوف يتيح للمستفيد الطالب حرية اكبر في اختيار الطبيب المعالج.					
١٢- أرى أن هذا النوع من وثائق التامين الصحي التعاوني سوف يقدم للمستفيد الطالب خدمات صحية سريعة وبدرجة مناسبة من المرونة.					
١٣- أرى أن هذا النوع من وثائق التامين الصحي التعاوني سوف يوفر للجامعة قدرة التعامل مع مستشفيات مشهورة وأطباء أكفاء يقدمون خدمات طبية متميزة لطلابها .					

العبارة	درجة الموافقة				
	موافق تماماً	موافق غالباً	موافق بدرجة متوسطة	موافق إلى حدٍ ما	غير موافق مطلقاً
١٤- أرى أن هذا النوع من وثائق التامين الصحي التعاوني سوف يجعل شركات التأمين الصحي تبذل جهودا ملموسة لدعم الثقة المتبادلة بينها وبين الجامعة والمستفيدين من طلابها .					
١٥- أرى أن هذا النوع من وثائق التامين الصحي التعاوني سوف يجعل الجامعة قادرة على توفير خدمات طبية طارئة أو استثنائية لطلابها .					
١٦- أرى أن هذا النوع من وثائق التامين الصحي التعاوني سوف يجعل الجامعة قادرة على أن تتابع الخدمة الصحية المقدمة للمستفيد الطالب قبل وأثناء وبعد العلاج.					
١٧- أرى - بصفة عامة - أن توفير هذا البرنامج الصحي التعاوني سوف يجعل طالب الجامعة أكثر انتماءً للجامعة، فتوفير هذا البرنامج لا شك سوف يجعل طلاب الجامعة أكثر رضا عن جامعة الطائف.					

الجزء الخامس:

الأسباب التي يمكن أن تدفع جامعة الطائف للتعاقد مع شركة تأمين صحي تعاوني معينة دون غيرها - من وجهة نظرك كمستفيد من هذه الخدمة - وذلك لعمل عقد تأمين صحي تعاوني لصالح طلابها.

فيما يلي بعض الأسباب التي تجعلكم - كمستفيد - ترغبون في التعاقد مع شركة تأمين صحي دون غيرها. نرجو تقييم أهمية كل سبب من وجهة نظركم الشخصية، وذلك بوضع علامة (✓) في الخانة المناسبة، حيث «١» يعني أن السبب محدود الأهمية للغاية ، بينما «٥» تعنى أن السبب بالغ الأهمية للغاية.

إلى أي مدى أنتم موافقون أو غير موافقون علي الأسباب التالية للتعاقد مع شركة تأمين صحي دون غيرها والتي توفر حماية صحية لك كطالب بجامعة الطائف

الأسباب	درجة أهمية السبب				
	١	٢	٣	٤	٥
١- أفضل التعاقد مع شركة تأمين صحي تعاوني قادرة على الاستجابة لملاحظات وشكاوى طلاب الجامعة (المستفيدين) بسرعة ومرونة.					
٢- أفضل التعاقد مع شركة تأمين صحي تعاوني موظفيها يشعرون طلاب الجامعة (المستفيدين) وكأنه عميلهم الوحيد.					
٣- أفضل التعاقد مع شركة تأمين صحي تعاوني تحقق سهولة في الإجراءات اللازمة لحصول طلاب جامعة الطائف (المستفيدين) على الخدمة.					
٤- أفضل التعاقد مع شركة تأمين صحي تعاوني تسارع في حل المشاكل التي قد تحدث لطلاب جامعة الطائف (المستفيدين) مع الجهات الصحية التي تقدم الخدمة.					
٥- أفضل التعاقد مع شركة تأمين صحي تعاوني شركة التامين تتيح لطلاب جامعة الطائف (المستفيدين) حرية اكبر في اختيار المستشفى.					
٦- أفضل التعاقد مع شركة تأمين صحي تعاوني شركة التامين تتيح لطلاب جامعة الطائف (المستفيدين) حرية اكبر في اختيار الطبيب المعالج.					
٧- أفضل التعاقد مع شركة تأمين صحي تعاوني توفر لطلاب جامعة الطائف (المستفيدين) خدمة صحية أكثر شمولية (تغطى خدمات طبية أكثر).					
٨- أفضل التعاقد مع شركة تأمين صحي تعاوني تقدم لطلاب جامعة الطائف (المستفيدين) خدمات صحية سريعة وبدرجة مناسبة من المرونة.					

الأسباب	درجة أهمية السبب				
	١	٢	٣	٤	٥
٩- أفضل التعاقد مع شركة تأمين صحي تعاوني تتعامل مع مستشفيات مشهورة وأطباء أكفاء يقدمون خدمات طبية متميزة لطلاب جامعة الطائف (المستفيدين) .					
١٠- أفضل التعاقد مع شركة تأمين صحي تعاوني تحرص على أن تكون مقدار التكلفة المالية الإجمالية التي يتحملها طلاب جامعة الطائف (المستفيدين) سنويا اقل ما يمكن.					
١١- أفضل التعاقد مع شركة تأمين صحي تعاوني تجعل طالب جامعة الطائف (المستفيد) يدفع نسبة معقولة (غير مبالغ فيها) من التكلفة نظير حصوله على الخدمة الطبية التي يتلقاها.					
١٢- أفضل التعاقد مع شركة تأمين صحي تعاوني تبذل جهودا ملموسة لدعم الثقة المتبادلة بينها وبين طلاب جامعة الطائف (المستفيدين) .					
١٣- أفضل التعاقد مع شركة تأمين صحي تعاوني موظفيها يعطون طلاب جامعة الطائف (المستفيدين) معلومات صحيحة وكاملة عن الخدمة الصحية المقدمة .					
١٤- أفضل التعاقد مع شركة تأمين صحي تعاوني قادرة على توفير خدمات طبية طارئة أو استثنائية لطلاب جامعة الطائف (المستفيدين).					
١٥- أفضل التعاقد مع شركة تأمين صحي تعاوني قادرة على أن تتابع الخدمة المقدمة لطلاب جامعة الطائف (المستفيدين) قبل وأثناء وبعد العلاج.					
١٦- بصفة عامة أرى أن الأسباب السابقة قد تكون كافية للتعاقد مع أي شركة تأمين صحي وتتعلق بنا كطلاب بجامعة الطائف (المستفيدين) وتجعلنا راضين عن مستوى خدماتها .					

٢

التربية

جامعة الطائف

مستوى الدعم الذي يقدمه مديرو المدارس لمعلمي غرف المصادر التي يوجد بها طلبة من ذوي صعوبات التعلم وعلاقته بدافعية معلميهم في مدينة عمان

د.واصف العايد

قسم التربية الخاصة - كلية التربية- جامعة الطائف

الطائف- المملكة العربية السعودية

الملخص

هدفت الدراسة إلى معرفة مستوى الدعم المقدم من مديري المدارس لمعلمي غرف المصادر وعلاقته بدافعيتهم في مدينة عمان، وتكونت عينة الدراسة من (٣٩) معلما ومعلمة في مديريات التربية والتعليم التي طبقت فيها الدراسة لعام ٢٠١٠/٢٠١١ ، حيث تم اختيار هذه المديريات بالطريقة العشوائية .وتكونت الأداة من جزأين الأول لقياس مستوي الدعم والثاني لقياس علاقته بالدافعية وتوصلت نتائج الدراسة بأن أكثر مجالات الدعم المتعلقة هي: إيجاد روح التعاون ، يليها الدعم المتعلق بالجانب المعرفي، في حين كانت أقل مجالات الدعم المتعلقة بتوفير الوسائل والمستلزمات. وأن هناك علاقة ايجابية بين مستوى الدعم الذي يقدمه مديرو المدارس للمعلمين في غرف المصادر والدافعية .

المقدمة الخلفية النظرية

تلعب القيادة دورا هاما وحيويا في التأثير على سلوك العاملين واتجاهاتهم، كما أنها تعمل على زيادة تماسك الجماعة، وتوفير أفضل الفرص لتنمية العلاقات الإنسانية والتعاون، الأمر الذي يؤدي إلى زيادة الدافعية للإفراد نحو بذل أقصى جهد من أجل رفع شان الجماعة. وتقوم القيادة بدور فعال ومؤثر في حل المشكلات التي يواجهها أعضاء الجماعة، من حيث استغلال قدراتهم وتوظيفها في الاتجاه المناسب مما يؤدي إلى تحقيق أعلي مستويات الأداء والرضا عما يقومون به من أعمال. مما جعل المجتمعات تولي موضوع القيادة أهمية خاصة في مختلف ميادين الحياة وذلك لارتباطها المباشر بالخصائص المجتمعية من جهة ولكونها أهم الظواهر التي تقوم عليها عملية التفاعل الاجتماعي وتماسك الجماعة من جهة ثانية،وتعد الإدارة المدرسية في طليعة فعاليات الإدارة والتي تنال اهتماما خاصا لكونها تقود أصغر وحدة تنظيمية في العملية التربوية وترتبط ارتباطا وثيقا بالمدخلات الإنسانية الرئيسة في العملية المتعلقة بالطالب وهو محور العملية التربوية.

ويشير الطعاني (1999) إلى أهمية الإدارة المدرسية بدورها الفاعل في قيادة وتوجيه الجهود والقوى التي تعمل لتحقيق الأهداف المرجوة للمدرسة فضلا عن مسؤولياتها في توفير وتهيئة التسهيلات اللازمة للعملية التربوية إذ إن نجاح كل عمل يتوقف بوجه عام على القائمين به ومدى إخلاصهم وكافياتهم التي تعتمد على قدراتهم ومدى استيعابهم لمهماتهم وما يتصفون به من صفات ومميزات وما يمتلكون من معارف ومعلومات.ويؤكد الطعاني،(2004) أن نجاح المدرسة يستند إلى العاملين بها ولا سيما المديرين لكونهم يشكلون العنصر القيادي في العملية الإدارية، فمسؤولياتهم لم تعد مقتصرة على تسيير شؤون المدرسة تسييرا روتينيا أو مجرد المحافظة على النظام فيها، أو حصر حضور الطلبة وغيابهم بل أصبح دورهم يتعدى ذلك إلى الإسهام في قيادة مكونات العملية التربوية في مدارسهم تخطيطا وتوجيها وتنسيقا ومراقبة ومعرفة فضلا عن أحكام العلاقات المنظمة لهذه المكونات إذ يعمل الجميع من خلال ذلك بتعاون وانسجام وتكامل.

وقد أولت وزارة التربية والتعليم في الأردن أهمية كبيرة لتدريب جميع الكوادر البشرية الإدارية والفنية في أجهزتها انسجاما مع حركة التطوير التربوي التي شهدها في الأردن في أعقاب انعقاد مؤتمر التطوير التربوي عام(1987).وقد حققت وزارة التربية والتعليم خطة لتطوير الإدارة التربوية ، وعلى رأسها تطوير الإدارة المدرسية في الأردن وهدفت هذه الخطة لتحقيق مايلي:- اتخاذ الإجراءات الكافية لتحسين أداء الطلبة والمعلمين وإكساب المهارات والكافيات والخبرات

اللازمة لتطوير الأداء الإداري والفني لمدير المدرسة واتخاذ القرارات المناسبة وحل المشكلات ومواجهة المواقف الطارئة وتوظيف الجهود والطاقات واستثمار الموارد البشرية والمادية المتاحة داخل المدرسة وخارجها لبلوغ أهداف المدرسة وغاياتها (وزارة التربية والتعليم الأردنية، 1994) وانطلاقا من فكرة التطوير التربوي وتحقيقا لفكرة الدمج أبدت وزارة التربية والتعليم اهتماما خاصا بذوي الحاجات الخاصة وعلى رأسهم الطلبة ذوي صعوبات التعلم مما أدى إلى استحداث مايسمى بغرفة المصادر في المدرسة العادية وأصبحت هذه الغرف موجودة في معظم مدارس المملكة وتخدم فئة من فئات التربية الخاصة وهي فئة صعوبات التعلم من خلال قرار رقم (33) (وزارة التربية والتعليم الأردنية ،1993).

حيث يؤكد كثير من الباحثين أن هذه الفئة تتصف بأنها تعاني من مشكلات في القراءة والكتابة والحساب ويرى آخرون أن لديهم صعوبة في الانتباه والإدراك ومشكلات في العمليات النفسية كالذاكرة مما دفع الحكومة الأمريكية أن تحدد ثلاث أنواع من المشكلات الرئيسة تتمثل في المشكلات اللغوية سواء أكان في اللغة التعبيرية أم الاستقبالية وكذلك مشكلات في القراءة والكتابة كالتعبير الكتابي ومهارات القراءة وأيضا مشكلات في حل المسائل الرياضية تتمثل في صعوبة إجراء العمليات الحسابية والاستدلال الرياضي (The National Center for LearningDisabilities،2008).

ونظرا للاختلافات حول تعريف صعوبات التعلم والخصائص المتعلقة بهؤلاء الطلبة ترتب على ذلك صعوبة في التعامل مع هذه الفئة والحاجة إلى المعرفة حول تلبية حاجات الطلبة ذوي صعوبات التعلم من قبل المعلمين في التربية الخاصة لما لديهم من حاجات مختلفة من جهة وأساليب وطرق تدريس من جهة أخرى(Wong،1998).

وبناء على ذلك فإن المعلمين بحاجة للمساعدة في أمور متعلقة بالطلبة ذوي صعوبات التعلم ،وهذا الدور يمكن أن يلعبه الفريق متعدد التخصصات في المدرسة، وعلى رأسهم مدير المدرسة الذي توجد لديه غرفة مصادر داخل المدرسة.(Marzano ،2003).

وإن معرفة مدير المدرسة بالمهارات والتوجيه الفعال أمر ضروري في إنجاح مهمة معلمين التربية الخاصة والوصول إلى الأهداف المخطط لها بيسر وسهولة إذ إنه صاحب القرار في المدرسة الذي يتمكن من خلال امتلاكه للصلاحية أن ييسر الأمور للمعلم في غرفة المصادر ويطوع بقية الأشخاص الذين يتعاملون مع الطفل لصالح الأهداف المخطط لها ولخدمة العملية التربوية برمتها.(Clouse،1993) .ومن هنا يتضح الدور المحوري الذي يلعبه مدير المدرسة

التي يوجد بها غرف مصادر أو معلمون في التربية الخاصة في إنجاح العملية التعليمية وإيجاد روح التعاون بين المختصين والعمل بروح الفريق الواحد وإيجاد تواصل مابين المدرسة وأولياء الأمور والترتيبات التعليمية بشكل عام مما يكون له الأثر الأكبر في مساعدة الطلبة ذوي الحاجات الخاصة وعلى رأسهم الطلبة ذوي صعوبات التعلم . (Billingsley، 1993).

لذا لابد أن يمتلك مدير المدرسة مجموعة من المهارات التي تساعد المعلمين في داخل المدرسة على تلبية حاجات الطلبة من ذوي الاحتياجات الخاصة ومن أبرز هذه المهارات .المعرفة بخصائص وحاجات الطلبة ذوي صعوبات التعلم ،كذلك القدرة على القيادة والإصلاح،الخبرة في المحتوى التربوي للمنهاج،والمعرفة بخصائص المعلمين وحاجاتهم الشخصية والضغوط النفسية التي يواجهها المعلمون، وامتلاك لمهارات الإشراف والتقييم، والقدرة على اتخاذ القرارات المعقدة. (McGrady،&Boscardin،2001).

وحددت بعض المعايير العالمية التي يمكن لها أن تحد من المعوقات التي تواجه مديري مدارس الدمج التي يوجد بها الطلبة ذوي الاحتياجات الخاصة وتتمثل في: القدرة على التخطيط للتعليم الخاص ، والممارسة الأخلاقية التي تتعلق بالتربية الخاصة والعاملين في هذا المجال،والالتزام بعدالة القانون وتطبيقه فيما يتعلق بالأشخاص ذوي الحاجات الخاصة، والمشاركة في البرامج المعدة لذوي الاحتياجات الخاصة، والمعرفة بمحتوى المنهاج وقضايا التعليم(2002، Crockett) وأن امتلاك المعرفة والمهارات لمديري المدارس في المدرسة التي يوجد فيها غرف مصادر وطلبة من ذوي الاحتياجات الخاصة يؤدي إلى زيادة تعلم الطلبة من ذوي الاحتياجات الخاصة ويزيد من دافعية المعلمين في عملهم. (2003، Marzano) ويقوم المدير بدور مهم في مدارس الدمج حيث يدخل التقنيات التعليمية ودعمها وتشجيع المعلمين لاستخدامها في العملية التعليمية لذوي الاحتياجات الخاصة والتي لها نتائج ملموسة في تعلم الطلبة ذوي صعوبات التعلم والطلبة ذوي الاحتياجات الخاصة كما أنها تسهل من عمل المعلمين مع هذه الفئات(Dipaola & Walther،2003)

كما أن هناك دور رئيسي لمديري المدارس في التدخل لإنجاح الطلبة من ذوي صعوبات التعلم وزيادة فاعلية المعلمين وزيادة النمو المهني لهم فيما يخص التربية الخاصة من خلال عقد الورشات التدريبية للمعلمين وتدريبهم على المستجدات في التربية الخاصة والقيام بالإصلاح التربوي داخل المدرسة كما أن لهم أهمية في تشجيع البحث العلمي من قبل المعلمين والذي ينعكس بدوره على إنتاجية المعلمين لذوي صعوبات التعلم من جهة و تحسين تعلم الطلبة ذوي صعوبات التعلم من جهة أخرى. (Boscardin 2004) .و ركزت الولايات المتحدة الأمريكية على جانب التشريع الذي

يضمن الإصلاح الإداري فيما يخص المديرين التربويين الذين توجد غرف مصادر في مدارسهم وطلبة من ذوي الاحتياجات الخاصة ومنحت التشريعات صلاحيات واسعة لمديري المدارس للتدخل في الإصلاحات التربوية المتعلقة في معلمين التربية الخاصة والطلبة من ذوي صعوبات التعلم وركزت على جهود المديرين للمعلمين والطلبة عام 2001 لما له أهمية في العملية التربوية. (President's Commission on Excellence in Special Education،2003)

ومن خلا ل ما تقدم يرى الباحث أن مفهوم الإدارة المدرسية هو مفهوم خدمة وقيادة للوسط التعليمي الذي يهدف إلى الوصول إلى أهداف تربوية يسعى لتحقيقيها جميع العاملين في المدرسة وعلى رأسهم مدير المدرسة الذي يمثل المحرك الذي ينقل الحركة من خلاله إلى بقية أعضاء الجسم الواحد في المدرسة. وينسجم هذا الفهم لمفهوم القيادة مع التعريف الذي يتبناه لوب (Lube ،2003) والذي يعرفها تعريفا إجرائيا مفاده" أنها فهم وممارسة لقيادة تضع مصلحة مرؤوسيها قبل مصلحتها" وهي بذلك ترقى بقيمة الأفراد ونموهم وبناء روح الجماعة وممارسة الأصالة ومشاركة المرؤوسين في القوة والمكانة كل ذلك لمصلحة مشتركة لكل فرد في المدرسة. كما وينسجم هذا الرأي مع المفهوم العصري للقيادة والذي يقول بان القائد العظيم هو خادم أولا لمجموعته أو منظمته أو مجتمعه، وهذه الحقيقة البسيطة هي مفتاح عظمته والاعتراف به كقائد(Joseph&Winston،2005) ومن هنا فالقائد الخادم يرى نفسه خادما بين متساويين، لا يحتل مركزا بؤريا بينهم، ويوفر لهم المصادر والدعم دون توقع شكر منهم أو تقدير. ولا شك أن سلوكياته الخدمية لتلك المجموعة تظهر دوره المحوري لنجاحها فتدفع به إلى مركز القيادة ويكون بذلك تولى مركز القيادة استجابة لإلحاح مجموعته وحاجاتهم للنجاح(Smith،&Kuzmenko،2004). لذا ينعكس أثر مثل هذا النوع من القيادات على الطلبة والمعلمين معا ولا سيما الطلبة من ذوي الاحتياجات الخاصة حيث بينت الدراسات إن مدير المدرسة الفعال يكون خادما لمرؤوسيه بدرجة جيدة يزيد من تحصيل طلابه بدرجة عالية في كل من مادتي القراءة والرياضيات (Herbst،2003) كما أن قضية دمج الطلبة ذوي صعوبات التعلم في المدارس العادية ومدى مساهمة مديري المدارس في تحسين قدراتهم التعليمية امتدت أكثر من ربع قرن من القرن الحالي في ايرلندا والتي ترجم فيها مديري المدارس ما تم انجازه من دعم للمعلمين الذين يدرسون ذوي صعوبات التعلم من جهة وما تم تقديمه للطلبة ذوي صعوبات التعلم الموجودين في غرف المصادر من جهة أخرى. (Abbott،2006). وتبين أن التعاون من مديري المدارس له الأثر الأكبر في عملية إنجاح عملية الدمج والوصول بها إلى الدمج الكامل في بريطانيا (H.M. Inspectorateof Education،2002).مما دفع الحكومة البريطانية

إلى وضع تشريعات جديدة تضمن إنجاح عملية الدمج وذلك من خلال اقتراح استراتيجيات للتعامل مع الأطفال ذوي صعوبات التعلم بشكل خاص والطلبة ذوي الحاجات الخاصة بشكل عام ومن هذه الاستراتيجيات: التدخل المبكر الذي يزيل كثير من العوائق بالنسبة للدمج وتطوير الاستراتيجيات المهنية للمعلمين في داخل المدرسة وعلى رأسهم مدير المدرسة الذي يتطلب معرفة كاملة باحتياجات الطلبة من ذوي الحاجات الخاصة والمعلمين معا كما أن مشاركة أولياء أمور الطلبة يزيد من فاعلية الدمج لذوي الاحتياجات الخاصة وأخيرا سياسات الدعم الحكومية التي تؤثر على العملية برمتها «Howes et. al.،2005 ويلخص ابوتو Abbott، 2006». ثلاثة نقاط أساسية يمكن من خلالها لمدير المدرسة أن يساعد في الارتقاء بعملية الدمج وتتمثل في: أن يهتم في قبول الاختلافات الفردية في المدرسة.ويقوم بإيجاد التعاون بين المعلمين في داخل المدرسة من جهة وبين أولياء أمور الطلبة ذوي صعوبات التعلم من جهة أخرى وإيجاد تعاون بين الوكالات والجمعيات في المجتمع المحلي والمدرسة.

كما أن مدير المدرسة الذي يوجد لديه طلبة من ذوي صعوبات التعلم يمكن أن يمارس أدوارا محددة للارتقاء بمستوي العمل في المدرسة تتمثل هذه الأدوار بمسؤولياته فيما يخص العلاقات الشخصية والودية التي يستطيع من خلالها فض كثير من النزاعات وتوضيح الأدوار للعاملين في المدرسة. واتخاذ القرارات المسؤولة التي تكون موجهة نحو الأهداف التربوية المخطط لها وتجعل من جميع العاملين في المدرسة أداة طيعة لخدمة الطلبة ذوي صعوبات التعلم كما أن المعرفة الكاملة من مدير المدرسة بما يدور حوله على المستوى التربوي والاجتماعي والتنظيمي بين العاملين وخاصة المعلمين للطلبة ذو صعوبات التعلم تحسن من إنتاجية هؤلاء الطلبة والمعلمين معا. Cheek &. Lindsey. 2001

مشكلة الدراسة وأسئلتها :

حظي موضوع إعداد وتأهيل معلمي التربية الخاصة باهتمام واسع في الأونة الأخيرة، ولا يخفى على أحد أهمية الدور الذي يلعبه معلم التربية الخاصة في خدمة ذوي الحاجات الخاصة ومن بينهم ذوي صعوبات التعلم الموجودين في غرف المصادر. إلا أن هناك العديد من التساؤلات تطرح حول فاعلية هؤلاء المعلمين والعوامل المرتبطة بذلك كالدعم المقدم لهم من قبل المديرين وكذلك علاقة ذلك بدافعيتهم نحو العمل مع ذوي صعوبات التعلم، وهذا ما ستحاول الدراسة الحالية تحقيقه . وعلى وجه التحديد ستحاول الدراسة الحالية الإجابة عن الأسئلة التالية:

١- ما مستوى الدعم الذي يقدمه مديرو المدارس لمعلمي غرف المصادر التي يوجد بها طلبة من ذوي صعوبات التعلم؟

٢- هل يوجد علاقة بين مستوى الدعم الذي يقدمه مديرو المدارس لمعلمي غرف المصادر التي يوجد بها طلبة ذوي صعوبات تعلم ومستوى الدافعية لدى هؤلاء المعلمين؟

الدراسات السابقة:

لقد أجريت العديد من الدراسات حول موضوع القيادة والإدارة المدرسية الفاعلة والتي من ضمنها معرفة مدير المدرسة بمتعلقات غرفة المصادر والطلبة ذوي صعوبات التعلم كذلك علاقة دعم المديرين بانجاز المعلمين ومنها .

دراسة قام بها Lube، (1999) والتي هدفت لمعرفة العلاقة ما بين القيادة المتعاونة وتحصيل الطلبة حيث أظهرت نتائج الدراسة أن هناك علاقة مابين القيادة الخادمة وتحصيل الطلبة في اللغة العربية والرياضيات لدى طلبة المدرسة الثانوية.

وفي دراسة قام بها كل من Cheek &.Lindsey، (2001) هدفت إلى التعرف إلى الصراع على الدور بين المعلمين والمديرين في تعليم الطلبة ذوي صعوبات التعلم وأظهرت نتائج الدراسة أن مدير المدرسة الذي يوجد لديه طلبة من ذوي صعوبات التعلم يمكن أن يمارس أدوارا محددة للارتقاء بمستوى العمل في المدرسة تتمثل هذه الأدوار بمسؤولياته فيما يخص العلاقات الشخصية والودية التي يستطيع من خلالها فض كثير من النزاعات وتوضيح الأدوار للعاملين في المدرسة. واتخاذ القرارات المسؤولة التي تكون موجهة نحو الأهداف التربوية المخطط لها وتجعل من جميع العاملين في المدرسة أداة طيعة لخدمة الطلبة ذوي صعوبات التعلم كما أن المعرفة الكاملة من مدير المدرسة بما يدور حوله على المستوى التربوي والاجتماعي والتنظيمي بين العاملين وخاصة المعلمين للطلبة ذو صعوبات التعلم تحسن من إنتاجية هؤلاء الطلبة والمعلمين على معا.

وفي دراسة (Engelhard، & Geller،2001) حول تصورات المشرفين عن المدارس الثانوية التي يوجد فيها صعوبات تعلم أظهرت نتائج الدراسة أن المشرفين كان لديهم تصور ومعرفة عن الصعوبات التعلمية في المدارس الثانوية فيما يخص تحسين البرامج وخدمات الطلاب أكثر من المعلمين في مدارسهم.

وفيما يخص أثر المديرين والقيادة على إنتاجية المعلمين والطلبة ذوي صعوبات التعلم فقد ظهرت العديد من الدراسات التي تبين مدى التأثير للقيادة على الإنتاجية ومن هذه الدراسات دراسة (Taylor، (2002) والتي هدفت لقياس الممارسات القيادية لمديري المدارس أظهرت نتائج

الدراسة أن مديري المدارس الذين صنفوا أنفسهم قادة خدما يختلفون من وجهة نظر معلميهم بدرجة دالة إحصائيا عن أولئك الذين صنفوا أنفسهم غير ممتلكين لخصائص القائد الخادم.

كما أشارت دراسة (2004) ،bays إلى أن المعلمين في التربية الخاصة بحاجة إلى دعم ومساندة من المديرين الذين توجد في مدارسهم غرف مصادر وأن سعة اطلاعهم فيما يخص غرف المصادر والطلبة ذوي الاحتياجات الخاصة ينعكس على المعلمين والطلبة معا.

كذلك دراسة (2004) Christina & Elkins، والتي هدفت إلى معرفة تصورات المديرين والمعلمين للقضايا ذات العلاقة بالطلبة ذوي صعوبات التعلم حيث توصلت الدراسة إلى إن إدراك المديرين للقضايا المتعلقة بالجانب الحكومي كانت أكثر من إدراك المعلمين لهذا الجانب كما كانت إدراكات المعلمين والمديرين للقضايا الاجتماعية والتغيرات في العائلة غير كافية.

وتشير دراسة (2004) ،Boscardin والتي هدفت إلى معرفة دور المديرين في تسهيل التطوير وتقييم التدخلات المستندة إلى المعرفة بالطلبة ذوي صعوبات التعلم. أظهرت نتائج الدراسة أن استعمال الممارسات الإدارية المستندة إلى المعرفة بصعوبات التعلم زادت النتائج التربوية المتعلقة في تحسين الطلبة ذوي صعوبات التعلم كذلك أظهرت الدور الذي يلعبه المديرون والمعلمون والإصلاح المدرسي وتحسين النتائج التعليمية لذوي صعوبات التعلم .

وفي مقالة كتبها .(2006) ،Abbott. تهدف إلى معرفة تصورات مديري مدارس الدمج في ايرلندا أظهرت نتائجها أن التعاون من مديري المدارس كان له الأثر الأكبر في عملية إنجاح عملية الدمج والوصول بها إلى الدمج الكامل في بريطانيا كما أظهرت أن المديرين في مدارس الدمج لديهم ضعف في إدارة تلك المدارس.

وفي المقالة التي كتبها (2008) ،Hines والتي هدفت إلى معرفة توصيات المديرين في خلق التعاون في المدارس الثانوية. أظهرت نتائج الدراسة أن المديرين في المدارس التي يوجد فيها طلبة من ذوي الاحتياجات الخاصة عندما يتعاونوا مع المعلمين والطلبة يزيدوا من فاعلية المعلمين والطلبة على معا.

أما الدراسات العربية التي تناولت هذا الجانب قام أبوعاشور ،والجوارنة (2002) هدفت إلى التعرف على كيفية إدارة الوقت لدى مديري المدارس الأساسية ومديراتها في محافظة اربد حيث أظهرت نتائج الدراسة إلى أن هناك اهتماما كبيرا بين المديرين في إدارة الوقت.

وفي دراسة قامت بها الوادي، (2005) والتي هدفت إلى معرفة العلاقة بين السلوك القيادي

وتأثيره على الدافع والإنجاز والرضا الوظيفي لمعلمي التربية الرياضية أظهرت نتائج الدراسة إلى وجود علاقة ارتباطيه دالة بين السلوك القيادي للرؤساء وكل من الدافع والانجاز والرضا الوظيفي لديهم.

وفي دراسة قامت بها جعفر،(2005) هدفت لمعرفة واقع القيادة لدى مديري المدارس الابتدائية ومديراتها في مملكة البحرين أظهرت نتائجها أن مديري المدارس الأساسية ومديراتها يقومون ٦٧٪ فقط من الأدوار الوظيفية من الوظائف الإدارية الأساسية.

وفي دراسة قامت بها الديلمي، (2006) هدفت لمعرفة فاعلية مدير المدرسة بصفته مشرفا مقيما في تطوير الكفاية المهنية لمعلمي التعليم الأساسي بمملكة البحرين والتي أظهرت نتائجها أن هناك عدد من لمهام غير المقبولة من وجهه نظر المعلمين وعددها ٥٢ مهمة يمارسها مدير المدرسة في رفع كفايتهم وأن مديري المدارس ينشغلون في النواحي التنظيمية والإدارية ويبتعدون عن التفكير والاهتمام عن الجانب الفني والتعليمي والتربوي كمشرفين مقيمين.

أهداف الدراسة :

تهدف الدراسة الحالية إلى معرفة مستوى الدعم المقدم من مديري المدارس لمعلمي غرف المصادر ومعرفة العلاقة بين دافعية المعلمين والدعم المقدم لهم من مديري لمدارس.

حدود الدراسة ومحدداتها :

تتحدد نتائج هذه الدراسة بالعينة من حيث حجمها وخصائصها وطريقة اختيارها ومديريات التربية التي طبقت فيها الدراسة هي مديرية عمان الأولى والثانية والثالثة وبدو الوسط للعام 2010/2011 في محافظة العاصمة عمان ، وأداة الدراسة من حيث إجراءات تطويرها وخصائصها السيكومترية ، وأسلوب جمع المعلومات ، والتحليل الإحصائي .

أهمية الدراسة :

تكمن أهمية الدراسة الحالية في كون نتائجها تكشف لنا عن مستوى الدعم الذي يقدمه مديرو المدارس لمعلمي غرف المصادر التي يوجد بها طلبة من ذوي صعوبات التعلم وعلاقته بدافعية معلميهم في مدينة عمان مما سيساعد المهتمون بهذه الفئة من مختصين وباحثين وأصحاب قرار في الوقوف على ذلك بهدف تحسين مستوى الخدمات المقدمة لهذه الفئة من الأطفال، وكذلك تحسين مستوى الدعم بكافة أشكاله الفنية والنفسية والمادية، بهدف تحفيز المعلمين وتشجيعهم للقيام بخدمة هؤلاء الأطفال على أتم وجه .

تعريف المصطلحات:

الطلبة ذوو الصعوبات التعلمية: هم أولئك الطلبة الذين تم تصنيفهم على أنهم يعانون من صعوبات تعلمية في غرف المصادر في عمان، بناءً على أسس التصنيف المتبعة فيها.

معلمي غرف المصادر: هم أولئك المعلمون الذين يدرسون في غرف المصادر الطلبة ذوي صعوبات العلم ويمتلكون المؤهلات المخصصة لذلك .

الدعم المقدم من مديري المدارس: هو ذلك الدعم المقدم من مديري المدارس بكافة أشكاله الفنية والنفسية والمادية، بهدف تحفيز المعلمين وتشجيعهم على خدمة الأطفال من ذوي صعوبات التعلم في غرف المصادر والذي تقيسه اداة الدراسة .

دافعية المعلمين: هو ذلك الانجاز المترتب على واقع الدعم المقدم للمعلمين من قبل المديرين والذي تقيسه اداة الدراسة

الطريقة والإجراءات:

مجتمع الدراسة وعينتها:

تكون مجتمع الدراسة الحالية من جميع معلمي غرف المصادر التي تقدم خدماتها للطلبة ذوي صعوبات التعلم التابعة للمدارس الحكومية والخاصة والتطوعية والأهلية الموجودة في مدينة عمان للعام الدراسي 2010/2011، والذين يقدر عددهم بـ (100) معلما ومعلمة.

وقد أجريت هذه الدراسة على عينة من معلمي غرف المصادر التي تخدم الطلبة ذوي صعوبات التعلم والتي تكونت من (39) معلما ومعلمة في مديريات التربية والتعليم التي طبقت فيها الدراسة وهي مديرية عمان الأولى والثانية والثالثة وبدو الوسط لعام 2010/2011 في محافظة العاصمة عمان ، حيث تم اختيار هذه المديريات بالطريقة العشوائية من بين جميع المديريات التي يوجد فيها غرف مصادر في محافظة العاصمة عمان .

وقد روعي في اختيار العينة تمثيلها لمتغيرات الدراسة (الجنس، الخبرة التدريسية، المؤهل العلمي، التخصص الأكاديمي، نوع المدرسة)، والجدول رقم (1) يبين توزيع أفراد العينة حسب متغيرات الدراسة.

جدول رقم (1)

توزيع أفراد العينة حسب متغيرات الدراسة

المتغيرات ومستوياته		العدد	النسبة المئوية
الجنس	ذكور	8	20.5
	إناث	31	79.5
نوع المدرسة	حكومية	37	94.9
	خاصة وأهلية وتطوعية	2	5.1
الخبرة التدريسية	١-٥ سنوات	24	61.5
	٦-١٠ سنوات	7	17.9
	أكثر من ١٠ سنوات	8	20.5
المؤهل العلمي	دبلوم كلية مجتمع	3	7.7
	بكالوريوس	21	53.8
	دبلوم عالي	10	25.6
	دراسات عليا	5	12.8
التخصص الأكاديمي	تربية خاصة	32	82.1
	معلم صف	3	7.7
	تخصصات أخرى	4	10.3
المجموع الكلي للعينة		39	100

أداة الدراسة :

للتعرف على مستوى الدعم الذي يقدمه مديري المدارس لمعلمي غرف المصادر التي يوجد بها طلبة من ذوي صعوبات التعلم وكذلك وعلاقته بمستوى دافعية هؤلاء المعلمين تم إعداد أداة لأغراض هذه الدراسة على النحو الآتي:

١- مسح الأدب السابق المرتبط بموضوع الدراسة الحالية ، من أجل اشتقاق الأبعاد والفقرات المعبرة عن الدعم الذي يقدمه مديرو المدارس لمعلمي غرف المصادر التي يوجد بها طلبة من ذوي صعوبات التعلم وكذلك الفقرات المعبرة عن دافعية هؤلاء المعلمين

٢- بناءً على الأدب السابق المرتبط بموضوع الدراسة الحالية تم التوصل إلى 51 فقرة موزعة على 6 أبعاد شكلت الأداة التي تقيس مستوى الدعم، وكذلك تم التوصل إلى 21 فقرة شكلت الأداة التي تقيس مستوى دافعية المعلمين . وبذلك تكونت الصورة الأولية لأداة الدراسة.

٣- تم عرض أداة الدراسة بصورتها الأولية على 4 محكمين من ذوي الاختصاص في ميدان

التربية الخاصة والقياس النفسي، حيث أوصى المحكمون بإجراء التعديلات التالية:

أ- توضيح عدد من الفقرات .

ب- حذف إحدى الفقرات.

ج- تعديل صياغة بعض الفقرات من الناحية اللغوية.

٤- تم إجراء التعديلات التي أوصى بها المحكمون، وأصبحت الأداة بصورتها النهائية تتضمن جزأين، هما:

أ- الجزء الأول يقيس مستوى الدعم الذي يقدمه مديرو المدارس لمعلمي غرف المصادر ويتكون من 50 فقرة موزعة على 6 أبعاد يقابلها سلم تقديري مكون من أربع درجات هي: تنطبق بدرجة كبيرة، تنطبق بدرجة متوسطة، تنطبق بدرجة قليلة، لا تنطبق. وقد شملت الأبعاد ما يلي:

١- الدعم المتعلق بالجانب النفسي (11 فقرة)

٢- الدعم المتعلق بالجانب المعرفي (6 فقرات)

٣- الدعم المتعلق بإيجاد روح التعاون (8 فقرات)

٤- الدعم المتعلق بطلبة غرف المصادر (8 فقرات)

٥- الدعم المتعلق بالبرامج والخدمات (9 فقرات)

٦- الدعم المتعلق بتوفير الوسائل والمستلزمات (8 فقرات)

ب- الجزء الثاني يقيس مستوى دافعية المعلمين، ويتكون من 21 فقرة يقابلها سلم تقديري مكون من أربع درجات هي: تنطبق بدرجة كبيرة، تنطبق بدرجة متوسطة، تنطبق بدرجة قليلة، لا تنطبق.

٧ - تم عرض الصورة النهائية من أداة الدراسة على المحكمين ذوي الاختصاص، حيث أجمعوا على ملاءمة الأداة بصورتها النهائية لغايات الدراسة الحالية .

صدق وثبات أداة الدراسة :

فيما يتعلق بدلالات صدق أداة الدراسة، فقد تم تحقيقها من خلال إجراءات إعدادها، والتي حققت الصدق المنطقي المتمثل بتمثيل الأداة لمنطقة السلوك المراد قياسها والمحددة بالأبعاد

الرئيسة التي تم ذكرها سابقاً. حيث أجمع المحكمون على ملاءمة الفقرات للأبعاد التي تقيسها بنسبة اتفاق تزيد عن (90%).

كما تم استخراج دلالات ثبات أداة الدراسة بطريقة الاتساق الداخلي ، باستخدام معادلة كرونباخ ألفا ، وبلغ معامل الثبات الكلي للجزء الذي يقيس مستوى الدعم (0.97) ، في حين تراوحت قيم معاملات الثبات على الأبعاد الرئيسة ما بين (0.87) و (0.94) . والجدول رقم(2) يبين قيم معاملات الثبات التي تم التوصل إليها باستخدام معادلة كرونباخ- ألفا لكل بعد بالإضافة للثبات الكلي للجزء الأول من الأداة.

جدول رقم(3)

قيم معاملات الثبات باستخدام معادلة كرونباخ - ألفا

البعد	معامل الثبات
الدعم المتعلق بالجانب النفسي	0.94
الدعم المتعلق بالجانب المعرفي	0.87
الدعم المتعلق بإيجاد روح التعاون	0.87
الدعم المتعلق بطلبة غرف المصادر	0.89
الدعم المتعلق بالبرامج والخدمات	0.90
الدعم المتعلق بتوفير الوسائل والمستلزمات	0.90
الأداة ككل	0.97

كما تم استخراج دلالات ثبات الجزء الثاني من أداة الدراسة الذي يقيس مستوى دافعية المعلمين بطريقة الاتساق الداخلي، باستخدام معادلة كرونباخ - ألفا، وبلغ معامل الثبات (٠,٩٢).

وبالنظر إلى ثبات أداة الدراسة ، يتضح أنها ذات قيمة مرتفعة نسبياً تجعل منها أداة يمكن الاعتماد عليها لتحقيق أغراض الدراسة.

وبناءً على ما وجد لدى الباحث من دلالات الثبات ، وما تحقق للمقياس من صدق المحتوى المتمثل بإجراءات بناء المقياس وتمثيله لمنطقة السلوك المقاس، فإن أداة الدراسة بصورتها النهائية تعتبر مقبولة لأغراض إجراء هذه الدراسة ، وأصبحت جاهزة للتطبيق على أفراد عينة الدراسة.

إجراءات التطبيق :

بعد الانتهاء من بناء أداة الدراسة بصورتها النهائية، تم وضع رسالة خاصة توضح الغرض من الدراسة وهدفها، وتطمئن المستجيب حول سرية المعلومات التي سيدلي بها، وتوضح كيفية الإجابة على الأداة.

ثم قام الباحث بأخذ الموافقات الرسمية، وكذلك الكشوفات الخاصة بغرف المصادر التي تمثل مجتمع الدراسة. ثم تم اختيار عينة الدراسة بالطريقة العشوائية البسيطة. وبعد ذلك تم التوجه إلى معلمي غرف المصادر الذين مثلوا عينة الدراسة، ومقابلتهم، وتطبيق الأداة عليهم، وذلك بعد أن تم توضيح الهدف من الدراسة، وقد استغرقت عملية جمع البيانات شهر تقريباً. وبعد الانتهاء من جمع البيانات تم تفريغها وعمل التحليلات الإحصائية المناسبة.

استخراج الدرجات:

بعد تطبيق الأداة على أفراد عينة الدراسة، تم إعطاء درجة لكل فقرة، حيث تم ترجمة سلم الإجابة اللفظي الرباعي إلى سلم رقمي وذلك بإعطاء فئة الإجابة (تنطبق بدرجة كبيرة) أربع درجات، وفئة (تنطبق بدرجة متوسطة) ثلاث درجات، وفئة (تنطبق بدرجة قليلة) درجتين، وفئة (لا تنطبق) درجة واحدة.

ثم استخرجت درجة كلية لكل معلم ومعلمة، عن طريق جمع الدرجات المتحققة على جميع فقرات الأداة، وهكذا فإن أعلى درجة ممكنة على الجزء الأول من الأداة هي ٢٠٠ درجة وتعكس مستوى الدعم بصورته القصوى وأدنى درجة هي ٥٠ درجة وتعكس مستوى الدعم بصورته الدنيا. أما أعلى درجة ممكنة على الجزء الثاني من الأداة هي ٨٤ درجة وتعكس مستوى الدافعية بصورته القصوى وأدنى درجة هي ٢١ درجة وتعكس مستوى الدافعية بصورته الدنيا.

المعالجة الإحصائية :

للإجابة عن السؤال الأول، فقد تم استخراج متوسطات درجات الأفراد على كل فقرة بدلالة سلم الإجابة، ومتوسطات الدرجات والانحرافات المعيارية على جميع الفقرات وذلك للعينة ككل. وللإجابة عن السؤال الثاني ، تم استخدام معامل ارتباط بيرسون.

نتائج الدراسة :

هدفت الدراسة الحالية إلى التعرف على مستوى الدعم الذي يقدمه مديرو المدارس لمعلمي غرف المصادر التي يوجد بها طلبة من ذوي صعوبات التعلم وعلاقته بدافعية هؤلاء المعلمين

وللإجابة عن السؤال الأول والذي ينص على: ما مستوى الدعم الذي يقدمه مديرو المدارس لمعلمي غرف المصادر التي يوجد بها طلبة من ذوي صعوبات التعلم؟

تم استخراج متوسطات الدرجات التي حصل عليها أفراد عينة الدراسة على كل فقرة من فقرات الأداة بدلالة سلم الإجابة وانحرافاتها المعيارية ، كما تم استخراج متوسطات الدرجات التي حصل عليها أفراد عينة الدراسة بدلالة سلم الإجابة على كل بعد من أبعاد الأداة والأداة ككل، بالإضافة لانحرافاتها المعيارية، والجداول رقم (3) تبين ذلك.

جدول رقم (3 أ)

متوسط الدرجات والانحرافات المعيارية التي حصل عليها أفراد عينة الدراسة على كل بعد من أبعاد الأداة والأداة ككل*

البعد	المتوسط	الانحراف المعياري
الدعم المتعلق بالجانب النفسي	3.10	0.63
الدعم المتعلق بالجانب المعرفي	2.79	0.74
الدعم المتعلق بإيجاد روح التعاون	3.27	0.57
الدعم المتعلق بطلبة غرف المصادر	3.24	0.56
الدعم المتعلق بالبرامج والخدمات	2.84	0.70
الدعم المتعلق بتوفير الوسائل والمستلزمات	3.05	0.76
الأداة ككل	3.05	0.58

* نقطة القطع (2.5)

وللتعرف على مستويات كل فقرة داخل كل بعد تم استخدام المتوسطات الحسابية والانحرافات المعيارية لكل فقرة على حدة من أبعاد الأداة وقد وردت النتائج كما يلي:

جدول رقم (3 ب)

متوسط الدرجات والانحرافات المعيارية التي حصل عليها أفراد عينة الدراسة على كل فقرة من فقرات الأداة في بعد الدعم المتعلق بالجانب النفسي *

رقم الفقرة	الفقرة	المتوسط	الانحراف المعياري
11	أستطيع أن أبحث مع مدير مدرستي ما يواجهني من مشكلات مهنية	3.31	0.694
8	يتمتع مدير المدرسة بحسن الاستماع جيداً	3.31	0.731
4	يشعرني مدير المدرسة بأهمية العمل والإنجاز الذي أقوم به	3.28	0.686
9	ينفذ مدير المدرسة طلباتي بشكل سريع	3.28	0.793
3	يعمل مدير المدرسة بجد لتوفير الراحة النفسية لدى معلميه	3.18	0.823
7	يساعد مدير المدرسة في رفع الروح المعنوية لدى المعلمين	3.15	0.779
10	يولي مدير المدرسة معلم التربية الخاصة اهتماماً خاصاً	3.05	0.916
1	يوجهني مدير المدرسة إلى حل مشكلاتي بهدوء	3.03	0.778
2	مدير المدرسة يقلل من التوتر الذي يلحق بي نتيجة العمل	3.00	0.795
5	مدير المدرسة يحتوي غضبي في كثير من الأحيان	2.85	0.844
6	يخفف مدير المدرسة من الملل الناتج عن العمل	2.69	0.800

* نقطة القطع (2.5)

جدول رقم (3ج)

متوسط الدرجات والانحرافات المعيارية التي حصل عليها أفراد عينة الدراسة على كل فقرة من فقرات الأداة في بعد الدعم المتعلق بالجانب المعرفي *

رقم الفقرة	الفقرة	المتوسط	الانحراف المعياري
13	المدير يراقب الكفايات المهنية والأخلاقية والأكاديمية الخاصة بالمعلم	3.31	0.832
17	يسهل الإجراءات الرسمية للبرامج داخل المدرسة وخارجها	3.18	0.885
14	مدير المدرسة يشجع البحث العلمي في ميدان التربية الخاصة	2.79	0.894
16	يشجعني على إثراء معرفتي من خلال الزيارات الميدانية والندوات	2.74	0.966
12	يوفر مدير المدرسة الكتب والمراجع المتعلقة بالتربية الخاصة	2.72	1.050
15	يعقد المدير ورشات عمل ودورات متخصصة في التربية الخاصة	2.00	1.076

* نقطة القطع (2.5)

جدول رقم (3 د)

متوسط الدرجات والانحرافات المعيارية التي حصل عليها أفراد عينة الدراسة على كل فقرة من فقرات الأداة في بعد الدعم المتعلق بايجاد روح التعاون *

رقم الفقرة	الفقرة	المتوسط	الانحراف المعياري
22	يشجع على اللقاءات ما بين معلم التربية الخاصة وأولياء الأمور	3.49	0.601
25	يتعامل مدير المدرسة مع الآخرين بعدالة	3.41	0.677
18	يدعم التعاون ما بين معلم التربية الخاصة والمعلمين الآخرين	3.36	0.743
19	يحدد الأدوار للمختصين داخل المدرسة بما يخدم مصلحة الطلبة	3.31	0.800
24	مدير المدرسة يدعم الروح التعاونية بين المعلمين كأسرة واحدة	3.28	0.826
23	يدعم مدير المدرسة العلاقات القائمة مع المجتمع المحلي	3.18	0.790
20	يزيد من فاعلية التعاون ما بين المرشد التربوي ومعلم التربية الخاصة	3.08	0.882
21	يزيد مدير المدرسة من فاعلية الفريق متعدد التخصصات	3.05	0.857

* نقطة القطع (2.5)

جدول رقم (3 هـ)

متوسط الدرجات والانحرافات المعيارية التي حصل عليها أفراد عينة الدراسة على كل فقرة من فقرات الأداة في بعد الدعم المتعلق بطلبة غرف المصادر *

رقم الفقرة	الفقرة	المتوسط	الانحراف المعياري
26	مدير المدرسة متفهم لحاجات الطلبة الأكاديمية والاجتماعية والنمائية	3.46	0.600
29	يعطف مدير المدرسة على هؤلاء الطلبة ويشجعهم	3.36	0.584
27	يراعي مدير المدرسة الخصائص الانفعالية لطلبة غرف المصادر	3.33	0.701
30	يراعي مدير المدرسة كل طالب بحسب إعاقته	3.31	0.731
32	مدير المدرسة يحث الآباء على زيارة المدرسة بشكل دوري	3.26	0.751
28	يهتم بعلاج المشكلات السلوكية لدى هؤلاء الطلبة	3.23	0.667
31	مدير المدرسة يتابع المعلمين لدعم هؤلاء الطلبة في غرف المصادر	3.10	0.852
33	يقدم الجوائز لهم بين حين لآخر لتشجيعهم على التعلم	2.90	0.995

* نقطة القطع (2.5)

جدول رقم (3 و)

متوسط الدرجات والانحرافات المعيارية التي حصل عليها أفراد عينة الدراسة على كل فقرة من فقرات الأداة في بعد الدعم المتعلق بالبرامج والخدمات *

رقم الفقرة	الفقرة	المتوسط	الانحراف المعياري
39	مدير المدرسة يحث على استخدام كافة مصادر المدرسة	3.26	0.795
34	يتابع مدير المدرسة التقدم الأكاديمي الذي يحققه الطلبة	3.23	0.742
41	يشجع مدير المدرسة على إقامة النشاطات اللامنهجية	3.03	0.788
38	مدير المدرسة يحث على استخدام الأساليب العلمية في علاج هذه الفئة	2.95	1.025
42	يقيّم فاعلية البرامج المقدمة للأطفال بشكل دوري وختامي	2.90	0.852
36	مدير المدرسة يهتم ببناء الخطة التربوية والخطة التعليمية	2.74	1.093
40	يوفر أدوات تشخيص مناسبة لطلبة غرف المصادر	2.69	1.004
35	يشرك معلمي المدرسة في تخطيط البرامج لطلبة غرف المصادر	2.44	0.940
37	يفعل دور الفريق متعدد التخصصات في بناء الخطة التربوية الفردية	2.38	0.907

* نقطة القطع (2.5)

جدول رقم (3 ز)

متوسط الدرجات والانحرافات المعيارية التي حصل عليها أفراد عينة الدراسة على كل فقرة من فقرات الأداة في بعد الدعم المتعلق بتوفير الوسائل والمستلزمات *

رقم الفقرة	الفقرة	المتوسط	الانحراف المعياري
47	يلبي مدير المدرسة متطلبات القرطاسية داخل الغرفة	3.44	0.821
44	يهتم مدير المدرسة بوجود حاسوب في غرفة المصادر	3.26	0.818
48	يعمل مدير المدرسة على توفير الوسائل التعليمية المتنوعة	3.21	0.923
43	يوفر مدير المدرسة الأثاث المناسب لغرفة المصادر	3.21	0.833
50	يهتم مدير المدرسة بأوراق العمل المقدمة للطلبة في غرفة المصادر	3.21	0.894
46	مدير المدرسة يعمل على توفير أدراج لحفظ أعمال الطلبة وحاجاتهم	3.08	1.124
49	مدير المدرسة يدعم وجود أفلام تعليمية وترفيهية داخل غرفة المصادر	2.62	1.138
45	يهتم مدير المدرسة بوجود آلة تصوير داخل غرف المصادر	2.41	1.163

* نقطة القطع (2.5)

يتضح من الجدول رقم(3أ) ، وبالمقارنة بين متوسطات الدرجات على الأبعاد المختلفة بدلالة سلّم الإجابة ، أن أكثر مجالات الدعم كانت الدعم المتعلق بإيجاد روح التعاون ، يليها الدعم المتعلق بالجانب المعرفي، في حين كانت أقل مجالات الدعم المتعلقة بتوفير الوسائل والمستلزمات. وبشكل عام يلاحظ وجود مستوى من الدعم بدرجة متوسطة بدلالة سلّم الإجابة ، حيث بلغ متوسط أداء العينة على الأداة ككل (3.05) .

كما يلاحظ أن متوسطات الدرجات على الفقرات تراوحت ما بين (3.49) درجة للفقرة رقم (22) ضمن بعد الدعم المتعلق بايجاد روح التعاون (يشجع على اللقاءات ما بين معلم التربية الخاصة وأولياء الأمور)، و(2.00) درجة للفقرة رقم (15) ضمن بعد الدعم المتعلق بالجانب المعرفي (يعقد المدير ورشات عمل ودورات متخصصة في التربية الخاصة)، علماً بأن أعلى قيمة ممكنة للمتوسط هي أربع درجات ، وأقل قيمة ممكنة للمتوسط هي درجة واحدة. كذلك تبين أن قيم الانحرافات المعيارية للفقرات تراوحت ما بين(1.163) درجة للفقرة (45) ضمن بعد الدعم المتعلق بتوفير الوسائل والمستلزمات (يهتم مدير المدرسة بوجود آلة تصوير داخل غرف المصادر)، و(0.584) درجة للفقرة رقم (29) ضمن بعد الدعم المتعلق بطلبة غرف المصادر (يعطف مدير المدرسة على هؤلاء الطلبة ويشجعهم) مما يدل على محدودية الانسجام والاتفاق بين المستجيبين في الأداء على الأداة من جهة. ومن جهة أخرى.

جدول رقم (4)

معاملات الارتباط بين مستوى الدعم الذي يقدمه مديري المدارس لمعلمي غرف المصادر بأبعاده المختلفة ومستوى الدافعية لدى هؤلاء المعلمين

البعد	معامل ارتباط بيرسون	مستوى الدلالة
الدعم المتعلق بالجانب النفسي	* 0.438	0.005
الدعم المتعلق بالجانب المعرفي	* 0.393	0.013
الدعم المتعلق بايجاد روح التعاون	* 0.586	0.000
الدعم المتعلق بطلبة غرف المصادر	* 0.484	0.002
الدعم المتعلق بالبرامج والخدمات	* 0.397	0.012
الدعم المتعلق بتوفير الوسائل والمستلزمات	* 0.471	0.002
الأداة ككل	* 0.520	0.001

(* دالة إحصائياً عند ≤ 0.05 α)

وللإجابة على السؤال الثاني الذي ينص على : هل يوجد علاقة بين مستوى الدعم الذي يقدمه مديري المدارس لمعلمي غرف المصادر التي يوجد بها طلبة ذوي صعوبات تعلم ومستوى الدافعية لدى هؤلاء المعلمين؟ تم استخدام معامل ارتباط بيرسون بين مستوى الدعم بأبعاده المختلفة الذي يقدمه مديري المدارس ودافعية معلمي غرف المصادر، والجدول رقم (4) يبين ذلك.

يتبين من الجدول رقم (4)، وجود ارتباطات دالة إحصائيا ($\alpha \leq 0.05$) بين الدعم الذي يقدمه مديري المدارس لمعلمي غرف المصادر ومستوى الدافعية لدى هؤلاء المعلمين في جميع الأبعاد الفرعية للدعم والبعد الكلي، وقد ظهرت جميع الارتباطات في الاتجاه الموجب ، أي أن هناك علاقة ايجابية بين مستوى الدعم الذي يقدمه مديري المدارس لمعلمي غرف المصادر التي يوجد بها طلبة ذوي صعوبات تعلم ومستوى الدافعية لدى هؤلاء المعلمين.

مناقشة النتائج:

هدفت الدراسة الحالية إلى التعرف على مستوى الدعم الذي يقدمه مديري المدارس لمعلمي غرف المصادر التي يوجد بها طلبة من ذوي صعوبات التعلم وعلاقته بدافعية هؤلاء المعلمين

وقد دلت نتائج الدراسة فيما يخص السؤال الاول والذي ينص على **ما مستوى الدعم الذي يقدمه مديري المدارس لمعلمي غرف المصادر التي يوجد بها طلبة من ذوي صعوبات التعلم؟** أن المعلمين في غرف المصادر التابعة للمديريات التي طبقت عليها العينة يتلقون دعما في مختلف المجالات ولكن كان هناك تفاوت واضح بين هذه المجالات التي استخدمت لقياس مستوى الدعم لذا تبين أن أكثر دعم تلقاه المعلمين كان في مجال الدعم المتعلق بإيجاد روح التعاون ، ويليه الدعم المتعلق بالجانب المعرفي، في حين كانت أقل مجالات الدعم المتعلقة بتوفير الوسائل والمستلزمات. وتعتبر هذه النتيجة منطقية جدا فيما يخص الدعم المتعلق بإيجاد روح التعاون بين المعلمين والذي يعتبر ركيزة أساسية للمدير الناجح حيث أن الدعم في هذا المجال يخفف العبء على مدير المدرسة ويثري العملية التربوية برمتها في مدرسته ويخفف التنافس بين المعلمين ويعطي كل شخص حقه في ممارسة صلاحياته بشكل دقيق.كما أن من الأسس الأساسية في تأهيل المديرين لقيادة المدارس في الأردن أن يمتلك المدير القدرة على إيجاد روح التعاون بين جميع العاملين في مدرسته وهذا يتفق مع النقاط الأساسية التي يجب أن تتوافر في مدير المدرسة والتي ذكرها (Abbott،2006، DiPaola & Walther،2003) لذا كانت هذه النتيجة منطقية جدا، والتي تتفق مع دراسة (Bays،2004) ودراسة Houck، Engellhard، & Geller، 2001 أما فيما يخص الدعم المتعلق بالجانب المعرفي والذي احتل الترتيب الثاني في مجالات الدعم المقدمة للمعلمين

في غرف المصادر من قبل المديرين . تعتبر هذه النتيجة منطقية وفقا لفقرات الأداة التي تندرج تحت هذا البعد والتي تقيس مستوى الدعم في مراقبة كفايات المعلم وتسهيل الإجراءات الرسمية وتشجيع البحث العلمي وإثراء معرفة المعلم وتوفير الكتب والمراجع وعقد الورشات التدريبية لاسيما أن المدير الناجح الذي يركز على المخرجات التربوية والمعرفية والتي تعتبر نتاج العملية التعليمية وهذه النتيجة تتفق مع دراسة.(Boscardin، 2004). أما فيما يخص البعد المتعلق بتوفير الوسائل والمستلزمات والذي كان اقل الأبعاد دعما من قبل مديري المدارس يفسر بان الوضع الاقتصادي المتعلق بالميزانيات المصروفة للمدارس لا يسمح بالدعم الكامل لكل ما تحتاجه غرف المصادر من مستلزمات تعليمية ووسائل تعليمية من جهة ومن جهة أخرى خشية كثير من المديرين من الجانب المالي وذلك كون الميزانية محدودة والمتطلبات كثيرة فيتبعون سياسة ترشيد المصروفات لكي يستطيعون تغطية جميع متطلبات المدارس في جميع الجوانب داخل المدرسة . وهذا التفسير ملموس من قبل الباحث على الواقع كونه كان معلما سابقا في احد هذه المديريات التي طبقت عليها العينة وكان يعاني من هذا الجانب .إضافة إلى أن هذا التفسير منطقي كونه يتفق مع دراسة الديلمي (2006) والتي بينت أن المديرين ينشغلون في النواحي الإدارية والتنظيمية أكثر من انشغالهم في النواحي المتعلقة بتقديم اللوازم والوسائل التعليمية.

أما ما يخص مناقشة نتيجة السؤال الثاني والذي ينص: **هل يوجد علاقة بين مستوى الدعم الذي يقدمه مديري المدارس لمعلمي غرف المصادر التي يوجد بها طلبة ذوي صعوبات تعلم ومستوى الدافعية لدى هؤلاء المعلمين؟ حيث أشارت نتائج الدراسة إلى** وجود ارتباطات دالة إحصائيا ($\alpha \leq 0.05$) بين الدعم الذي يقدمه مديري المدارس لمعلمي غرف المصادر ومستوى الدافعية لدى هؤلاء المعلمين في جميع الأبعاد الفرعية للدعم والبعد الكلي، وقد ظهرت جميع الارتباطات في الاتجاه الموجب ، تعتبر هذه النتيجة واقعية جدا وذلك للارتباط الوثيق بين الدعم والدافعية للعمل حيث أن المعادلة طردية في أي عمل يقوم به الفرد فكلما زاد الدعم زادت الرغبة في العمل وكانت المخرجات أفضل لذا توافقت نتائج الدراسة الحالية مع نتائج الدراسات في هذا المجال ومنها دراسة (Boscardin 2004) ودراسة (Bays، 2004) وكذلك دراسة(Hines،2008) ومن الدراسات العربية التي توافقت مع نتيجة الدراسة الحالية دراسة الوادي (2005).كما أن الأدب النظري حول هذا الموضوع يشير إلى الارتباط الوثيق بين الدعم المقدم من مديري المدارس ودافعية معلمي التربية الخاصة لاسيما وان هذه الفئة من المعلمين بحاجة ماسة لهذا الدعم كونهم الأكثر احتراقا نفسيا من بين المعلمين وهذا ما أشار إليه كل من دراسة (1993، Billingsley and 1993 ،Clouse; Wong1998

Marzano،2003) . كما أن الباحث لديه تجربة تدلل على صحة الإجابة على هذا السؤال من خلال تجربته في غرف المصادر حيث تنقل في عدة مدارس وعمل مع الطلبة ذوي صعوبات التعلم لعدة سنوات .وعمل مع مجموعة من المديرين أثناء عمله. فالمدير الذي كان على معرفة بموضوع صعوبات التعلم وكان داعما في كل الأحيان للمعلم ومتابعا ومعززا له في عمله كان يحفز المعلم ويزيد من دافعيته نحو عملية تعليم هؤلاء الطلبة وكان يزيد من إبداعات المعلم في استخدام الأساليب والوسائل المناسبة لحاجات الطلبة ذوي صعوبات التعلم مما يساهم في علاجهم والتخفيف من مشكلاتهم الأكاديمية. وهذا يتوافق مع الإجابة على هذا السؤال في الدراسة الحالية.

توصيات الدراسة

١- تبني فلسفة من قبل وزارة التربية والتعليم في الأردن لتأهيل مديري المدارس حول ذوي الاحتياجات الخاصة وتزويدهم بالمعرفة المناسبة

٢- عقد دورات إنعاشية للمدراء حول كيفية التعامل مع المعلمين في غرف المصادر وكيفية دعمهم من اجل زيادة بدافعيتهم للتعليم.

٣- إجراء مزيد من الدراسات ذات العلاقة بالموضوع من اجل تحسين العملية التربوية برمتها وتعليم ذوي الاحتياجات الخاصة بشكل خاص.

٤- عقد اجتماعات دورية بين المعلمين والمديرين لمناقشة المستجدات التربوية المتعلقة بغرف المصادر والصعوبات التي تواجه المعلمون في غرف المصادر

المراجع العربية

١. جعفر، رملة علي.(٢٠٠٥). واقع القيادة لدى مديري المدارس الابتدائية ومديراتها في مملكة البحرين. مجلة العلوم النفسية والتربوية المجلد ٦ العدد٣

٢. الدليمي، طه. (٢٠٠٦). فاعلية مدير المدرسة بصفته مشرفا مقيما في تطوير الكفاية المهنية لمعلمي التعليم الأساسي بمملكة البحرين . مجلة العلوم النفسية والتربوية مجلد ٨ العدد ٢.

٣. ابوعاشور،خليفة مصطفى، والحوارنة ،المعتصم بالله سليمان،(٢٠٠٢). دورالادارة المدرسية في إدارة الوقت في مدارس محافظة اربد الأردن. مجلة العلوم النفيسة والتربوية المجلد ٣- العدد٣.

٤. الطعاني،حسن.(١٩٩٩). دراسة ميدانية لبناء برنامج تدريبي لمديري المدارس في ضوء مهماتهم المطلوبة. مجلة مركز البحوث التربوية: (دولة قطر) (العدد الخامس عشر،السنة الثانية،١٠٧-١٣٠.

٥. الطعاني،حسن.(٢٠٠٤). فاعلية برنامج تطوير الادارة المدرسية في الاردن من وجهه نظر المديرين المشاركين في البرنامج، مجلة العلوم النفسية والتربوية المجلد رقم(٥) العدد(٤).

٦. وزارة التربية والتعليم في الاردن.(١٩٩٣). مديرية التربية الخاصة.

٧. وزارة التربية والتعليم في الأردن.(١٩٩٤). من منشورات مؤتمر التطوير التربوي، عمان الاردن.

٨. وزارة التربية والتعليم في الأردن ،مؤتمر التطوير التربوي، (١٩٨٧) من منشورات مؤتمر التطوير التربوي، عمان الاردن.

٩. الوادي، امل علي عيسى، (٢٠٠٥) السلوك القيادي للرؤساء وعلاقته بدافعية الانجاز والرضا الوظيفي لدى معلمي التربية الرياضية في المرحلة الثانوية بمملكة البحرين.رسالة ماجستير غير منشورة ،كلية التربية، جامعة البحرين.

المراجع الاجنبية

1. Abbott ،Lesley (2006)Northern Ireland head teachers'perceptions of inclusion International Journal of Inclusive Education،unesco Centre، School of Education، University of Ulster، Coleraine، Uk vol. 10، no. 6، November، 627–643
2. Bays A. Debora (2004) Science in the Schoolhouse: The Critical Role of the School Leader journal of learning is abilities volume 37، number 3، 256–261.
3. Billingsley، B. S. (1993). Teacher retention and attrition in special and general education :A critical review of the literature .The Journal of Special Education، 27، 137–174.
4. Boscardin L & A . Garrod .(2004.). Learning disabilities and life stories. Boston: Allyn & Bacon. (pp. 177–193
5. Boscardin. Mary Lynn (2004) Transforming Administration to Support Science in the Schoolhouse for Students with Disabilities journal of learning disabilities volume 37، number 3، may/june 2004، pages 262–26.
6. Cheek and. Lindsey (2001) Principal's Roles and Teacher Conflict: Recapitulation Journal of Learning isabilities Volume 19، Number 5.
7. Christina ; Kraayenoord ;Mika; Kiitaoka; and Elkins. John (2004) principals' and teachers' perceptionsof learning disabilities:a study from nara prefecture، japan candidate، Schoneil Special Ediicutioti Research Center، The University of Queensland Volume 27.- 161
8. Crockett . J. B.(2002).Special education 'srole in preparing responsive leaders for inclusive schools .Remedial and Special Education،23،157–168.
9. DiPaola، M. F.، & Walther-Thomas، C. (2003). Principals and special education: The critical role of school leaders No. IB-7). Gainesville: University of Florida، Center on Personnel Studies in Special Education.
10. Engelhard، and Geller.(2001) Special Education Supervisors' Perceptions of Secondary LD Programs: A Comparison with LD Teachers' Views Journal of Learnmg Dlsabtliltes.
11. H. M. Inspectorate of Education (2002) Count Us In — Achieving Inclusion in Scottish Schools (Edinburgh. HMIE). Available online at: http://www.hmie.gov.uk.
12. Herbst، J. D:.(2003). Organizational servant leadership and its relation to secondary chool effectiveness .Unpublished doctoral dissertation، Florida Atlantic University، Florida.
13. Hines ،joy t. (2008) Making Collaboration Work in Inclusive High School

Classrooms: Recommendations for Principals intervention in school and clinic vol. 43. no. 5. may 2008 (PP. 277–282) 277.

14. Howes. A..Booth. T.. Dyson. A. & Frankham.J. (2005)Teacher learning and the development of inclusive practices andolicies :framing and context . Research Papers in Education. 20(2).133–148.
15. Joseph. E. E. & Winston. B. E. (2005). A correlation of servant eadership. leader trust. and organizational trust. Leadership & Organization Development Journal. 26(1). 6-22.
16. Laub. J. A. (1999). Assessing the servant organization: development of the servant organizational leadership assessment (SOLA)instrument .Unpublished doctoral dissertation. Florida Atlantic University. Florida.
17. Laub. J. A. (2003). Assessing the servant organization: development of he
18. louse. T. L. (1993). Special education teachers' opinions of generic and program specific models of supervision.(Doctoral Dissertation. Temple University. Dissertation Abstracts International.54 (07A). 2533.
19. Marzano . R.J.(2003).What works in schools: Translating research into action. Alexandria .V A: Association for Supervision and Curriculum Development.
20. Mc Grady .H .. Lerner. J..& Boscardin. M. L.(2001).The educational lives of students with learning disabilities .In P. Rodis.
21. President's Commission on Excellence in Special Education. (2003). A new era: Revitalizing special education for children and their families. Washington. DC: Office of Special Education and Rehabilitative Services.Retrieved on February 23. from http://www.ed.gov/inits/commissions boards/whspecialeducation/
22. servant organizational leadership assessment (SOLA)instrument .Unpublished doctoral dissertation. Florida Atlantic University. Florida.
23. Smith. B. N.. Montagno. R.V.& Kuzmenko. T.V.(2006).Transformational and servant leadership: content and contextual comparisons. Journal of leadership and Organizational Studies. 10(4). 79-91.
24. Taylor .T.A.(2002).Examination of leadership practices for principals identified as servant leaders .Unpublished doctoral dissertation. university of Missouri-Columbia.
25. The National Center for Learning Disabilities.(2008).Information Processing Disorders: AnIntroduction .Article Retrieved 25.2005.Form:Http.// ww. ncld. org / LD Info Zone/ Fact Sheet __Auditory PD Detalis . Cfm.
26. Wong . B (1998) Learning About Learning Disabilities .Academic Press. Inc.

الملاحق

أداة الدراسة

بسم الله الرحمن الرحيم

معلم غرفة المصادر المحترم .. تحية طيبة وبعد ..

تحاول الأداة الحالية تحديد مستوى الدعم الذي تقدمه الإدارة المدرسية ، وعلاقته بدافعية معلمي غرف المصادر في عمان .. ونحن إذ نأخذ من وقتك الثمين فإننا نتقدم لك بالشكر الجزيل آملين منك الإجابة على ما ورد في هذه الاستبانة بشكل دقيق ، علماً بأن كل ما تتضمنه سيستخدم لأغراض البحث العلمي .. شاكرين لكم حسن تعاونكم ..

أرجو تعبئة هذه المعلومات للأهمية البالغة وذلك بوضع إشارة (X) في المكان المناسب ، مع ملاحظة أن هذه المعلومات ستعامل بسرية تامة :

الجنس

ذكر أنثى

الخبرة التدريسية

☐ ١-٥ سنوات ☐ ٦-١٠ سنوات ☐ أكثر من ١٠ سنوات

المؤهل العلمي

☐ دبلوم كلية مجتمع ☐ بكالوريوس ☐ دبلوم عالي ماجستير دكتوراه

التخصص الأكاديمي

☐ تربية خاصة ☐ معلم صف ☐ غيرها (.....)

نوع المدرسة

☐ خاصة ☐ حكومية ☐ أهلية تطوعية

م	الفقرات	تنطبق بدرجة كبيرة	تنطبق بدرجة متوسطة	تنطبق بدرجة قليلة	لا تنطبق
الدعم المتعلق بالجانب النفسي					
1	يوجهني مدير المدرسة إلى حل مشكلاتي بهدوء				
2	مدير المدرسة يقلل من التوتر الذي يلحق بي نتيجة العمل				
3	يعمل مدير المدرسة بجد لتوفير الراحة النفسية لدى معلميه				
4	يشعرني مدير المدرسة بأهمية العمل والإنجاز الذي أقوم به				
5	مدير المدرسة يحتوي غضبي في كثير من الأحيان				
6	يخفف مدير المدرسة من الملل الناتج عن العمل				
7	يساعد مدير المدرسة في رفع الروح المعنوية لدى المعلمين				
8	يتمتع مدير المدرسة بحسن الاستماع جيداً				
9	ينفذ مدير المدرسة طلباتي بشكل سريع				
10	يولي مدير المدرسة معلم التربية الخاصة اهتماماً خاصاً				
11	أستطيع أن أبحث مع مدير مدرستي ما يواجهني من مشكلات مهنية				
الدعم المتعلق بالجانب المعرفي					
12	يوفر مدير المدرسة الكتب والمراجع المتعلقة بالتربية الخاصة				
13	المدير يراقب الكفايات المهنية والأخلاقية والأكاديمية الخاصة بالمعلم				
14	مدير المدرسة يشجع البحث العلمي في ميدان التربية الخاصة				
15	يعقد المدير ورشات عمل ودورات متخصصة في التربية الخاصة				
16	يشجعني على إثراء معرفتي من خلال الزيارات الميدانية والندوات				
17	يسهل الإجراءات الرسمية للبرامج داخل المدرسة وخارجها				
الدعم المتعلق بإيجاد روح التعاون					
18	يدعم التعاون ما بين معلم التربية الخاصة والمعلمين الآخرين				
19	يحدد الأدوار للمختصين داخل المدرسة بما يخدم مصلحة الطلبة				
20	يزيد من فاعلية التعاون ما بين المرشد التربوي ومعلم التربية الخاصة				

21	يزيد مدير المدرسة من فاعلية الفريق متعدد التخصصات					
22	يشجع على اللقاءات ما بين معلم التربية الخاصة وأولياء الأمور					
23	يدعم مدير المدرسة العلاقات القائمة مع المجتمع المحلي					
24	مدير المدرسة يدعم الروح التعاونية بين المعلمين كأسرة واحدة					
25	يتعامل مدير المدرسة مع الآخرين بعدالة					
الدعم المتعلق بطلبة غرف المصادر						
26	مدير المدرسة متفهم لحاجات الطلبة الأكاديمية والاجتماعية والنمائية					
27	يراعي مدير المدرسة الخصائص الانفعالية لطلبة غرف المصادر					
28	يهتم بعلاج المشكلات السلوكية لدى هؤلاء الطلبة					
29	يعطف مدير المدرسة على هؤلاء الطلبة ويشجعهم					
30	يراعي مدير المدرسة كل طالب بحسب إعاقته					
31	مدير المدرسة يتابع المعلمين لدعم هؤلاء الطلبة في غرف المصادر					
32	مدير المدرسة يحث الآباء على زيارة المدرسة بشكل دوري					
33	يقدم الجوائز لهم بين حين لآخر لتشجيعهم على التعلم					
الدعم المتعلق بالبرامج والخدمات						
34	يتابع مدير المدرسة التقدم الأكاديمي الذي يحققه الطلبة					
35	يشرك معلمي المدرسة في تخطيط البرامج لطلبة غرف المصادر					
36	مدير المدرسة يهتم ببناء الخطة التربوية والخطة التعليمية					
37	يفعل دور الفريق متعدد التخصصات في بناء الخطة التربوية الفردية					
38	مدير المدرسة يحث على استخدام الأساليب العلمية في علاج هذه الفئة					
39	مدير المدرسة يحث على استخدام كافة مصادر المدرسة					
40	يوفر أدوات تشخيص مناسبة لطلبة غرف المصادر					
41	يشجع مدير المدرسة على إقامة النشاطات اللامنهجية					
42	يقيّم فاعلية البرامج المقدمة للأطفال بشكل دوري وختامي					

الدعم المتعلق بتوفير الوسائل والمستلزمات					
43	يوفر مدير المدرسة الأثاث المناسب لغرفة المصادر				
44	يهتم مدير المدرسة بوجود حاسوب في غرفة المصادر				
45	يهتم مدير المدرسة بوجود آلة تصوير داخل غرف المصادر				
46	مدير المدرسة يعمل على توفير أدراج لحفظ أعمال الطلبة وحاجاتهم				
47	يلبي مدير المدرسة متطلبات القرطاسية داخل الغرفة				
48	يعمل مدير المدرسة على توفير الوسائل التعليمية المتنوعة				
49	مدير المدرسة يدعم وجود أفلام تعليمية وترفيهية داخل غرفة المصادر				
50	يهتم مدير المدرسة بأوراق العمل المقدمة للطلبة في غرفة المصادر				

عزيزي المعلم يقيس هذا الجزء من الاستبانة دافعية المعلم في عمله داخل غرفة المصادر

م	الفقرات	تنطبق بدرجة كبيرة	تنطبق بدرجة متوسطة	تنطبق بدرجة قليلة	لا تنطبق
1	أشعر بالسرور وأنا ذاهب إلى المدرسة كل صباح				
2	أشعر بالسعادة كلما دخلت غرفة المصادر				
3	أميل إلى إعطاء أفضل ما لدي بكل ما أقوم به في المدرسة				
4	شعوري بالاعتزاز بعملي يمثل مكافأة هامة				
5	أفكر دائما بضرورة بذل جهد أكبر للتغلب على نقاط ضعفي في التدريس				
6	أشعر بأن مهنة التدريس مهنة مقدسة بالنسبة لي				
7	ألتزم بمواعيد الدوام المدرسي				
8	أكره التغيب عن عملي				
9	أتطوع بالقيام بأعمال إضافية لخدمة المدرسة				
10	أفتخر بمهنتي أمام الآخرين				
11	أحاول التعرف على نواحي الضعف في التدريس لتجنبها				
12	يزداد تعلقي بمهنة التدريس كلما زادت خبرتي				
13	لا أشعر بالملل عندما أخطط لدروسي				
14	أشتاق إلى عملي عندما أتغيب عن المدرسة				
15	أبذل أكبر جهد ممكن للقيام بعملي				
16	أحب البقاء في المدرسة أكبر وقت ممكن				
17	أشعر بالفرح عندما يقرع جرس ابتداء الحصة الدراسية				
18	ألتزم بتعليمات الإدارة المدرسية رغبة مني				
19	أشعر بزيادة تقديري لذاتي عندما أؤدي عملي في المدرسة بكفاءة				
20	أشعر بالرضا عندما أقوم بعملي بكفاءة عالية				
21	أشعر بأنني مستعد لتقديم مجهوداً أكبر من المطلوب لإنجاح عمل المدرسة				

٣

العلوم الشرعية

جامعة الطائف

التأصيلُ الفقهي وأثرهُ في فقهِ الإمامِ والخطيب

د.فهد بن سعد الجُهني

أستاذ أصول الفقه المشارك بقسم الشريعة

جامعة الطائف

مجلة جامعة الطائف – الآداب والتربية (العلوم الشرعية)

المجلد الأول – العدد الرابع – ذو الحجة ١٤٣١هـ – ديسمبر ٢٠١٠م

الملخص

الحمد لله وأصلي وأسلم على خير خلق الله وبعد:

فإن الإمامة في الصلاة والخطابة في الناس، والفقه فيهما أمور تتعلق بأعظم شعائر الإسلام بعد الشهادتين، ونظرا لأهمية هذا الموضوع؛ أحببتُ الكتابة في هذا الموضوع لحاجة المعنيين بذلك، إلى التأصيل العلمي والإلماح بشيء من القواعد الأصولية والمقاصدية المعنية في تحقيق مقاصد الشرع وتحصيل الفائدة والنفع العميم لصالح المسلمين والناس أجمعين.

وقد ركزت في البحث على جانب التأصيل مع بيان مكانة الإمامة في الصلاة، ومن ثم تناولت مصطلح فقه الواقع وأهميته، وفي ختام البحث اتجه البحث للحديث حول فقه النوازل والمراد به ومنهجية النظر في هذا النوع من المسائل، وكذلك دور الإمام والخطيب للتصدي لمثل هذا النوع من القضايا، والمنهج العلمي الذي ينظِّم هذا التناول.

ثم ختم البحث بأثر هذا الفقه على الناس وعلى أثر الإمام فيهم.

وأسأل الله التوفيق والفقه في الدين لأخواني الأئمة والخطباء، وأن يكون أثرهم في الناس حسنا.

الحمدُ للّه الذي هدانا لهذا الدين وجعلنا في خير أمة وبعث إلينا خيرَ رسولٍ وأنزلَ معه خير كتاب، لا يبلغُ الواصفون كُنْهَ عَظمته، الذي هو كما وصفَ نفسَهُ،وفوقَ ما يصِفهُ به خلقُه .

وأصلي وأسلم على معلم الناس الهدى والخير إمام الأئمة ورحمة الله لهذه الأمة؛ الذي تركنا على البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالـك، المُنتخب لرسالته،المُفضّل على جميع خلقه، صلوات ربي وسلامه عليه وآله وصحبه.

وبعد:

فإن الإمامةَ في الصلاة والخطابةَ في الناس؛ من أعظم شعائر الإسلام، ففي قيام هذين الأمرين قيامٌ للدين بل لأعظم ركنٍ فيه بعد الشهادتين أعني «الصلاة» وهي خير موضوع، وهي عهدُ اللّه الذي من تركه فقد كفر.

وإن فقهَ الإمامةِ والخِطابةِ من أنواعِ الفقهِ المُهمةِ؛ والتي تحتاجُ من أهل العلم وطلبته مزيداً من العناية وكثيراً من الاهتمام؛ وذلك لأسبابٍ كثيرة ومنها:

١- أن متعلقه هو الصلاة وهي عمود الدين؛ وعندما يفقه الإمام أحكام الصلاة والإمامة فإن هذا كلَّه ينعكس إيجاباً على المصلين من حيث نشر العلم بأحكام الصلاة كما جاءت وصحت عن صاحب السنةِ والرسالة سيدنا ونبينا محمد بن عبدالله ﷺ ، والصلاةُ الأصلُ فيها التوقيف والمتابعة ،امتثالاً لقول النبي ﷺ في الحديث:(صلوا كما رأيتموني أصلي)

٢- أن الإمامةَ مهمةٌ شرعيةٌ جليلة القدر بعيدة الأثر؛ والإمامُ في المجتمع المسلم شخصٌ له مكانته وتقديره؛ وهو محلُ قبولٍ وكلامه محل إنصات، وفعله وسلوكه محل مراقبةٍ وتقليد وتأس، من أجل ذلك فإن العلم الشرعي بالنسبة له مهمٌ جداً؛ حتى يكون قوله ورأيه وسلوكه وإرشاده موافقاً للسنة ولهدي النبوة ومحققاً لأكبر قدرٍ من المصالح الشرعية .

٣ - ما نلمسه من بعض الأخطاء التي يقعُ فيها بعض الأئمة والخطباء أصلح الله الجميع سواء في مسائل فقهية تتعلق بالصلاة وكيفيتها وما يتعلق بها من أحكام كسجود السهو ونحوه؛ أو ما يتعلق بما قد يصدرُ منه من فتاوى أو توجيهات ،أو ما يختاره من خطبٍ ومواعظ، ومردُ ذلك كلّه في الغالب قصورٌ في التفقه وجهلٌ بالسنة وبقواعد الشرع ومقاصده.

لهذه الأسباب وغيرها؛ رأيتُ أنه من المناسب بل والمتعين الكتابة في جوانب من هذا الفقه؛ أعني المتعلق بالإمام والخطيب لقلة ما يكتب فيه في كتاباتنا المعاصرة؛ ولحاجة الأئمة والخطباء للتأصيل والإلمام بشئ من القواعد الأصولية والمقاصديه المعينة للإمام والخطيب في تحقيق مقاصد الشرع وتحقيق أكبر قدر من الفائدة والنفع للمصلين وفق قواعد الشرع ومقاصده.

وقد جاء هذا البحثُ في تمهيدٍ وخمسة مباحث:

التمهيد: والحديث فيها عن مكانة الإمام وأثره والشروط الواجب توفرها فيه

المبحث الأول: وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: في بيان ثبات الشريعة وشمولها لمتغيرات الزمان والمكان

المطلب الثاني: تعريف الحكم الشرعي وأثره في ضبط تصرفات المكلفين

المطلب الثالث: المراد بفقه الواقع وعلاقته بمسائل البحث .

المبحث الثاني: في فقه النوازل وفيه مطالب:

المطلب الأول: المقصود بفقه النوازل

المطلب الثاني: ضرورة الاجتهاد في مسائل النوازل وأثره

المطلب الثالث: من الذي يسوغ لها الاجتهاد في مسائل النوازل

المبحث الثالث: وفيه مطلبان:

المطلب الأول: منهجية النظر في النوازل (لمن كانت لديه القدرة) وفيه مسائل :

أولاً: معرفة طبيعة المسالة

ثانياً: تحقيق مناط المسالة وتصويرها

ثالثاً: الرد إلى الأدلة والقواعد الشرعية المتفق عليها

المطلب الثاني: في تعامل الإمام مع النوازل ؛وفيه مسائل

أولاً: التثبت وعدم العجلة

ثانياً: سؤال أهل الذكر والاختصاص

ثالثاً: التنزيل الصحيح على الواقعة

المبحث الرابع: في تعامل الإمام مع قضايا العصر:

أولاً: أهمية إطلاع الإمام على قضايا العصر وتحدياته

ثانياً: طرق الإطلاع على قضايا العصر

ثالثاً: المنهجية المقترحة لمناقشة هذه القضايا

المبحث الخامس:

فقه الموازنة وأثره؛ وفيه مطلبان:

المطلب الأول: المقصود بفقه الموازنة

المطلب الثاني: أثر هذا الفقه برسالة الأئمة والخطباء

التمهيد:

الإمامةُ في الصلاة لها مكانة عظيمةٌ ودرجةٌ رفيعةٌ في الإسلام؛ فهي نظامٌ رباني وتشريع إليهي جاءت به شريعةُ محمدٍ صلواتُ الله وسلامه عليه ؛في نظامٍ فريد وشعائر جليلة لاتجدُ لها نظيراً في أمة أودين سابقين !

ومما يدلُّ على هذه المكانة جملةُ أمورٍ منها :

أن هذه المهمة الدينية والشرعيةَ قد تولاها خيارُ الناس وأكبرُهم قدراً وشأناً وأثراً في الأمة؛ فقد تولاها منذ بدء الإسلام نبينا سيدُ الأنام ﷺ ؛ فكان هو وإلى أن توفاه الله إمامَ الناس في جمعهم وجماعاتهم؛ مما يدلُ قطعاً على عظم شأن الإمامة وبالغ أثرها في الناس .

وهو ما حدث فقد كان صلواتُ الله وسلامه عليه القدوة في الناس في الصلاة وغيرها ؛وكانوا يأخذون عنه كيفية الصلاة وهو يوجهُهُم بقوله «صلوا كما رأيتموني أصلي»[1]

وكان ومن خلال هذا المنصب الشريف يلتقي بهم في اليوم والليلة خمسَ مرات ؛فلا تسل عن عظيم ما يُحصِّلون من خيرٍ وعلم وهدى !

قال الإمام السرخسي: (والأصل فيه: أن مكانةَ الإمامة ميراثٌ من النبي ﷺ ؛فإنه أول من تقدم للإمامة ؛فيختارُ لها من يكون أشبهَ به خَلقاً وخُلقاً ..)[2]

ومن بعده تعاقب الخلفاءُ الراشدون في خلافة هذا المنصبِ الشريف ؛ولم يوكلوا غيرهم به لأنهم يرونه من أهم الأمور التي يتولونها وتجدرُ العنايةُ بها .

ومما يشير كذلك إلى هذه المكانة الرفيعة تلك الشروط والصفات التي أشارَ إليها الشارعُ وجاءت بها السنةُ النبوية لتُبَين للناس من أولى الناس بالإمامة ؛فتجدُ أن هذه الولاية لا ينبغي أن يتولاها من بين المسلمين إلا الأفضل دائماً ، فلعظم مكانة هذه الولاية عظمت مكانة من يتولاها!.

والأصل في الباب حديث النبي ﷺ في صحيح مسلم عَنْ أَبِى مَسْعُودٍ الأَنْصَارِىِّ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ «يَؤُمُّ الْقَوْمَ أَقْرَؤُهُمْ لِكِتَابِ اللَّهِ فَإِنْ كَانُوا فِى الْقِرَاءَةِ سَوَاءً فَأَعْلَمُهُمْ بِالسُّنَّةِ فَإِنْ كَانُوا فِى السُّنَّةِ سَوَاءً فَأَقْدَمُهُمْ هِجْرَةً فَإِنْ كَانُوا فِى الْهِجْرَةِ سَوَاءً فَأَقْدَمُهُمْ سِلْمًا وَلاَ يَؤُمَّنَّ الرَّجُلُ الرَّجُلَ فِى سُلْطَانِهِ وَلاَ يَقْعُدْ فِى بَيْتِهِ عَلَى تَكْرِمَتِهِ إِلاَّ بِإِذْنِهِ» صحيح مسلم.

قال في بدائع الصنائع: «فَصْلٌ وَأَمَّا بَيَانُ من هو أَحَقُّ بِالْإِمَامَةِ وَأَوْلَى بها فَالْحُرُّ أَوْلَى بِالْإِمَامَةِ من الْعَبْدِ وَالتَّقِيُّ أَوْلَى من الْفَاسِقِ وَالْبَصِيرُ أَوْلَى من الْأَعْمَى وَوَلَدُ الرِّشْدَةِ أَوْلَى من وَلَدِ الزِّنَا وَغَيْرُ الْأَعْرَابِيِّ من هَؤُلَاءِ أَوْلَى من الْأَعْرَابِيِّ لِمَا قُلْنَا. ثُمَّ أَفْضَلُ هَؤُلَاءِ أَعْلَمُهُمْ بِالسُّنَّةِ وَأَفْضَلُهُمْ وَرَعًا وَأَقْرَؤُهُمْ لِكِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى وَأَكْبَرُهُمْ سِنًّا وَلَا شَكَّ أَنَّ هذه المعاني (الخصال) إذَا اجْتَمَعَتْ

في إنْسَانٍ كان هو أَوْلَى لِمَا بَيَّنَّا أَنَّ بِنَاءَ أَمْرِ الْإِمَامَة على الْفَضِيلَة وَالْكَمَال وَالْمُسْتَجْمَعُ فيه هذه الْخِصَالُ من أَكْمَلِ الناس. أَمَّا الْعِلْمُ وَالْوَرَعُ وَقِرَاءَةُ الْقُرْآن فَظَاهِرٌ . وَأَمَّا كِبَرُ السِّنِّ فَلِأَنَّ من امْتَدَّ عُمُرُهُ في الْإِسْلَام كان أَكْثَرَ طَاعَةً وَمُدَاوَمَةً على الْإِسْلَام. فَأَمَّا إذَا تَفَرَّقَتْ في أَشْخَاصٍ فَأَعْلَمُهُمْ بِالسُّنَّة أَوْلَى إذَا كان يُحْسِنُ من الْقِرَاءَة ما تَجُوزُ بِهِ الصَّلَاةُ»

وقال: (وإنْ كَانُوا فيه سَوَاءً فَأَحْسَنُهُمْ خُلُقًا لِأَنَّ حُسْنَ الْخُلُقِ من بَابِ الْفَضِيلَة وَمَبْنَى الْإِمَامَة على الْفَضِيلَة فَإِنْ كَانُوا فيه سَوَاءً فَأَحْسَنُهُمْ وَجْهًا لِأَنَّ رَغْبَةَ الناس في الصَّلَاة خَلْفَهُ أَكْثَرُ) [٣]

وقال أبو عمر الإمام ابن عبدالبر رحمه الله: (معلومٌ أن الصلاةَ في حياة رسول الله ﷺ كانت إليه لا إلى غيره وهو الإمام المقتدى به؛ ولم يكن لأحد أن يتقدم إليها بحضرته فلما مرض واستخلف أبا بكر عليها والصحابة متوافرون ووجوه قريش وسائر المهاجرين وكبار الأنصار حضور وقال لهم مروا أبا بكر يصلي بالناس استدلوا بذلك على أن أبابكر كان أحق الناس بالخلافة بعده ﷺ فارتضوا لإقامة دنياهم وأمانتهم من ارتضاه رسول الله ﷺ لدينهم .

ولم يمنع رسول الله ﷺ والله أعلم من أن يُصرِّحَ بخلافة أبي بكر رضي الله عنه إلا أنه كان لا ينظر في دين الله بهواه ولا يشرع فيه إلا بما يوحى إليه ولم يوح إليه في الخلافة شيء، وكان لا يتقدم بين يدي ربه في شيء...) [٤]

دور الإمام في مجتمعة :

إن للإمام مكانة في نفوس جماعة مسجده وفي مجتمعه بصورة عامة لا تزال ولله الحمد تحمل الكثير من التقدير والاحترام والقبول؛ لاسيما من الأئمة الذين يُقدِّرون هذا المنصب الشرعي حقّ قدره ويعرفون فضلهَ ومكانته !

لذا فإن من المتعين على الإمام ؛لاسيما في هذا العصر الذي تكثرُ فيه همومُ الناس وتتنوع مشكلاتهم وصوارفهم عن الخير ؛مما يؤدي إلى انصراف كثير منهم عن الخير وانشغالهم عنه؛ وبات الناسُ لبعدهم وغفلتهم عن تحكيم الشرع في شؤونهم في أمس الحاجة لمن يأخذ بأيديهم برفق ولين واجتهاد وحرص ليحملهم على الأفضل والأكمل؛ ويبيَّن لهم شرعَ الله تعالى .

لذا لابد من أن يتحلى الإمام بجملة أمور تمكنه من القيام بهذا الدور ومن ذلك :

١- إخلاصُ النية لله تعالى ؛فالنيةُ الصالحةُ رأسُ الأمر ومداره ؛وعليها المُعوّل بإذن الله في التوفيق والسداد

٢- العنايةُ والجدُ في تحصيل العلم الشرعي ؛فكلما كان الإمامُ أكثر علماً كلما كان أكثر قبولاً وهيبة وثقةً بنفسه ؛وكان تأثيره أكبر ولا شك

ومن أهم العلوم: الفقه لاسيما أحكام العبادات عموماً إضافة للأحكام المتعلقة بالأسرة من نكاح وطلاق ونحوه لكثرة المشكلات الأسرية؛ وكذلك أن يكون متصلاً دائماً بتفسير كلام الله والوقوف عند تلك الآيات التي لها علاقة مباشرة في توجيه الناس في كثيرٍ من القضايا والمشكلات التي تصادفهم ؛حتى ينطلق من كتاب الله فهو نعم المعين والمؤثر !

ومن المهم أيضاً إطلاعه على هدي النبي ﷺ في تعامله مع أهله وأقاربه وأصحابه وأعدائه ومع الناس جميعاً ؛حتى يستلهم من هذا الهدي النبوي العظيم حلولاً لكثيرٍ من مشكلات الناس التي قد يكون له دورٌ في حلها .

ومن ذلك: الإلمام قدر الإمكان بقواعد الشرع ومقاصده لاسيما تلك التي لها علاقة بفقه الإمام والخطيب ومن أهمها كما سيأتي القواعد المتعلقة بفقه النوزال والموازنة.

٣- حسنُ الخلقِ مع مجتمعه المحيط به ؛لاسيما مع أهل مسجده ؛وما أعطي إنسان في هذه الدنيا بعد الإيمان أفضل من خُلقٍ حسن ! فبحسن الخلق يُقبلُ الناسُ عليه ويسمعوا منه ويحبوه ؛فإذا أحبوه قبلوا منه ولجأوا إليه في معظم ما يعرض لهم من مشاكل وهموم. فإذا كان فظ القلب غليظاً أو غريبَ الأطوار أنفضوا عنه ! وهذه نتيجةٌ حتمية ! فالله قد رتّبَ هذه النتيجةَ حتى في حق نبيهِ وصفيهِ الكريم ﷺ ! حين قال: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ﴾ (آل عمران ١٥٩) . فكيف بمن هو دونه ولا يدانيه ؟!

٤- المواظبةُ في الحضور للمسجد قدر الإمكان فإن التغيب الكثير والمتكرر يؤثر في أداء هذه الشعيرة ويضعف من مكانة الإمام ومن أثره ؛بل ويقدم للناس صورةً غير حسنة عن أهل الصلاح !

نخلصُ من هذا كله: إلى أن للإمام أثـــره الكبير في المجتمع من جهة القيام بأمر عبادة جليلة عظيمة وهي «الصلاة» وتعليم الناس لأحكامها وكيفية آدائها عملياً وهذا أمرٌ مهم .

ومن جهة: توجيه الناس وإرشادهم للخير وتعليمهم السنة وحملهم على تعظيم الشرع وتحكيمه في نفوسهم وحياتهم .

المبحث الأول:
(في ثبات الشريعةِ وشمولها)

المطلب الأول:
بيان ثبات الشريعة وشمولها:

شريعةُ محمد ﷺ التي منّ الله بها على هذه الأمة ونبّه القرآن على هذه المنة العظيمة؛ قال الله: ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾ (المائدة ٣)

هذه الشريعةُ ربانية المصدر وهي بهذه الخصيصة العظيمة قد سمت وعلت على جميع الشرائع والقوانين التي من عند غير الله أو التي نالها التحريف والتبديل؛ وهي بذلك أيضا تميزت بخصائص عظيمة ؛ منها الثبات والشمول .

وهاتان الخصيصتان: ثبات أحكام الشريعة وشمولها لكل ما يجد في الحياة؛ هما سرُ بقاء الشريعة وخلودها وصلاحيتها لاستيعاب متغيرات الزمان والمكان.

والمقصود بهذه الصفة في هذا السياق أعني الثبات هو أن قولَ الله وقولَ رسوله ﷺ هما الحق المحض والدين الخالص؛ الذي لايقبلُ التبديل ولا التغيير ؛ولن يقبل الله من أحدٍ ديناً سواه .

يقول العلامةُ ابنُ القيم رحمه الله: (ومادةُ التثبيت أصلهُ ومنشأه من القول الثابت: والقول الثابت هو: القول الحق والصدق وهو ضد القول الباطل والكذب ،فالقولُ نوعان: ثابتٌ له حقيقة، وباطلٌ لا حقيقة له، وأثبت القول كلمةُ التوحيدِ ولوازمها)[٥]

ويقول د.عابد السفياني في رسالته «الثبات والشمول « في بيان معنى الثبات المقصود هنا: (هو ماجاء به الوحي من عند الله تعالى سواء باللفظ أو المعنى دون اللفظ، وانقطع الوحي عن الرسولِ ﷺ وهو لم يُنسخ،فهو ثابتٌ محكمٌ له صفةُ البقاء والدوام لا تغيير له ولا تبديل، وهو كذلك أبداً إلى يوم القيامة)[٦]

أما ما أقصده من معنى الشمول في هذا المبحث فهو: أن كل مسألة أو حادثة تنزلُ بالمكلفين إلى قيام الساعة؛ ففي الشريعة الإسلامية بيانٌ لحكمها؛ بواسطة نصوصها وأدلتها وقواعدها الكلية؛ فهي كما قال الله عنها :﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ ﴾ (النحل ٤٤).

قال الإمام الشافعي رحمه الله بعد عرضه لجملة آيات في هذا الباب؛ قال (فليست تنزلُ بأحدٍ من أهل دين الله نازلةٌ إلا وفي كتابِ اللهِ الدليلُ على سبيلِ الهُدى فيها)[٧]

يقول الإمامُ الشاطبيُ - رحمه الله -: (القران فيه بيان كل شيء .. فالعالم به على التحقيق عالم بجملة الشريعة ولا يعوزه منها شيء)[٨]

ويقول الشيخ عبد الرحمن بن سعدي رحمه الله تعالى عند تفسيره لآية: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ (المائدة).

بتمام النصر وتكميل الشرائع، الظاهرة و الباطنة، الأصول والفروع .

ولهذا كان الكتاب والسنة كافيين كل الكفاية، في أحكام الدين أصوله وفروعه . فكل متكلف يزعم؛ أنه لابد للناس من معرفة عقائدهم وأحكامهم إلى علوم أخرى غير الكتاب والسنة من علم الكلام وغيره؛ فهو جاهل، مبطل في دعواه، قد زعم أن الدين لا يكمل، إلا بما قاله ودعا إليه . وهذا من أعظم الظلم والتجهيل لله تعالى ولرسوله ﷺ ..)[٨]

وقد ذكر الشيخُ محمد الطاهر بن عاشور - رحمه الله تعالى - إجماع العلماء على عموم الشريعة وصلاحيتها في كل زمان ومكان وأن العلماءَ لم يبينوا كيفية هذه الصلاحية فذكر - رحمة الله - أن هذه الصلاحية عنده تحتمل أن تتصور بكيفيتين:

(**الكيفية الأولى**: أن هذه الشريعة قابلة بأصولها وكلياتها للانطباق على مختلف الأحوال بحيث تساير أحكامها مختلف الأحوال دون حرج ولا مشقة ولا عسر. وشواهد هذه الكيفية ما نجده من محامل علماء الأمة أدلة كثيرة من أدلة الأحكام على مختلف الأحوال، ولكل من أئمة الشريعة نصيب من هذه المحامل، فإذا جمعت أنصباؤهم تجمع فيها شيء وفير من تأويل ظواهر الأحكام على محامل صالحة لمختلف أحوال الناس . مثاله النهي عن كراء الأرض، قال مالك والجمهور: محمل النهي على التورع وقصد مواساة بعض المسلمين بعضاً دون جزم بنقض عقدة كراء الأرض وكالنهي عن جر السلف منفعة، وقد حمله جماعة من الفقهاء الحنفية على ما ليس فيه ضرورة، ولذا رخصوا في بيع الوفاء في كروم بخارى) .

(**الكيفية الثانية**: أن يكون مختلف أحوال العصور و الأمم قابلاً للتشكل على نحو أحكام الإسلام دون حرج ولا مشقة ولا عسر كما أمكن تغيير الإسلام لبعض أحوال العرب والفرس والقبط والبربر والروم والتتار والهنود والصين والترك من غير أن يجدوا حرجاً ولا عسراً في الإقلاع عما نزعوه من قديم أحوالهم الباطلة . ومن دون أن يلجؤوا إلى الانسلاخ عما اعتادوه و تعارفوه من العوائد المقبولة فتعين أن يكون معنى صلوحية الشريعة لكل زمان أن تكون أحكامها كليات ومعاني مشتملة على حكم ومصالح صالحة لأن تتفرع منها أحكام مختلفة الصور متحدة المقاصد)[٩] .

المطلب الثاني:
الحكم الشرعي وأثره في ضبط تصرفات المكلفين

الحكم الشرعي في اصطلاح الأصوليين هو: خطابُ اللهِ المتعلق بأفعال المكلفين بالاقتضاء أو التخيير أو الوضع [١٠].

وهو بهذا الحد يشمل أحكام التكليف الخمسة (الواجب والمندوب والمحرم والمكروه والمباح)

وهذا التقسيم الشرعي والعلمي للأحكام له أثرهُ في ضبط تصرفات المكلفين ؛من جهة أن شيئاً من تصرفاتهم لا يمكن أن يخرجَ عن هذه التوصيفات الشرعية؛ وعليه يكون المكلف داخلاً تحت قانون الشريعة ولا يخرج عنها، وهو داخل في معنى الشمول الذي سبقت الإشارةُ إليه .

يقول الإمام الشاطبي رحمه الله :

(..وكذلك نقول: إن أحكام الشريعةِ تشتملُ على مصلحةٍ كلية في الجملة، وعلى مصلحة جزئية في كل مسألة على الخصوص، أما الجزئية؛ فما يعربٌ عنها كل دليل لحكم في خاصته، وأما الكلية؛ فهي أن يكون كل مكلف تحت قانون معين من تكاليف الشرع في جميع حركاته وأقواله واعتقاداته؛ فلا يكون كالبهيمة المسيبة تعمل بهواها، حتى يرتاض بلجام الشرع، وقد مر بيان هذا فيما تقدم، فإذا صار المكلف في كل مسألة عنت له يتبع رخص المذاهب، وكل قول وافق فيها هواه؛ فقد خلع ربقة التقوى، وتمادى في متابعة الهوى، ونقض ما أبرمه الشارع وأخر ما قدمه، وأمثال ذلك كثيرة)[١١]

المطلب الثالث:
المراد بفقه الواقع

أولاً: تعريف فقه الواقع

هذا المصطلح من المصطلحات التي استعملت في الأوساط الدعوية والشرعية، ولا يعرف بالتحديد أول من استعمله ولكنه شاع حديثاً على ألسنة المفكرين والدعاة، وقد جاء على لسان بعض الأئمة قديماً ؛ومنهم الإمام ابن القيم في أكثر من موضع من كتبه، ومنها قوله:

(ولا يتمكن المفتي ولا الحاكم من الفتوى والحكم بالحق إلا بنوعين من الفهم:

أحدهما: فهمُ الواقع والفقه فيه

الثاني: فهمُ الواجب في الواقع ؛وهو فهم حكم الله الذي حكم به في كتابه أو على لسان رسوله)[١٢]

ويطلق الواقع في اللغة بمعنى الحاصل فيقال: هذا أمر واقع أي حاصل، فالواقع هو الشيء الموصوف بالوقوع بمعنى الحصول والوجود، ومنه قوله تعالى:» إنما توعدون لواقع».

والواقع أيضا الساكن والهابط من علو كما يقال» طائر واقع إذا كان على شجر ونحوه[١٣].

ومن حيث التركيب الإضافي هو فهم الحاصل من أمور الناس.

وعرفه بعض المعاصرين بقوله:» علم يبحث في فقه الأحوال المعاصرة من العوامل المؤثرة في المجتمعات والقوى المهيمنة على الدول، والأفكار الموجهة لزعزعة العقيدة، والسبل المشروعة لحماية الأمة ورقيها في الحاضر والمستقبل»[١٤]

ويمكن تعريفه بأنه :» فهم أحوال الناس والوقائع المعاصرة والأحداث الجارية سواء كانت عامة أم خاصة بمعرفة حقيقتها وأسبابها وآثارها ووسائل حماية المجتمع من أضرارها»[١٥]

ومن خلال ترتيب هذا البحث فإن «فقه الواقع « سيناقش من خلال المباحث التالية :

المبحث الثاني: في فقه النوازل

المطلب الأول: المقصود بفقه النوازل:

تعريف النازلة:

كما مهدنا سابقاً فإن أحكام الله تعالى شاملة لكل نازلة تنزل بالمكلفين؛ وهذه النوازل منها ما دل على حكمه بالنص عليه أو بنوع من أنواع الاجتهاد الذي ينطلق من النصوص ومن قواعد الشرع.

وتجد في لسان الفقهاء مصطلح النازلة وهو مصطلح خاص بنوع من المسائل .

والنازلة في اللغة: الشديدة، وهي المصيبة والخطب الجلل الذي ينزل بالناس ويشتد عليهم[١٦].

النازلة في الاصطلاح:

وردت لفظة النازلة عند بعض الفقهاء بواحد من معنيين :

الأول: المعنى اللغوي: وهي الحوادث والمصائب التي تفتك بالناس من أوبئة ومجاعات وحروب وفتن، وهذا المعنى يذكر في أبواب الوتر والقنوت .

الثاني: المعنى العام: وهي المسائل والقضايا التي تستوجب حكما شرعيا لكن دون وضع مصطلح جامع مانع بين حدوده والمراد منه، وهذا المعنى يذكر في الغالب في أبواب الاجتهاد والفتوى .

ويمكن وضع تعريف لهذا المصطلح يبين حده والمقصود منه، بأن النازلة هي: (الحادثة المستجدة التي تتطلب حكما شرعيا)[١٧].

والمراد «بقه النوازل» أمران :

أولهما: من جهة المسائل نفسها؛ أي أن هذا النوع من الفقه يختص بتلك المسائل المستجدة فقط

ثانيهما: يُقصدُ به المنهج العلمي الذي يسلكه الفقيه أو طالب العلم لتلمس حكم الله في مسألةٍ جادثة لم ينص على حكمها .

إن الاجتهاد في معرفة حكم الله تعالى في مسائل النوازل فرض كفاية في الجملة؛ إلا أنه يتعين على بعض القادرين والمؤهلين الذين لهم نوع تخصص وكبير مُكنة في بعض أنواع المسائل أكثر من غيرهم؛ أو إذا لم يوجد غيرهم .

وتعين هذا الاجتهاد وفرضيته يأتي من جهة أن المسألةَ الحادثة إذا نزلت بالأمة فلا يخلو الأمر من ثلاثة أحوال: إما أن يُتركَ الناسُ وأهواءهم فيها؛ وهذا مصادمٌ لأصل التشريع الذي

جاء وكما قرر الشاطبي ليُخرج الناس من داعية الهوى إلى داعية الشرع؛ وفي هذه الحالة ستخلو هذه الحادثة أو تلك عن حكم لله؛ والمصير إلى القول بخلو بعض الوقائع عن حكم سيؤدي إلى القول أو الظن بعدم كفاية الشريعة وصلاحيتها للتطبيق في كل زمانٍ ومكان !

والله تعالى قد أكمل الدين ولم تفرّط الشريعة في بيان كل شئ؛ قال الإمام ابن تيمية رحمه الله (أن الرسولَ ﷺ بيَّن جميعَ الدين؛ أصولَه وفروعَه، باطنه وظاهره...) [١٨]

والحالة الثانية: أن يُخلَّى بين هذا الأمر وبين من لم يكن من أهله ليبحث ويفتي ويقول على الله بغير علم ! فيترك الناس في جهلٍ وعماية !

ولم يبق إلا أن يتصدى أهل الفقه الراسخ وطلبةُ العلم المؤهلين لمثل هذه النوازل فيبينوا حكمَ الله فيها ،وهو المُتعين .

والاجتهادُ في دين الله وبيانِ أحكامه مرتبةٌ عظيمة؛ ومنزلةٌ جليلة القدر بعيدةُ الأثر؛ وهو نوع ابتلاء كما عبّرَ الإمامُ الشافعي رحمه الله في رسالته الأصولية الفريدة ؛حيث قال (ومنه أي من أنواع البيان: مافرضَ الله على خلقه الاجتهادَ في طلبه، وابتلى طاعتهَم في الاجتهاد، كما ابتلى طاعتهَم في غيره ممَّا فرضَ عليهم)[١٩]

والنظر والفتيا في المسائل المنصوصُ على حكمها من جهة الأدلة من كتابٍ وسنة والتي بينها الفقهاءُ في كتبهم ؛درجةٌ من العلم ولكنها غير درجة ومنزلة الاجتهاد ؛فالذي نعني هو القدرة على استنباط الأحكام من النصوص فيما لم يرد فيه نص من خلال المنهج الأصولي الذي قرره علماء أصول الفقه.

هذا القدر العالي من العلم لايسوغُ بل ولا يجوز أن يكون مرسلاً من الشروط والقيود والموانع!

حيث إن مرتبة الاجتهاد والمجتهد عظيمة ورفيعة ؛فالاجتهادُ بيانٌ لحكم الله تعالى وقولٌ على الشرع بعلم وهو المفترض والمتعين والمجتهدُ مبلغٌ عن الله وارثٌ لإرث النبوة؛ وهو كما عبّر الإمام الشاطبي رحمه الله (قائمٌ في الأمة مقام النبي ﷺ بجملة أمورٍ منها: الوراثة في علم الشريعة بوجهٍ عام،ومنها إبلاغها للناس،وتعليمها للجاهل.....)[٢٠]

ولهذه المكانة وذلك الأثر البالغ فقد عُني العلماء من أصوليين وفقهاء بضبط مسائل الاجتهاد من حيث ما يسوغُ فيه الاجتهاد كما سيأتي ومن حيث منْ يكون مؤهلاً للتصدي لهذه المرتبة العظيمة.

والشروط التي ذكرها الأصوليون في «باب الاجتهاد» واللازمة للتأهيل لرتبة الاجتهاد أو الإفتاء؛ هي في حقيقتها شروط المجتهد المطلق؛الذي يُفتي في جميع مسائل الفقه ونوازله؛ وهذه لاتشترط جميعها في حق كلِّ ناظر في مسائل الفقه وإلا تعذّر النظر في المسائل الفقهية!

يقول الإمام الغزالي رحمه الله بعد عرضه للعلوم الواجب توفرها (اجتماع هذه العلوم الثمانية ؛إنما يُشترطُ في حقّ المُجتهدِ المُطلق الذي يُفتي في جميع الشرع)[٢١]

ولكن المجتهد أو الناظر في مسألة جزئية من مسائل الفقه لبحثها وتلمس حكم الشرع فيها؛ لايحتاج لجميع تلك الشروط مجتمعة ؛بل يكفيه في ظني أن يعرف المنهج الأصولي الصحيح في كيفية الاستنباط وأن تكون لديه القدرة العلمية على ذلك؛ مع إلمامه بقدر جيد من مسائل الفقه والحديث. وهو ما اصطلح الأصوليون على تسميته بالاجتهاد الجزئـي؛ ومما نبّه إليه الإمام الغزالي في هذا السياق؛ دقيقةٌ جميلة هي قوله: (وليس من شرط المفتي أن يُجيب عن كل مسألة، فقد سُئل مالك رحمه الله عن أربعين مسألة؛ فقال في ستٍ وثلاثين منها، لا أدري، وكم توقّف الشافعي رحمه الله؛ بل الصحابة ،في المسائل، فإذاً لا يشترط إلا أن يكون على بصيرةٍ فيما يفتي، فيفتي فيما يدري ويدري أنه يدري، ويميّز بين ما لا يدري وبين ما يدري، فيتوقفُ فيما لا يدري ويُفتي فيما يدري)[٢٢]

المبحث الثالث: وفيه مطلبان:

المطلب الأول:
منهجية النظر في النوازل (لمن كانت لديه القدرة)وفيه مسائل :

أولاً: معرفة طبيعة المسالة

ثانياً: تحقيق مناط المسألة وتصويرها

ثالثاً: الرد إلى الأدلة والقواعد الشرعية المتفق عليها

أولاً: معرفة نوع المسألة:

لابد قبل الخوض في بحث مسألة ما من مسائل العلم ؛معرفة ما إذا كانت هذه المسألة مما يسوغ فيه الاجتهاد أم لا؟ فالذي يسوغ فيه الاجتهاد كما بيَّنَ أهلُ العلم هي المسائل التي لم يرد من الشارع نصٌ صحيح صريح من حيث الثبوت والدلالة أو كانت محل إجماع؛ أما ماعدا ذلك من المسائل التي تكون أدلتها ظنية الدلالة أو كانت من قبيل النوازل الحادثة فهي مما يقبل بل قد يتعين بحثُها والنظرُ فيها.

قال الإمام الزركشي رحمه الله (المُجتهدُ فيه: هو كل حكمٍ شرعي عملي أو علمي يُقصدُ به العلم ليس فيه دليل قطعي)[٢٣]

ومما ينبغي لطالب العلم وكذلك الأئمة عدم الخوض في ما لم يقع من المسائل ولم تستدع الحاجة الحديث عنه والخوضَ فيه ؛ولهذا الأمر شواهده الكثيرة من كلام السلف رحمهم الله؛ ومنه ما روي عن ابن عمر رضي الله عنهما قوله لسائل (لا تسأل عما لم يكن فإني سمعتُ عمرَ بن الخطاب رضي الله عنه يلعن من سأل عما لم يكن)[٢٤]

وهذا المنهج في السؤال أعني ترك مالا حاجة إليه هو سمة من سمات منهج الصحابة رضوان الله عليهم؛ وقال فيهم ابن عباسٍ رضي الله عنه (ما رأيتُ قوماً كانوا خيراً من أصحاب النبي ﷺ ؛ وماسألوا إلا عن ثلاث عشرة مسألة حتى قُبض؛ كُلهُنّ في القرآن، وما كانوا يسألون إلا عما ينفعهم)[٢٥]

ومما نهي عنه كذلك أشغال الذهن والوقت في بحث المسائل التي تُثار بين الحين والآخر للمراء والجدل أو التعالم أو للتشكيك والبلبلة أو تلك المسائل التي تُلقى ليُحرج بها أهلُ العلم بغرض تغليطهم أو الحطِّ من أقدارهم؛ قال الإمام الخطابي رحمه الله (نُهي أن يُعترض العلماءُ بصعاب المسائل التي يكثُرُ فيها الغلط ليُستزلوا بها أو يستسقطُ رأيهم فيها..)[٢٦]

لذلك ينبغي على الأئمة وفقهم الله قبل الخوض أو إثارة أو تبني قضيةٍ ما؛ التأكد من هذه الأمور ومعرفة طبيعة المسألة مدار الحديث والبحث والتأكد كذلك من مآلات الحديث فيها على أفهام الناس ومدى استيعابهم لها؛ وقدر المصلحة المترتبة على ذلك.

ثانياً: معرفة مناط المسألة وتحقيقه :

فقه النوازل نوعٌ دقيقٌ من العلم، لأن الناظر فيه ناظرٌ في مسائل لم يتطرق إليها العلماء من قبل؛ وليس بين يديه من النصوص الخاصة ما يعينه على الجزم أو الاطمئنان أن حكم الشرع هو هذا!

وبعض أو كثير من هذه المسائل الحادثة له تعلقٌ كبير بمسائل وعوارض أخرى قد تكون طبية أو تقنية أو اقتصاديه؛ فالمسألة قد تكون مركبة وهو الغالب من أكثر من جهة كل جهة تحتاج إلى نظر وفهم وسؤال لأهل الاختصاص حتى يتحرر مناطُ المسألة تحريراً صحيحاً ويكون التصورُ سليماً وعليه فإن الحكم يكون أقربَ للصواب بتوفيق الله تعالى .

وقد نبّه العلماء المحققون إلى هذا القدر المهم؛ يقول الإمامُ ابن القيمُ رحمه الله تعالى(ولا يتمكن المفتي ولا الحاكم من الفتوى والحكم بالحق إلا بنوعين من الفهم:

أحدهما: فهمُ الواقع والفقه فيه

الثاني: فهمُ الواجب في الواقع ؛وهو فهم حكم الله الذي حكم به في كتابه أو على لسان رسوله)[٢٧]

لذلك فإن من أكبر أسباب الزلل في الفتوى في النوازل هو القصور في فهم المسألة وتصورها التصور الصحيح.

لذلك ينبغي على طالب العلم والإمام قبل الحديث في مسألة أن يجتهد في تصورها التصور الصحيح أولاً؛ فان كان لها تعلق بالأمور الاجتماعية أو النفسية أو الطبية أو الفكرية فإنه يحاول فهمها عن طريق سؤال أهل الاختصاص أو الاطلاع على ما كتبوه في ذلك. ثم بعد ذلك ينظر في قواعد الشرع وأدلته.

ثالثاً: الرد للأصول والقواعد الشرعية:

إن المقدمات الصحيحة تؤدي في الغالب إلى نتائج صحيحة؛ ومن أهم المقدمات مقدمتان:

التصور الصحيح للمسألة مدار البحث والنظر من خلال (تحرير وتنقيح مناط المسألة) وهو ما أشرتُ إليه سابقاً بعد ذلك يأتي التكييف الفقهي الصحيح للمسالة بمعنى: معرفة أي الأصول والقواعد يعدُ منطلقاً صحيحاً لمناقشة المسألة من خلاله وردُ الفرع إليه. ومن الممكن تعريف التكييف الفقهي بأنه:(التصور الكامل للواقعة وتحرير الأصل الذي تنتمي إليه)[٢٨]

ومن أهم ضوابط هذا التكييف هو: الردُ إلى أصلٍ صحيح معتبر.

ومكمن الخطأ يعودُ إلى أمرين أحدهما: الردُ إلى أصل غير معتبر أصلاً، كأهواء الناس أو حاجة المجتمع المجردة عن النظر الشرعي أو لمصلحة ولكنها ملغاة!

وثانيها: الردُ إلى أصلٍ معتبر شرعاً؛ ولكنه ليس هو الأصل الصحيح المناسبُ لهذه المسألة !!

وهنا أنقلُ كلاماً رائقاً ورائعاً لإمام الحرمين الجُويني رحمه الله وهو يؤكد على أهمية التصوير والتحرير؛ حيث يقول:(لا يستقل بنقل مسائل الفقه من يعتمد الحفظ، ولا يرجع إلى كَيس وفطنةٍ وفقه طبع، فإن تصويرَ مسائلها أولاً ،وإيراد صورها على وجوهها لا يقومُ به إلا فقيه، ثم نقل المذاهب بعد استتمام التصوير لا يتأتى إلا من مرموقٍ في الفقه خبير، فلا ينزلُ نقل مسائل الفقه منزلة نقل الأخبار والأقاصيص والآثار، وإن فُرِضَ النقلُ في الجليات من واثق بحفظهِ موثوقٌ في أمانته لم يُمكن فرض نقل الخفيات من غير استقلالٍ بالدراية)[٢٩]

وطرائق ومظان تعرف المجتهد أو طالب العلم على أحكام النوازل المعاصرة ؛من مسائل العلم المهمة والتي بيّنها أهلُ العلم بياناً شافياً، ومن الممكن تلخيصها فيما يلي:

١- ردُ المسألة أولاً للأدلة الشرعية

٢- الرد للقواعد والضوابط الفقهية

٣- التعرف على حكم المسألة بطريق التخريج الفقهي

٤- التعرف على حكم المسألة بالردِ إلى مقاصد الشريعة

وهذه الطرق الاجتهادية مرتبةٌ في أهميتها من حيث الأولوية في ردِّ أحكام النوزال إليها، فالبدءُ المتفقُ عليه يكونُ بنصوص الشرع ودلالته المختلفة على الأحكام مع اعتبار الأدلةِ والقواعد الأصولية الأخرى التي يجمعُها مسمى الأدلة الشرعية ،وينتقل الناظر بعدها إلى القواعد الفقهية، فإن لم يجد مظان الحكم بها خرّجَ النازلةَعلى أقوال الأئمة وفروع المذهب، ويأتي الردُ للمقاصد الشرعية في آخر المطاف من البحث لأنها في حقيقتها كليات للأدلةِ الشرعية الجزئية، التي ينبغي الردُ إليها أولاً، ومقاصد الشريعة أصلٌ عظيم ينبغي على المفتي والمجتهد وطالب العلم والإمام أن يقدره حق قدره ويستحضره جيداً في كل مرحلة من مراحل الاجتهاد، لاسيما تلك المقاصد الضرورية التي جاءت الشريعة برعايتها(الدين والنفس والعقل والعرض والمال) فكلُ حكمٍ أو توجه أو قول يؤدي إلى خللٍ بأحد هذه الكليات فهو مطرحٌ لا عبرة به ؛وكلُّ حكم أو قول يؤدي لرعايتها وصونها فهو في الجملة مقبول ومندوب وأول ما تردُ إليه المسألة من الأدلة (الأدلة الشرعية المتفق على حجيتها) وهي: الكتاب والسنة والإجماع والقياس؛ وعلى هذا جاءت النصوص وتواترت؛ ومنها قولُه تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي

﴿ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ (النساء ٥٩).

بعد ذلك تأتي الأدلة أو القواعد الأخرى المختلف في حجيتها أو حجية بعض أنواعها ؛وذلك مثل :قول الصحابي والاستحسان والعرف والمصلحة المرسلة والاستصحاب ..إلخ مما هو مبيّن في كتب الأصول[٣٠]

إن إمامَ المسجدِ وبحكم موقعهِ من الناس ونظرتهم إليه وأثر كلامه وتوجهاته عليهم؛ لاسيما إذا كان ذا علم وبصيرة وله في نفوسهم محبة وتقدير وكان من الحريصين على توجيه الناس ومتابعة ما قد يطرأ على حياتهم ويستحوذُ على تفكيرهم، إذا كان الإمامُ كذلك فإن الناسَ ينتظرون منه الحديثَ في مسائل من الأمور الحادثة التي تجدُ اهتماماً منهم؛ أو قد يطرأ عليه سؤال أو تُثار قضية ما من أحد المصلين سواء في المسجد أو خارجه، فإذا كان الجوابُ حاضراً مقنعاً صحيحاً بأدلته فبلا شك أن أثر هذا الأمر عظيمٌ جداً ومحمود، وذلك لأسباب كثيرةٍ منها:

١- قد تكون هذه النازلة مسألة فكرية أو مالية تشغل بال المصلين وقد يكون لها آثار سلبية إن لم يجدوا فيها التوجيه السليم؛ وهنا فإن درايةَ الإمام وعلمَه مُعينان على دلالة الناس على الرأي الشرعي الصحيح والمتوازن، وفي هذا إنقاذٌ لهم مَن الواقع في الخطأ والزلل.

٢- عندما يكونُ الإمامُ على دراية بما قد يطرأ من القضايا المهمة والملمة العامة؛ وتكون لديه القدرة على تلمس الرأي الصحيح فيها؛ فإنه يكون أكثر إقناعاً وقبولاً عند المصلين ؛وتجدهم لا يحيدون عنه ويلجأون إليه في ما قد يطرأ عليهم من إشكالات شرعية أو فكرية، وهذا أمرٌ مهمٌ حتى لا يتوجه الناس إلى من يفتيهم بغير علم وما أكثرهم اليوم أو يتبنون أفكاراً أو سلوكيات خاطئة فيضلون ويُضلون!

٣- في هذا تفعيل لدور الإمام وإعادة الأهمية والأثـر لدور المسجد ومكانته التي ينبغي أن يكون عليها.

وهنا ثمة آداب وقواعد يحسنُ بالإمام وفقه الله أن يأخذَ بها؛ وهي قواعد رسمها أهلُ العلم والدراية تتُخذُ منهجاً يعُينُ الإمامَ على الخوض في مثل هذه المسائل الحاثة والإشكالات الطارئة، والله الموفق والمُعين :

أولاً: التريث وعدم العجلة وسؤال أهل الاختصاص:

ينبغي على الإمام قبل الخوض في مسألة من هذا النوع، أن يتأكدَ أولاً من وقوعها وأهميتها وهذا فرعٌ عن (التصور الصحيح الذي سبقت الإشارة إليه) فكم من قضية تُثار وأصلها شائعة أو وهم، فلا يحسنُ بالإمام أن يُستدرج لمثل هذا كما يستدرج العوامُ والجهلةُ من الناس .

ومن جهةٍ أخرى قد يكون لهذه القضية أو تلك حيثيات أخرى مهمة ومؤثرة في التصور ومن ثمّ في الحكم؛ فيؤدي الاستعجال إلى الخطأ والزلل لا محالة !

وقد جاء عن النبي ﷺ ما يدعو للتثبت والتحري؛ ومنه قوله: «من أفتى بفتيا غير ثبت ،فإنما إثمهُ على من أفتاه»[٣١]

وهنا يأتي سؤال مهم: هل يجبُ على الإمام أن يجيبَ عن كل سؤال ؟ مهما كانت أهميته من عدمها أو واقعيته من عدمها ؟ والجواب: لا؛ لا يجب عليه ذلك، إما لعدم العلم أو لعدم أهمية السؤال !

ويروى عن ابن مسعود رضي الله عنه قولُهُ :«من أجاب الناس في كل ما يسألونه فهو مجنون»[٣٢]

بل أُثِرَ عن أئمةِ العلم والهدى وأوعيته الكبار؛ في التثريث والروية الشئ العظيم، ومنهم الإمام مالك بن أنس رحمه الله، حيث قال (إني لأفكر في مسألةٍ منذ بضع عشرة سنة، فما اتفق لي فيها رأي إلى الآن)[٣٣]

ثانياً :سؤال أهل الاختصاص:

من المهم جداً إذا عُرِضَ على الإمام سؤال حارَ في جوابه لاسيما إذا كان من المسائل الحادثة؛ أن يطلبَ المشورةَ والرأي عند أهل الاختصاص والذكر؛ اتباعاً لقول الله ﴿ فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (النحل٤٣).

وأهلُ الذكرِ وبحسب طبيعة المسألة قد يكونون العلماء الشرعيون وقد يكونون من أهل الاختصاص في مجالٍ ما له علاقة بطبيعة هذه النازلة؛ فإذا كانت المسألةُ أو القضيةُ لها جوانب تربوية نفسية فيحسن به أن يسأل ويستشير عدد من التربويين أو المختصين بالأمور النفسية، وهذا الأمر مهم جداً لاسيما مع أن أكثرَ ما يرد على الأئمة من مشاكل الناس له جانب تربوي أو نفسي، فإشراك هؤلاء في المشورة نافعٌ جداً للوصول للعلاج المناسب لهذه المشكلة أو تلك؛ إذا علمنا أنه قد جدّت في حياةِ الناس اليوم من المشاكل التربوية والنفسية ما لم يكن موجوداً من قبل !

وقل مثل ذلك في الإشكالات الاقتصادية والمالية وحتى في النوزال الفكرية وهي أشدها وطأةً وأخطرها شأناً؛ لأن النوزالَ الفكريةِ يتسمُ أكثرُها بالضبابية وعدم وضوح الرؤية مما يعسرُ معه حصول التصور الصحيح؛ فيتعيَّن فيها مع التريث إنزالها بمن لديه القدرة العلمية أو يكون من المشتغلين بهذه القضايا الفكرية من مؤسسات أو علماء راسخين .

ولهذا كلّه أصلٌ شرعي عظيم وهو فعلُ النبي ﷺ المنطلق من توجيه القرآن الكريم في قوله تعالى «وشاورهم في الأمر» وقد كان الرسولُ العظيمُ صلوات الله وسلامه عليه وهو المعصومُ والمُوحى إليه يجمعُ أهلَ الاختصاص والمشورة فيستشيرهم .

ثالثاً: التنزيل الصحيح للواقعة:

بعد استفراغ الإمام وسعه في تلمس حكم النازلة إن كان مستطيعاً بنفسه ومؤهلاً لذلك بحسب المنهج الذي أشرنا إليه سابقاً، أو بعد تريثه وسؤال أهل الذكر المعروفين والراسخين، وبعد تقرير الحكم الشرعي لابد وأن ينزل الحكم الشرعي في مناطه ومكانه الصحيح، وهذا قدرٌ من الفَهم والعلم دقيقٌ ومؤثر!

وعدمَ التريث فيه وعدم الفهم الصحيح للواقع والوقعة يؤديان في الغالب إلى خطأ في التطبيق والحكم على الأشياء والأشخاص.

ولهذا أصلٌ عظيم في سنةِ النبي المصطفى ﷺ؛ ومن نماذج هذا التطبيق؛ الحديث الوارد في لعن شارب الخمر وهو حديثٌ صحيح؛ والحكم الناتج عنه والمستنبط منه هو (مشروعية لعن شارب الخمر وأنه ملعون) ولكن تنزيل هذا «الحكم الشرعي» على «واقعةٍ ما» أو «شخصٍ ما» يحتاجُ إلى نظرٍ آخـر! وهو صلاحية هذا المناط أو الواقعة لتنزيل الحكم عليها، أو بمعنىً آخر وجود شروط تطبيق الحكم وانتفاء موانعه!

ففي حديثٍ آخر جيء برجل للنبي ﷺ وقد شرِب الخمر؛ فقال أحدُ الصحابة رضوان الله عليهم جميعاً «اللهم العنه؛ ما أكثر ما يُؤتى به!» فقال النبي الكريمُ ﷺ (لا تلعنوه فإنه يحبُ اللهَ ورسولهَ)[٣٤]! فهذ..... ؟

لذلك تجد كثيراً مع الأسف من طلبة العلم والأئمة يسمع حكماً أو يبحث حتى يصل إليه؛ ثم يُبادر في تنزيله على واقعةٍ بعينها أو شخص أو جماعة معينة دون النظر لظروف هذه الواقعةِ وما قد يطرأُ عليها من عوارضٍ قد تكون مانعاً من ترتب الحكم على الواقعة!

إن عملية تنزيل مثل هذه النصوص على الواقع مسألة دقيقة، تحتاج إلى تتبع للنصوص والنظر في ثبوتها ومعانيها وسبر ما فيها؛ إضافة إلى معرفة بالواقع ومقارنة بين الوارد في هذه النصوص وطبيعة الواقع، ولابد من التأني وعدم العجلة قال رسول الله ﷺ: (التأني من الله والعجلة من الشيطان)[٣٥] وبيّن ﷺ أن الأناة والتؤدة محبوبة للرب جل وعلا، فقد قال مخاطبا أشج عبدالقيس: (يا أشج، إن فيك خصلتين يحبهما الله الحلم والأناة)[٣٦] وفي رواية لابن ماجه: (الحلم والتؤدة)[٣٧]

فالواقع أحيانا وبمؤثراته المختلفة ؛قد يستفز الإنسان لإصدارِ حكمٍ قبل أن تتكاملَ صورة الواقعة أو يتكامل تصور النص، أو تستكمل ضوابط التنزيل الصحيح.

وقد يكون للهوى نصيب وحظ في استعجال إطلاق الأحكام من أجل تحقيق نوع من المجد للذات، أو شهرة، بإيجاد نوع من (السبق الصحفي) يسبق به الشخص غيره في تنزيل شيء من

الأحاديث على الواقع ليكون مصدراً عند العوام وعند من لا يفقه فإذا حققت أحكامه عند العلماء تبين التبر من التبن، فليس كل سوداء تمرة ولا كل بيضاء شحمة. والموفق من ثبته الله على الحق ولم يتجاوب مع استفزاز الشيطان، قال الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى: (تحت قوله: «يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة» كنز عظيم، من وفق لمظنته وأحسن استخراجه واقتناءه وأنفق منه فقد غنم، ومن حرمه فقد حرم، وذلك أن العبد لا يستغني عن تثبيت الله له طرفة عين فإن لم يثبته وإلا زالت سماء إيمانه وأرضه عن مكانهما)[٣٨]

المبحث الرابع:
تعامل الإمام والخطيب مع قضايا العصر:

طالبُ العلم وكذا إمام المسجد والخطيب؛ يعيشون مع الناس؛ يخالطونهم ويغشون مجالسهم ويحضرون مناسباتهم ويسمعون عنهم ومنهم، ويشاركونهم همومهم واهتماماتهم، أو هكذا ينبغي أن يكونوا !

والعلمُ بما يدورُ ويثارُ من أحداثٍ وقضايا تستحوذعلى اهتمامات الناس ولها أثرُها على أفكارهم أو معاملاتهم؛ من الأهمية بمكان؛ حتى يكون الإمامُ مواكباً لهموم المصلين وتطلعاتهم ؛وحتى يجدون عنده المفزعَ بعد الله للتعرف على الرأي السديد والتوجيه القويم .

والإنسان العادي اليوم ليس كغيره بالأمس؛ فقبل عددٍ من العقود كانت القضايا التي تستحوذ على تفكير الناس قليلة محدودة ؛وكثيرٌ منها معتاد لا جديد فيه .

أما في هذا العصر الذي نعيشه فقد تعددت قنوات التلقي وتنوعت؛ وأصبح الشخص العادي وهو في بيتهِ يستمعُ ويتأثر بما يحدث في العالم كله لحظةً بلحظة .

ومع المتغيرات والأحداث المتلاحقة التي يشهدها العالم؛ فكرياً واقتصادياً وسياسياً؛ تولّدّ عن ذلك كثيرٌ من الإشكالات والقضايا، ومع انفتاح العالم كلّه على التقنية الحديثة وعلى أنواعٍ كثيرة من العلوم لم تكن معروفةً من قبل؛ ومحاولة الاستفادة منها دون ضوابط من شرعٍ أو خُلُقٍ قويم ! آل هذا إلى حدوث كثير من المشاكل التي تعاني منها المجتمعات اليوم !!

لذلك ينبغي للإمام أن يكون حاضر الذهن حاضر المعلومة قدر الإمكان مطلعاً على ما يستطيع الإطلاع عليه من هذه القضايا، ولكن وفق منهجية سنتحدثُ عنها لاحقاً .

أولاً: طرق الإطلاع على القضايا المعاصرة:

كما ذكرتُ سابقاً فإن مواكبة الإمام لاسيما خطيب الجمعة قدر الإمكان لما يدور ويُثار بين الناس من قضايا معاصرة، وهناك عددٌ من الوسائل معينة للإطلاع على مثل هذه القضايا؛ ومنها:

١- الاهتمام بما يطرحهُ الإعلام المقروء والمُشاهد من قضايا وإشكالات، فمن المستحسن بل والمفيد جداً أن يكون لدى الإمام نوعُ إطلاع يومي تقريباً لما ينشر في الصحف مثلاً من أخبار أو لما يطرحهُ الكتابُ من أفكار، حتى وبعد تأمل واستقراء إذا ظهر له من جملة الأخبار والأفكار المطروحة أن ثمةَ ظاهرة أو قضية ظهرت أو بدأت تظهر في المجتمع فيبدأ برصدها .

٢- الاطلاع قدر الإمكان على بعض المواقع العنكبوتية الجادة والجيدة، والتي تطرح عدد من

قضايا المجتمع المثارة والتي بدأت تؤثر في اهتمامات الناس ويدور حولها نقاش جاد في بعض المنتديات يمكن الإفادة منه .

٣- الجلوسُ مع أهلِ الرأي والعلمِ والثقافةِ الواسعة قدْر الإمكان الإفادة من آرائهم ومتابعاتهم للقضايا المعاصرة .

ثانياً: منهجية الحديث في القضايا المعاصرة :

الحديث في القضايا المعاصرة من قبل الأئمة والخطباء؛ ومع أهميته التي أشرت إليها سابقاً، إلى أنه ليس على إطلاقه، وليس لكل أحدٍ حتى من الأئمة والخطباء!

بل لابد من مقدمات ومنهجية منضبطة لمناقشة مثل هذا النوع من القضايا المعاصرة ومنها:

١- كما مرّ سابقاً لابد من التريث وعدم العجلة ،حتى تتمحض القضية ويظهر صدقها من عدمه ووقوعها من غيره وكذلك حتى تظهر أهميتها وأثرُها .

٢- ليس بالضرورة أن يتحدث الإمام والخطيب في كل قضية معاصرة يُثيرها الناس، فالأصل في حديث الإمام مع المصلين هو حديثُه في مسائل الشرع ووعظهم وتذكيرهم بالله وبكتابه وبسنة رسوله ﷺ والاجتهاد في حمل الناس عليها؛ وتعليمهم أحكام الشرع، وإحياء ما اندثر من سنن والتحذير مما أحيي من بدع !

ولا ينبغي أن يطغى الحديث في قضايا العصر الفكرية أو السياسية على هذا الأصل؛ فإنا نجد أن بعض الخطباء سيما في خارج هذه البلاد يُغرقُ الناس في أحاديث كثيرة ومتنوعة وفضفاضة وليس في شئ منها حديث عن سنةٍ مندثرة أو بدعة منتشرة أو حكم غائب أو وعظٍ مؤثر !

٣- إذا استقرت هذه القضية المعاصرة أو تلك ورأى الإمامُ أو الخطيبُ ضرورة او حاجة أن يُحدِّثَ الناسَ عنها؛ فلابد من إجراء الخطوات التي أشرنا إليها سابقاً، من جهة الاجتهاد في تصور القضية تصوراً صحيحاً باتخاذ الطرق التي أشرنا إليها في المبحث السابق .

وذلك من أجل أن لا يتحدث في قضيةٍ وهو لا يعي أبعادها وقد يُخالف ما استقر عليه رأي جمهور أهل العلم في هذه القضية أو المختصين فيها إذا كانت نفسية أو تربوية أو طبية مثلاً!

٤- ليس كل قضية تصح من جهة الوقوع والأهمية يجبُ على الخطيب أن يُحدِّثَ الناس عنها؛ فهناك مقدمات لابد من مراعاتها؛ وقد أشارت وأومأت إلى ذلك النصوص وذكرها أهلُ العلم في توجيهاتهم للطلاب والخطباء والمتحدثين، ونبّه الإمام الأصولي أبو إسحاق الشاطبي رحمه الله إلى ضابط هذا المعنى فقال في كلام دقيق (وضابطهُ أنك تعرضُ مسألتك على الشريعة؛ فإن صحت في ميزانها؛ فانظر في مآلها بالنسبةِ إلى حال الزمان وأهله، فإن لم يؤد

ذكرها إلى مفسدة؛ فاعرضها في ذهنك على العقول ،فإن قبلتها وهذا محل الشاهد فلك أن تتكلم فيها إما على العموم إن كانت مما تقبلها العقول على العموم،وإما على الخصوص إن كانت غير لائقة بالعموم، وإن لم يكن لمسألتك هذا المساغ؛ فالسكوتُ عنها هو الجاري على وفق المصلحة الشرعيةِ والعقلية) (٣٩)

قلتُ: ماذكره الشاطبي مراتب مهمة لابد من مراعاتها حتى يؤتي الكلامُ أُكلَهُ ويكون نافعاً محمود الغِب بإذن الله .

المبحث الخامس:
فقه الموازنـة وأثـره

أولاً: المقصود بفقه الموازنة وشواهده:

الفقه هو «الفهم» والمقصود به في باب العلم الشرعي الفهم عن الله تعالى.

ومن جهة الاصطلاح العلمي: ففيه معنى الاستنباط والاجتهاد؛ لذلك قالوا في تعريفه: (العلم بالأحكام الشرعية العملية المستنبط من أدلته التفصيلية)[٤٠]

وقد يضاف الفقه أحياناً لوصف آخر من باب تقييده بباب معين من أبواب الفقه والعلم؛ ولا مشاحة في ذلك؛ فيقال فقه النوازل كم مرسابقاً أو فقه المصالح أو فقه الموازنة.

والفكرةُ في هذا النوع من الفقه (فقه الموازنة) أن الأصلَ في الأحوال والظروف العادية أن المسلم مأمورٌ بتحصيل المصالح كلها وترك المفاسد كلها، ولكن قد يطرأ على الإنسان ظروفٌ وأحوال تمنعه أو تعيقهُ عن القيام بتحقيق نوع من المصالح إلا بتركه لأخرى أو بارتكابه مفسدة، أو تزدحم أمام المجتهد أو طالب العلم أو الإمام في مسألة ما؛ قد تكون فقهية أو اجتماعية أو اقتصادية قد تزدحم أمامه المصالح والمفاسد وتتعارض فيما بينها فيحارُ أيها يُقدِّمُ وأيها يُؤخر؟

عندها لابد من منهجية منضبطة تُنيرُ للفقيه أو طالب العلم أو المكلف العادي السبيل الأمثل والخيار الأفضل؛ ليميز بين المصالح ودرجاتها وأنواعها وبين المفاسد وأضرارها فيقدم ماحقه التقديم ويؤخر ما حقه التأخير.

وفقه الموازنات أو الأولويات معلمٌ عظيم من معالم هذه الشريعة المباركة التي أتمّ الله علينا بها نعمته؛ وهو علمٌ دقيق المأخذ عظيم الفائدة؛ ثابتٌ أصله في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وكان هذا النوع من الفقه رائد الصحابةِ وعلماء الأمة فما كان أحدهم يُفتي إلا وهو يوازن بين المصالح والمفاسد؛ والقصد من ذلك هو: تحقيق مقصود الشارع.

ومن الممكن أن نقول أن المقصود بفقهِ النوازل (الموازنة)هو: ترتيبُ الأولويات بين المصالح المتعارضة فيما بينها أوالمفاسد المتعارضة مع المصالح أو فيما بينها.

وهذا المبدأ الشرعي مبدأ الموازنة له أدلته المبثوثة في الكتاب والسنة، وليس منبتاً عن نصوص الشارع وقواعده، ولم يكن مجرد فلسفة عقلية محضة بل هو نتاج بحثٍ واستقراءٍ تامٍ لنصوص الوحي وفهم دقيقٍ لمقاصدِ الشارعِ وقواعده الكُلية.

ومن أدلته في كتاب الله: قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا﴾ (البقرة٢١٩).

فالمنفعةُ الناجمة عن المتاجرة أو شرب الخمر مغمورة في تلك المفاسد العظيمة التي من أجلها حرّم اللهث الخمر !

فعند الموازنة بين الأمرين نجدُ أن المفسدةَ هنا أعظم فيتعينُ دفعها .

ومن ذلك قصة نبي الله موسى عليه السلام مع العبد الصالح في سورة الكهف؛ ففيها الكثير من هذا الفقه .

أما في السنة فأدلة هذا الفقه كثيرة أيضا ومنها :

حديث البخاري وفيه: أن أبا هريرة قال قام أعرابي فبال في المسجد فتناوله الناس فقال لهم النبي ﷺ (دعوه وهريقوا على بوله سجلا من ماء أو ذنوبا من ماء فإنما بعثتم ميسرين ولم تبعثوا معسرين)[٤١]

قال الإمام النووي رحمه الله في شرح مسلم؛في فقه هذا الحديث: (وفيه الرفق بالجاهل، وتعليمه ما يلزمه من غير تعنيف ولا إيذاء، إذا لم يأت بمخالفةٍ استخفافاً أو عناداً، وفيه دفع أعظم الضررين باحتمال أخفهما، لقوله ﷺ: دعوه ،وهذا لمصلحتين إحداهما أنه لو قطع عليه بوله تضرر ؛وأصل التنجيس قد حصل فكان احتمال زيادته أولى من إيقاع الضرر به، والثانية: أن التنجيس قد حصل في جزء يسير من المسجد فلو أقاموه في أثناء بوله لتنجست ثيابه وبدنه ومواضع كثيرة من المسجد)[٤٢]

والمثال الثاني: ما جاء في البخاري عن عائشة رضي الله عنها قالت: سألت النبي ﷺ عن الجدر أمن البيت هو؟ قال (نعم) . قلت فما لهم لم يدخلوه في البيت؟ قال (إن قومك قصرت بهم النفقة) . قلت فما شأن بابه مرتفعا؟ قال (فعل ذلك قومك ليدخلوا من شاؤوا ويمنعوا من شاؤوا ولولا أن قومك حديث عهدهم بالجاهلية فأخاف أن تنكر قلوبهم أن أدخل الجدر في البيت وأن ألصق بابه بالأرض)[٤٣]

والحديث ظاهرٌ في موازنة النبي الكريم بين المصلحة والمفسدة؛ مما دفعه لترك مارغب فيه وما كان يراه هو الأفضل وعدل إلى غيره خشية حصول مفسدة أكبر.

حتى أن الإمامَ البخاري بوّبَ لهذا الحديث وترجم له بـ: (باب من تركَ بعض الاختيار مخافة أن يقْصُرَ فهم بعض الناس عنه فيقعوا في أشدَّ منه)

قال الإمام ابن حجر معلقاً ومنبهاً :(وفي الحديث معنى ما ترجم له لأن قريشا كانت تعظم أمر الكعبة جدا فخشي ﷺ أن يظنوا لأجل قرب عهدهم بالإسلام أنه غير بناءها لينفرد بالفخر عليهم في ذلك ويستفاد منه ترك المصلحة لأمن الوقوع في المفسدة؛ ومنه ترك إنكار المنكر خشية الوقوع في أنكر منه وأن الإمامَ يسوس رعيته بما فيه إصلاحهم ولو كان مفضولا ما لم يكن محرما)[٤٤]

تلك الآيات البينات وهذه الشواهد والعظات كلها وغيرها كثير؛تحث العالم والإمام والخطيب للتنبه لمثل هذا النوع من الفقه وقدْرِه حق التقدير .

ومن أجل ذلك قرر العلماء وقعدوا واجتهدوا في ضبط منهج علمي لفقه الموازنات، وهذا المنهج الذي تجده مسطوراً ومبثوثاً في كتب أهل العلم يمثل: مجموعة الأسس والمعايير التي تضبطُ عملية الموازنة بين المصالح والمفاسد المتعارضه؛ ليتبين بذلك أي المصلحتين أرجح فتقدم على غيرها؛ وأي المفسدتين أعظم أثراً وخطراً فيُقدمُ درؤها.

وقد ذكر أهل العلم في منهجية التعامل مع فقه الموازنة معايير دقيقة ينظر فيها أساساً على إيجاد مرجح في إحدى المصلحتين يجعل كفتها تميل عند مقارنتها من حيث الأهمية والأثر واعتبار الشارع وغيره من موازين الترجيح على المصلحة المقابلة والمزاحمة، والحديث في هذه المعايير يطول وهو مبسوط في كتب أهل العلم ومن أبرز هذه المصنفات التي عُنيت بإبراز هذا النوع من الفقه ؛الإمام الجويني في كتابه الغياثي وسلطان العلماء العز ابن عبدالسلام في مصنفه الفريد «قواعد الأحكام في مصالح الآنام» وكذلك شيخُ الإسلام ابن تيمية في مصنفاته فقد ضرب في هذا الموضوع بسهم وافر وتبعه تلميذُه الإمام ابن القيم؛ حتى جاء الإمام أبو إسحاق الشاطبي في مصنفه العظيم «الموافقات» فأتى بالدر المصون والجوهر المكنون!

ثانياً: أثر هذا الفقه في رسالة الأئمة والخطباء:

العلم بهذا النوع من الفقه؛ واستحضارُ أصولهِ وقواعده من الأهمية بمكان بالنسبة للإمام والخطيب؛ وذلك لأن إمام المسجد يتحدث في الغالب في أمور ومسائل شرعية (عقدية أو فقهية) أو في مسائل تتعلق بقضايا الأسرة وإصلاح ذات البين بين المتنازعين أو في قضايا تربوية أو نوازل معاصرة، فهو في أمس الحاجة لهذا الفقه حتى يكون كلامه ورأيهُ وتصرفاته موزونة بميزان الشرع محققةً لأكبر قدر من المصالح لمسجده ولجماعته وللسائلين والمتنازعين؛ بعيدةً قدر الإمكان عن كل مفسدة في الحال والمآل وهذا في ظني أعني الاجتهاد في تحصيل أعلى درجات المصالح واجبٌ على الإمام لأن في ترك ذلك تفويت مصالح معتبرة على المسجد والمكلفين .

أمثلة في هذا الباب:

المثال الأول :

قد تطرأ للإمام في مسجده أمور بين المصلين أو منهم تقتضي التريث والتصرف بفقهٍ وحكمة

مثال ذلك: قد يكون لدى الإمام قناعة في حملِ المصلين على سنةٍ معينة من قبيل المندوب ولكن تطبيق هذا المندوب في جماعةِ مسجدٍ معين مع مافيه من مصلحة قد يصاحبه مفسدة

أخرى في كون هذه السنة غريبة على المصلين وفي حملهم عليها قد يحدث نفور منهم أو عزوف عن الصلاة في المسجد؛ فهنا ينبغي للإمام أن يراعي هذه الجوانب ويعرف أي الجهتين أغلب المصلحة أم المفسدة وهل هناك مفسدة متوقعة الحدوث فعلاً أم أنها متوهمة .

وله في سيدِ الأئمةِ وخيرِهم رسولِ اللهِ ﷺ أسوةٌ حسنة؛ فقد كان وكما مر سابقاً يوازنُ بين مصلحة فعل المندوب والمصلحة المترتبة على تركه فيقدم الأرجح منهما؛ كما ترك الخروج على الناس ليصلي بهم قيام الليل جماعة لما عارض هذه المصلحة المندوبة المعتبرة عارضٌ آخر وهو: خشية الافتراض أن تُفرض عليهم لاسيما وأن العصر عصر تشريع .

ومن تصرفات العلماء في هذا الباب وفقههم :

أنهم استحبوا للإمام إذا صلى بقوم وهم لايقنتون في الوتر وهو يرى أفضلية القنوت في الوتر؛ أن لا يوتر بهم تأليفاً لقلوبهم ودفعاً لمفسدة نفورهم أو ما قد يحدث من إشكالات .

ما ذكره شيخُ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في الفتاوى ؛حيث قال: (وقد استحب أحمد لمن صلى بقوم لا يقنتون بالوتر، وأرادوا من الإمام أن لا يقنت لتأليفهم ؛فقد استحب ترك الأفضل لتأليفهم؛ وهذا يوافق تعليل القاضي ،فيستحب الجهر بها البسملة إذا كان المأمومون يختارون الجهر لتأليفهم ...إلى أن قال: وهذا كلُّهُ يرجع إلى أصلٍ جامع وهو أن المفضول قد يصير فاضلاً لمصلحةٍ راجحة ..)[٤٥]

فمن يرى من الأئمة مندوبية وأفضلية اختيار عدد عشرين ركعة في صلاة التراويح في رمضان في مسجده ؛ويريد حمل المصلين على ذلك ؛لابد أن يزن هذا الأمر جيداً ويختار من الكيفيات ما يحقق مصلحة الاجتماع ودوام آداء العبادة؛ فيُخشى أن لا يقوى أكثر من في المسجد على ذلك فيتكاسلوا أو يضطروا للصلاة في مساجد أبعد مما قد يشق عليهم أو على بعضهم ! والمسألة كلها دائرة في باب «المندوب» وأي كيفيةٍ يختار الإمام من الكيفيات المعروفة له فيها أصلٌ وسَعة .

المثال الثاني:

الخطيبُ لابد أن يعتني باختيار المواضيع التي يتحدث عنها؛ وقد تطرأ بعض القضايا المعاصرة؛ وقد يرى أن المصلحةَ تقتضي الحديث عن هذا الموضوع أو ذاك ولكن قبل الحديث فيه وطرحه على أسماع شرائح مختلفة من الناس يضمهم هذا المسجد؛ لابد من مراعاة فقه الموازنة؛ فيتأكد هل من المصلحة طرح هذا الموضوع وهل هناك مصلحة أخرى أو مفسدة تعارض هذه المصلحة؟ من جهة عدم الاستيعاب لما يقال أوعدم الفهم الصحيح وماينتج عنه من خطأ وزلل في التطبيق !

وقد جاء في الأثر موقوفاً على أمير المؤمنين علي رضي الله عنه ما يُشبه هذا حيث قال «حدثوا الناس بما يعرفون أتحبون أن يكذب الله ورسوله»[٤٦]

قال ابن حجر (وفيه دليلٌ على أن المتشابه لا ينبغي أن يُذكرَ عند العامة)[٤٧]

مثالٌ ثالث:

لا يخلو مسجد في الغالب من حدوث بعض الإشكالات أو الخلاف حول بعض القضايا الشكلية أو التنظيمية في المسجد؛ مما يرى الإمام أنها داخلةٌ ضمن مسؤلياته المناطة بها؛ ويرى بعض المصلين غير ذلك! فمثل هذه الأمور إن كانت داخلةٌ في مجال المباحات ولم تكن مؤثرة على طبيعة العبادة أو كيفيتها ؛فهنا لابد للإمام أن يزن هذا الأمر بميزان المصلحة والمفسدة؛ فلعله يتنازل عن بعض ما يرى صحته تأليفاً للقلوب ودرءً لحدوث أمور أو خصومات لا ينبغي حدوثها في بيوت الله.

فقد ترك النبي الكريم وهو المعصوم وصاحب الرسالة وسيد الخلق التغيير الذي كان يريد إحداثه في أبواب الكعبة مع أن نفسه كانت تميل إليه خشية مفسدة أخى رجحت عنده على مصلحة التغيير التي كان يراها ﷺ .

مثال رابع:

من واجب الإمام الذي يعي دوره جيداً ويعرفُ للإمامةِ قدرها؛ أن يجتهدَ مع جماعة مسجده ويشاركهم همومهم ومشاكلهم؛ عند ذلك فلابد أن تُعرض عليه مشاكل أسرية واجتماعية وإصلاح ذات البين بين المتخاصمين؛ وكثير من هذه القضايا فيها مجال كبير للاجتهاد والاحتمالات وتعارض المصالح وتفاوت درجاتها واحتمال وقوع المفاسد باختلاف دركاتها، فعلمُ الإمام واطلاعه على فقه الموازنات هامٌ جداً في تقديم المشورة الصائبة النافعة في الحال والآمنة في المآل .

وعند غياب هذا الفقه فمن الممكن أن يشير الإمام في قضيةٍ ما إلى رأي معين قد يكون غيره أكمل مصلحة منه وبدرجات كثيرة! أو قد يعارض هذا الرأي مفسدة أرجح لم ينتبه لها!

مثالٌ خامس :

مما ابتليت به هذه الأمة تفرق بعضها إلى فرق وشيع؛ قديمة وحديثة؛ تعَرِفُ منها وتُنكر !

وهذه الشيع والأحزاب قد يستحسن إمامٌ أو خطيب أن يحدِّث الناس عنها للتحذير من ماقد يراه يخالف هدي النبي الكريم وشرعه القويم؛ وهنا: لابد أن يسير على ذلك المنهج النبوي المتوازن والذي تبعه فيه أئمة الهدى والعلم عندما كانوا يتحدثون عن هذه الفرق والأجزاب؛ فالنبي ﷺ ماكان يذكر أهل الباطل أو من تلبّس بشئ منه بأعيانهم أو قبائلهم ! بل كان يكتفي بذكر أقوالهم الباطله محذراً ومصححاً؛ فيقول (ما بالُ أقوام يقولون كذا وكذا ..) وهو بلا شك في منهجه هذا يوازن بين أمورٍ كثيرة ؛وينظر للأصلح والأنفع .

فمصلحة الستر والرفق بالمخالف لعله يعود ويرجع مصلحةٌ معتبرةٌ في الشريعة؛ وهي التي

كان يتوخاها النبي ﷺ ؛ وهو مافهمهُ العلماء المحققون من أدلة الشرع ونصوصه؛ قال الإمام الشاطبي(ولكن الغالبَ في هذه الفرق أن يُشارَ إلى أوصافهم ليحذر منها، ويبقى الأمر في تعيينهم مُرْجىً كما فهمنا من الشريعة، ولعل عدم تعيينهم هو الأولى الذي ينبغي أن يلتزم ليكون ستراً على الأمة..)[٤٨] ويقول في موضع آخر موضحاً بعض مفاسد مخالفة هذا النهج (ومن هذا يعلم أنه ليس كل ما يُعلم مما هو حق يُطلب نشره... ومن ذلك تعيين هذه الفرق؛فإنه وإن كان حقاً فقد يُثير فتنةً، كما تبيّن تقريره،فيكون من تلك الجهة ممنوعاً بثه)[٤٩]

معايير الترجيح بين المصالح والمفاسد:

ذكر أهلُ العلم جملةً من المعايير والضوابط التي تعين على الترجيح عند تعارض المصالح والمفاسد؛ والحديث فيها ليس هذا محله ؛وهو مبسوطٌ في كتب القوم؛ ولكن إن لم يصبْها وابلٌ فطل؛ فأشيرُ إلى شيء منها اختصاراً؛ ومن ذلك:

أن يبُدأ أولاً بمعيار الحكم الشرعي حيث يرجح أعلى المصلحتين حكماً على أدناهما؛ فيقدم الواجب على المندوب لأنه أعظم مصلحة ؛فإن تساوت المصلحتان المتعارضتان في رتبة الحكم فيُنظر إلى رتبة المصلحة لكل منهما؛ حيث يرجح أعلى المصلحتين رتبة على أدناهما ،فإن تساوت المصلحتان المتعارضتان في الرتبتين: الحكم والمصلحة ؛فينظر إلى نوع المصلحة حيث يرجح أعلاها نوعاً على أدناها ؛فإن تساويت المصلحتان في رتبة الحكم ورتبة المصلحة ونوعها فينظر إلى الترجيح بعموم المصلحة أو خصوصها؛ حيث يرجح أعم المصلحتين على أخصهما؛ فإن تساوت المصلحتان المتعارضتان في رتبة الحكم والمصلحة ونوعها وعمومها؛ فينظر إلى الترجيح بمقدار المصلحة حيث يرجح أكبرها قدراً على أدناها؛ فإن تساوت المصلحتان في ذلك فينظر إلى الإمتداد الزمني لكلتا المصلحتين فأيهما أطول زمناً من حيث النفع فتقدم على الأخرى؛ وقبل تلك المعايير لابد من النظر إلى مدى تحقق كلٌ منهما فأيهما كانت آكد تحققاً فتُقدّم على ما كان تحققها غير مؤكد؛ وإن تساوت المصلحتان المتعارضتان من كل وجه ؛فإن للملكف أن يختار واحدةً منهما ويُهدر الأخرى .

وهذه المعايير والضوابط تحتاج إلى تأمل وعلم وسؤال لأهل الذكر .

خاتمة

في نتائج البحث:

١- أن الإمامةَ مهمةٌ شرعيةٌ جليلةُ القدرِ بعيدةُ الأثر ؛والإمامُ في المجتمعِ المسلم شخصٌ له مكانته وتقديره؛ وهو محلُ قبولٍ وكلامه محل إنصات، وفعله وسلوكه محل مراقبةٍ وتقليد وتأسي، من أجل ذلك فإن العلم الشرعي بالنسبة له مهمٌ جداً؛ حتى يكون قوله ورأيه وسلوكه وإرشاده موافقاً للسنة ولهدي النبوة ومحققاً لأكبر قدرٍ من المصالح الشرعية.

٢- المقصودُ بفقه الواقع هو :«فهم أحوال الناس والوقائع المعاصرة والأحداث الجارية سواء كانت عامة أم خاصة بمعرفة حقيقتها وأسبابها وآثارها وحكمها في الشرع».

٣- شريعةُ الإسلام تمتاز بخصيصة الثبات والشمول؛ وهي بذلك قادرة على استيعاب متغيرات الزمان والمكان.

٤- فقه النوازل من أنوع الفقه الدقيقة التي تحتاج لمُكنةٍ علميةٍ قوية؛ ومن لم يكن لديه القدرة الذاتية فلابد من سؤال أهل الذكر وعدم العجلة.

٥- الحديث في القضايا المعاصرة يحتاج لضبط وتريث وتمييز ومعرفة بحال المدعويين.

٦- الأصلُ في حديث الإمام والخطيب في مسجده التذكير بالله وبأحكامه وبهدي النبي الكريم ﷺ

٧- فقه الموازنة فقهٌ له شواهدُه وأدلتُه من الكتاب والسنة وعمل السلف.

٨- فقه الموازنة له أهميته البالغة وأثره في سلامة تصرفات الإمام وأقواله وتوجيهاته.

التوصيات :

١- العناية بنشر العلم الشرعي لاسيما الفقه في أحكام الله في أوساط الأئمة والخطباء؛ وذلك بتكثيف إقامة الدورات الشرعية المُعدّة إعداداً جيدا.

٢- ضروة اهتمام الأئمة والخطباء بفقه المصالح أو الموازنات؛ من خلال القراءة في كتب أهل العلم وسؤال أهل الذكر المختصين

٣- عقد دورة متخصصة في (فقه الموازانات) لكبير فائدته.

هذا (وأسألُ الله المبتدئَ لنا بنعمةٍ قبلَ استحقاقها، المُديمها علينا، مع تقصيرنا في الإتيان على ما أوْجبَ به من شكره بها،الجاعلنا في خير أمة أخرجت للناس: أن يرزقنا فَهْماً في كتابه، ثم سنةَ نبيه، وقولاً وعملاً يُؤدَّى به عنَّا حقَّهُ، ويوجبُ لنا نافلة مزيده) وأصلي وأسلم على خير خلق الله سيدنا ونبينا محمد بن عبدالله وآله وصحبه أجمعين.

الهوامش

(١): البخاري،كتاب الآذان ؛باب: الآذان والإقامة بعرفة وجمع،حديث رقم(٦٣١)
(٢): المبسوط للسرخسي ٧٢/١
(٣): بدائع الصنائع للكاساني ١٥٧/١
(٤): الاستذكار لابن عبدالبر ٣٥٣/٢
(٥): إعلام الموقعين ١٣٦/١
(٦): الثبات والشمول في الشريعة ص١١٠
(٧): الرسالة ص٢٠
(٨): تفسير ابن سعدي ١٤٣/٢
(٩): مقاصد الشريعة ص٩٢،٩٣
(١٠): البحر المحيط ١٢٦/١
(١١): الموافقات ١٢١/٣
(١٢): إعلام الموقعين ٨١/١، الطرق الحكمية ص٤
(١٣): لسان العرب،مادة «وقع» (٣٦٩/١٥)
(١٤): فقه الواقع د.ناصر العمر (موقع علماء الشريعة)
(١٥): مقال في فقه الواقع د/مصطفى مخدوم (موقع علماء الشريعة)
(١٦): مختار الصحاح ص ٣٠٨
(١٧): أنظر: منهج استنباط احكام النوزال د.مسفر القحطاني ص٣٦، والمنهج في استنباط أحكام النوازل لوائل عبدالله ص١١،١٢
(١٨): مجموع الفتاوى ١٥٥/١٩
(١٩): الرسالة ص٢٢
(٢٠): الموافقات ٢٥٣/٥
(٢١): المستصفى ٣٨٩/٢
(٢٢): المرجع نفسه
(٢٣): البحر المحيط ٢٢٧/٦
(٢٤): جامع بيان العلم وفضله (١٠٦٧/٢)
(٢٥): سنن الدارمي،باب: كراهية الفتيا،حديث رقم ١٢٥
(٢٦): معالم السنن (١٧٢/٢)باب:ومن باب توقي الفتيا
(٢٧): إعلام الموقعين ٦٩/١
(٢٨): منهج استنباط أحكام النوازل ص٣١٦
(٢٩): الغياثي ص١٨٧
(٣٠): أنظر: شرح مختصر الروضة، البحر المحيط للزركشي، أصول الفقه لأبي زهرة
(٣١): مسند الإمام أحمد ٣٢١/١
(٣٢): جامع بيان العلم وفضله ١١٢٤/٢
(٣٣): ترتيب المدارك ١٧٨/١

(٣٤): البخاري ،كتاب الحدود ،حديث رقم ٦٧٨٠
(٣٥): سنن البيهقي الكبرى رقم ٢٠٠٥٧
(٣٦): مسـلم ،باب الأمر بالإيمان بالله ورسوله،حديث رقم ١٢٦
(٣٧): سنن ابن ماجه، باب الحكم ،رقم الحديث(٤١٨٨)،وصححها الشيخ الألباني ،انظر :صحيح الجامع رقم(٧٨٤٨)
(٣٨): إعلام الموقعين (١٧٦/١)
(٣٩): الموافقات ١٧٢/٥
(٤٠): نهاية السول للأسنوي (١٦/١)
(٤١): البخاري، كتاب الوضوء، باب: صب الماء على البول في المسجد؛رقم(٢٢٠)
(٤٢): شرح النووي على مسلم (١٩٤/٣)
(٤٣): البخاري ،كتاب العلم ،باب: من ترك بعض الاختيار،حديث رقم (١٢٦)
(٤٤): فتح الباري لابن حجر (٢٢٥/١)
(٤٥): مجموع الفتاوى (٣٤٤/٢٢)
(٤٦): البخاري ،كتاب العلم،باب: من خصَّ بالعلمِ قوماً،حديث رقم(١٢٧)
(٤٧): فتح الباري (٢٢٥/١)
(٤٨): الموافقات (١٥١/٥)
(٤٩): الموافقات (١٦٧/٥)

المراجع

١. الإبهاج في شرح المنهاج،لعلي بن عبدالكافي السبكي – الناشر: مكتبة الكليات الأزهرية،١٤٠١هـ
٢. الإحكام في أصول الأحكام،لسيف الدين الآمدي – ط. دار الفكر ،١٤٠١هـ
٣. إعلام الموقعين عن رب العالمين،لابن قيم الجوزية – ط. دار الكتب العلمية ،بيروت
٤. البحر المحيط ،لمحمد بن بهادر الزركشي – ط. وزارة الأوقاف بالكويت – تفسير السعدي
٥. الثبات والشمول في الشريعة ،د.عابد السفياني – الناشر: مكتبة المنارة بمكة المكرمة
٦. جامع بيان العلم وفضله ،لابن عبدالبر – سنن النسائي، الطبعة الأولى المفهرسة – الرسالة للإمام الشافعي ،ت: أحمد شاكر
٧. صحيح البخاري – ط. دار السلام للنشر والتوزيع
٨. صحيح مسلم – ط. دار إحياء الكتب العربية،القاهرة
٩. فتح الباري شرح البخاري،لابن حجر – ط. دار الفكر
١٠. عون المعبود شرح سنن أبى داود، لأبي الطيب محمد شمس الحق – المكتبة السلفية المدينة
١١. المبسوط،لشمس الدين السرخسي – ط.دار المعرفة،بيروت
١٢ مجموع الفتاوى الكبرى، لشيخ الإسلام لبن تيمية – جمع وترتيب: عبدالرحمن بن قاسم
١٣. الموافقات،لأبي إسحاق الشاطبي – ط. دار ابن عفان ١٤١٧هـ
١٤. مقاصد الشريعة وعلاقتها بالأدلة الشرعية، د.محمد اليوبي – ط.دار الهجرة
١٥. نهاية السول شرح منهاج الأصول للأسنوي – ط.عالم الكتب

٤

اللغة العربية وآدابها

جامعة الطائف

الآخر في الرواية السعودية
دراسة في الخطاب الثقافي

د. حسن محمد النعمي

أستاذ الأدب المشارك، قسم اللغة العربية

كلية الآداب، جامعة الملك عبد العزيز

مجلة جامعة الطائف – الآداب والتربية (اللغة العربية وآدابها)

المجلد الأول – العدد الرابع – ذو الحجة ١٤٣١هـ – ديسمبر ٢٠١٠م

الملخص

انشغلت الرواية السعودية بالعديد من الموضوعات ذات النزعة الاجتماعية، والسياسية والحضارية. ويشغل موضوع الآخر حيزاً لافتاً للانتباه في الرواية السعودية، حيث ظهر منذ التجارب الأولى ومازال حضوره متصلاً ومؤثراً في صياغة رؤية العديد من الروائيين السعوديين.

في هذا البحث سنقوم بمقاربة مفهوم الآخر في الرواية السعودية، وتحديد مستوى وطبيعة حضوره. ولإعطاء رؤية شاملة سنقوم بانتقاء الروايات التي كان لموضوع الآخر فيها حضوراً لافتاً في مراحل مختلفة من تاريخ تطور الرواية. والهدف من ذلك هو استكشاف نمطية التعبير عن الآخر في ضوء التغير الزمني. وعموماً، فإن هذه الدراسة، في مسعاها النهائي، تهتم بتحليل المضامين، بحثاً عن طبيعة الخطاب المضمر في تشكيل رؤية الروائيين في موضوع العلاقة مع الآخر.

١- يمثل الآخر أحد أهم مجالات دراسات الخطاب وخاصة في نظريات ما بعد الاستعمار والاستشراق والنقد النسوي[١]. غير أن الوعي بالآخر قديم قدم التجربة الإنسانية. فعندما نلتفت إلى الإشارة الإلهية في حكمة العلاقة بين الأنا والآخر ندرك ضرورة هذا التركيب الوجودي المعقد. فالاختلاف يرتقي لمنزلة الضرورة الوجودية، حيث الاختلاف سنة كونية ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَـٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَـٰتٍ لِّلْعَـٰلِمِينَ ﴾[٢]؛ أي لغاتكم وهيئاتكم وما يتبعها من تمايز في الثقافة والعادات وغيرها. ورغم أن الأنا والآخر مفهومان وجوديان، فإنهما يلتقيان وينفصلان ضمن أبنية ثقافية واجتماعية معقدة. غير أن الاختلاف الوجودي ليس مدعاة لانقطاع التواصل الإنساني. ففي القرآن يوجد العديد من الإشارات على ضرورة تقارب الأنا مع الآخر لغايات تبدأ بالاجتماعي وتنتهي بالحضاري. ففي سورة الحجرات ما يؤيد أن سنة الاختلاف تدعو لمبدأ التعارف: ﴿ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ﴾[٣]. فالاختلاف وجود لا يلغي ضرورات التعايش وتبادل المصالح. فهو نهج متى ما أحسن توجيهه، وفهمت غاياته ومقاصده، بني عليه مفهوم العلاقة بين الأنا والآخر من منظور إنساني.

من ناحية أخرى، تتعدد مستويات الآخر حسب موقع الأنا، سواء الأنا الجمعية أو الفردية. فالآخر كل ما هو خارج الذات يُعد جوداً متحققاً، يقوم على مبدأ «الغيرية الضدية»[٤]. فالمرأة بالنسبة للرجل آخر، واختلاف الهوية يجعل من يقابلك آخر، واختلاف اللغات تصنع آخرها، واختلاف اللون سمة تسم الآخر، واختلاف الدين يحدد آخره. فلا وجود للأنا دون الآخر، إنها حتمية وجودية. وعليه، فلا وجود لمركزية للذات في مقابل الآخر، فالآخر مركز في ذاته، مثلما الأنا مركز في ذاتها. فالمركزية نسبية حسب موقع الرؤية للطرف المقابل[٥].

السؤال الآن، هل من موجبات الاختلاف التنافر الدائم، أم التلاقي[٦] الدائم؟ إن البنية المحركة لفلسفة الاختلاف ليس التنافر، فالتنافر سهل، والتباعد يسير، غير أن المستوى الأبلغ للعلاقة هو وجود التلاقي كتجربة تفيد من الاختلاف دون أن تشغل نفسها بمعاداته. إن التلاقي، بوصفه تجربة إنسانية لا سنة كونية، يخضع لعوامل الدين والعرق واللغة والمنافع والاحتياج وغيرها من ضرورات الإنسان المعنوية والمادية. فالتلاقي بهذا المعنى نسبي، واحتمالي، ومتغير وفقاً لحركة الزمن وتغير الأحوال. فالفرق بين الاختلاف والتلاقي يكمن في فهم ماهية المعنى بحكم التصاق دلالته بالإنسان. فقد جرى الاختلاف على الإنسان دون اختيار منه. من هنا، فالإنسان ليس مسؤولاً عن اختلافه، بل تبدأ مسؤوليته من خلال سعيه لتكريس الالتقاء تبعاً

لضرورات التعايش؛ أي من مبدأ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ﴾ [٧]. إذن، فالاختلاف سنة كونية، أما السعي نحو التقارب فهو تجربة إنسانية تقوم على التعارف وتبادل المصالح، لكن ليس قبل إدراك أهمية الآخر في ذاته، وفي غيره. فالمعرفة بالآخر شرط حتمي لمقابلته، شرط لوضع الذات موضوع المساءلة لتقليص تضخمها. فمعرفة الآخر تستدعي معرفة الذات أولاً، بالمقابلة والمقاربة بين أنا منحازة لتاريخها وآخر مغيب في شرطه الوجودي بفعل التنافر وإرث القطيعة التاريخي[٨].

❖❖❖❖❖❖

٢- اهتمت الآداب والفنون، كالمسرح والسينما والتليفزيون والرواية، بتمثيل التجربة الإنسانية في العلاقة بين الأنا والآخر. ولعل الأدب السردي عموماً، والرواية خصوصاً كانت من أنشط الفنون الأدبية في الذهاب بعيداً في تعاطي هذا العلاقة المعقدة. غير أن ما هو مؤكد أن الالتباس في تمثيل هذه العلاقة هو السائد في كثير من الأعمال الروائية. فقد جاء تصوير هذه العلاقة ملتبساً ومتوتراً في الأعمال الروائية العربية منذ التجارب الروائية الأولى كما في رواية (عصفور من الشرق) لتوفيق الحكيم، و(قنديل أم هاشم) ليحيى حقي، و(الحي اللاتيني) لسهيل إدريس.

وإذا كانت تجربة العلاقة مع الآخر متعددة الأوجه بتعدد الآخر نفسه، فإننا نرى أن أكثر علاقة معقدة ومتوترة هي علاقة العرب مع الغرب، أو كما تختزل في الأدبيات الغربية (الإسلام والغرب)[٩]. فعلاقة العرب بالغرب المتوترة هي أحد المفاصل الحضارية ذات الحساسية الاستثنائية في حياتنا. فسوء الفهم مقدم على حسنه لدى الطرفين، والنيل من الآخر - من قبل الطرفين - قائم إلى حد التعدي على القيم والرموز الدينية. ورغم كل ذلك، فإننا نحتاج الغرب المتقدم، الغرب الصناعي، الغرب الحضاري. كما أن الغرب بحاجة للثروات النفطية العربية على وجه الخصوص. فكيف تستقيم العلاقة بين احتياج ونفور، بين وعي بالضرر وتغاض عنه؟ إنها هذه العلاقة المتوترة والملتبسة بين الطرفين التي نجد ظلالها في النص الروائي العربي، وكذلك النص الروائي السعودي.

لست معنياً، هنا، بالرصد التاريخي والسياسي لأوجه التعدي المختلفة، وإنما راصد لتمثيلات الرواية السعودية للآخر بصفته الحضارية والدينية. ولا أريد أن أستبق نتائج البحث، غير أنني أود أن أشير إلى إشكالية التعامل مع الآخر في سياق سياسي محموم، قائم على العداء والعداء المضاد. ولعل التصور المبدئي وفقاً للمعطيات السياسية يشير إلى ضرورة انصراف الرواية عن

موضوع معقد كهذا. غير أن الرواية تتعامل مع الآخر بمنطق مختلف، منطق يختلف عن منطق الواقع. فالرواية السعودية قدمت الآخر، وربما تقدمه مستقبلاً، إلا فيما ندر، في صورة العاجز والمقهور وفاقد البصيرة. وهي صور نمطية روائية توارثها الروائيون السعوديون عن الروائيين العرب. والإشكالية هي إشكالية تضخيم للذات في غير موقعها، إشكالية فهم مقاربة الواقع روائياً. فالفرق بين الواقع والرواية فرق بين الكائن والممكن. فإذا كان الواقع كائناً لا فكاك منه، فإن الفن الروائي ممكن في تصوراته وعدم تسليمه بالواقع. فالفن الروائي هو ما ينبغي أن يكون، أي الحياة بمنظور يختلف عن السائد. من هنا، نرى ضرورة الوقوف على منطلقات التعبير الروائي عن الآخر في الرواية السعودية، رغم هذه العلاقة الحضارية الملتبسة بين الأنا والآخر.

٣- تمثل المضامين الروائية للرواية السعودية في مراحل نموها المختلفة المدخل الأساس لفهم الخطاب المضمر، وكيفية تشكل الوعي الروائي العام. فهناك فرق بين فهم الخطاب في رواية بعينها وبين مجموعة روايات في مراحل زمنية مختلفة. فخطاب الرواية المفردة تجربة فردية، مرهونة بزمن معين، بينما الخطاب الجمعي في الرواية هو تشكل للوعي العام روائياً عند مجموعة من الكتاب. ولعله يجدر بنا أن نوضح أن هناك فرقاً بين الموضوع أو المضمون الروائي وبين مضمر الخطاب الروائي. فالموضوع حضور يفرضه تفاعل الكاتب مع واقعه الخارجي، حيث تتشكل الرؤية وتتحدد وسائل التعبير السردي، بينما الخطاب نفسه يشكل الوعي الخفي الذي قد لا يشعر به الكاتب نفسه أحياناً، بل يكتشفه القارئ ويبني عليه الفرضيات المعرفية التي تحدد ملامح الخطاب الروائي في حقبة معينة. فالخطاب حمولة مضمرة يستنطقها القارئ من منطوق السرد وجدل الشخصيات وحركة الأحداث في نسق يحدد نمط التفكير العام ويحدد المقولات وعلاقتها بشخصيات العمل. وعليه، فإن البنية السردية تكشف «ذلك البعد الإنساني العميق للتجربة، وتغوص إلى دخائل التركيبة الوجدانية والنفسية للشخصيات الممثلة للحدث»[١٠].

وينبغي في البدء التنبيه أننا لسنا معنيين بتتبع كل الموضوعات التي تناولتها الرواية السعودية، فذلك أمر مجهد، وغير مجد للدرس الأدبي، لأنه سيتحول إلى حالة وصفية تتسم بالسطحية والاستعجال في معالجة هذه القضايا. غير أننا نحتاج إلى البحث عن وفي المضامين المهيمنة في حضورها على الرواية، المضامين التي تتسم بالحراك وتقاوم الثبات أو الفردية، المضامين التي تشكل الخطاب الخفي في البحث عن فهم أعمق للإشكاليات التي يواجهها المجتمع. وفي الوقت نفسه، فإن الرواية، وهي تقف على موضوعات بعينها، ليس من غاياتها البحث عن حلول، على فرضية توفرها، إنما غايتها الاشتغال على الأسئلة المكونة لأزمة من الأزمات أو قضية من القضايا.

والراصد للرواية السعودية يلمس عناية مجموعة من الكتاب والكاتبات على امتداد تاريخ الرواية السعودية بعدد من القضايا ذات الصبغة الشمولية، مع معالجات تتسم بالتفرد في التناول وبناء الرؤية الإبداعية. فاشتغال الكتاب والكاتبات لا يلغي تفردهم في الرؤية والمعالجة، غير أنه يجب الإقرار بأن هناك قواسم مشتركة تحدد المنطلقات التي يتخذها الكتاب أو الكاتبات حيال قضية محددة. فقد حفلت الرواية بالعديد من الموضوعات التي شكلت ظاهرة لافتة للانتباه، اكتسبت العمق في المعالجة وفي تطوير أدوات الرؤية الروائية.

من أبرز الموضوعات التي يتكرر ورودها في الرواية السعودية نجد أن موضوع الآخر يشغل حيزاً معقولاً في الرواية، وهو موضوع يتسم بالديناميكية الفاعلة نتيجة لعمق التحولات التي مر بها المجتمع ووقع أثرها المباشر على صناعة الرواية.

إن الغاية من تناول هذا الموضوع ليس تقديمه بوصفه موضوعاً تمت معالجته روائياً فحسب، إنما الغاية هي اكتشاف الوعي الروائي الذي يشكل خيطاً في الروايات التي اشتغلت على هذا الموضوع، حيث يمكن تتبع حضوره ومدى عمقه مهما اختلفت التجارب الفنية لهذه الروايات. كما أن التوقف أمام هذا الموضوع الروائي وفحصه والإحاطة بمنطلقاته وفرضياته قد ينتج التقاءات حاسمة بين الإدراك الروائي وبين الوعي الاجتماعي العام. فموضوع الآخر هو ناتج التحولات وضرورات الانفتاح وحتمية الاحتياج التي ولدتها عوامل التنمية الداخلية، أو فرضتها عوامل الأحداث الخارجية السياسية والاقتصادية. فالخيارات تبدو ضيقة بين أن ينكفئ المجتمع على ذاته، وبين أن يندفع إلى أقصى مدى. هنا تقوم لحظة الصراع التي تبدو لحظة شهية للروائيين، ومغرية بالتناول بحجم تأثيرها على الأبنية الاجتماعية الكلاسيكية. فالديالكتيك الاجتماعي سواء اليومي أو القيمي يشعل الأسئلة ويجدد القلق والتوتر معرفياً واجتماعياً. وإذا كانت الرواية لا تعد بإجابات منجزة، فإنها حسب تكوينها تعيد تكوين وترتيب العوالم من حولها لإنتاج نص ينتقل من الكائن إلى الممكن. ولذلك، تصبح رحلة الرواية مع الواقع جدلية، لا تفضي إلى يقين، بل إلى أسئلة متجددة عن جدوى الصراع وما يمكن أن يصل إليه. فهل هو صراع موعود بالتلاشي، أم أنه صراع مفتوح متجدد بتجدد التحولات وما تضمره من تحديات؟

٤- الآخر في الرواية السعودية

موضوع الآخر في الرواية ليس مجرد موضوع روائي، بل هو مشكلة حضارية وجدت فيه الرواية مادة ثرية للتناول، حيث ساءلت الرواية عندما كان السؤال مطلوباً، وتعاطفت مع المنطلقات الاجتماعية والفكرية التي شكلت وما زالت تشكل طبيعة العلاقة مع الآخر. ويجدر بنا - هنا - أن

نحدد مفاهيمياً من هو الآخر الذي ننظر له في هذه الروايات. هل هو الغربي فقط؟ أم أي آخر خارج المنظومة الاجتماعية التي تشكل وعي المجتمع وقضاياه وتكوينه الاجتماعي والسيكولوجي؟ بالتأكيد إننا نعني الآخر الذي يخرج عن التكوين الاجتماعي بكل ما يجمعه من الأطياف الاجتماعية المختلفة، وبما يحظى به الأفراد في سياقهم من هوية ونمط عيش وموقع حضاري يميزهم سواء عن محيطهم العربي أو العالمي. ورغم تعدد حضور الآخر في الرواية السعودية، فإن تناول الآخر الغربي هو الأكثر حضوراً وتوتراً في الرواية. على أن كل آخر في الرواية يُعد نقطة صراع تختلف في أبعادها، وتؤكد بدرجات مختلفة أزمة المجتمع مع هذا الآخر، وإن تباينت الرؤى الجزئية عند الكتاب، أو اختلفت طبيعة المعالجة حسب مراحل نمو التجارب الروائية ذاتها. وبالرغم من أن رؤية الروائيين رؤية ذاتية، فإنها تستمد قوامها من إرث ديني وحضاري وثقافي واجتماعي تجعل الفرد الكاتب أو غيره جزءاً من منظومة أكبر يدور في فلكها هذا الفهم المعقد والمركب للآخر. فالآخر ليس اختلاف عرق أو جنس فحسب، بل اختلاف حضارة ومنطلقات دينية وثقافية، لا يستطيع الكاتب أن يعيش بمعزل عنها. ولذلك، فإن الخطاب الروائي جزء مهم في فهم آليات التفكير في الآخر. ولاختبار ما إذا كانت فرضية استقلال الكاتب بفكره عن المجموعة فرضية مقبولة، أم أن الخطاب يفضح الروائيين من حيث لا يحتسبون، فإننا نتساءل ما إذا كان الروائيون أسرى نظرة إيديولوجية ضيقة غير مهيأة لمعرفة الآخر، يؤمنون فقط بما هو منجز من الفكر الاجتماعي والديني تجاه الآخر، بحيث لا يقبلون محاولة إعادة فهم التراكيب الاجتماعية المتغيرة في علاقتها بالآخر؟

وإذا كانت العلاقة مع الآخر، خارج أسوار الرواية، تأخذ في الغالب موقف التوجس والارتياب وعدم القبول والخوف من التأثير في منظومة القيم الخاصة، فإن تجارب الروائيين لم تبتعد عن هذه الصورة إجمالاً، إلا أن المعالجات أو درجة الحذر أو زوايا النظر اختلفت وفقاً لتموضع الروائيين من قضية الآخر. فالرؤية التي تنطلق من وعي ديني، وليس المقصود رؤية الإسلام، رؤية في الغالب متوجسة تبني علاقتها على الترقب والحذر والانكفاء وقد تصل إلى حد مصادرة حق الآخر في الوجود. أما الرؤية التي تتسم بالفهم الحضاري، فهي رؤية تقوم على محاولة الفهم وزيادة وتيرة الأسئلة. وتأتي الرؤية الاجتماعية في الغالب على نحو نفعي تتحدد معها العلاقة مع الآخر وتقترح نمط التعامل، مدركة ضرورة الانفتاح على التحولات العصرية، واعتبار الآخر جزءاً من منظومة التغير[١١].

وقد ظهر موضوع الآخر في الرواية السعودية أكثر إلحاحاً من أي موضوع آخر، فجاءت موجة الروايات الأولى مأسورة بهذا الموضوع، معالجة له بتنويعات مختلفة بين الرفض والانبهار

والحياد النسبي. ولعل هذا الاهتمام المبكر الذي تبلور في رواية (التوأمان، ١٩٣٠م) لعبد القدوس الأنصاري، ورواية (البعث، ١٩٤٨م) لمحمد علي مغربي، و(ثمن التضحية، ١٩٥٩م) لحامد دمنهوري يؤكد قلق النظر للآخر ومدى التوتر الناتج عن رؤية الآخر بين الخوف منه والحاجة إليه. وقد تنوع الآخر في هذه الروايات، فجاء غربياً في رواية التوأمان بكل أبعاده الحضارية، أما آخر رواية **البعث** فقد كان آسيوياً هندياً بالتحديد، وأما آخر رواية **ثمن التضحية** فقد كان عربياً مصرياً تحديداً. وأياً تكن رؤية الآخر في هذه الروايات وغيرها، فهي رؤية قلقة كونها ترفض كما في رواية التوأمان، قلقة كونها تنبهر كما في رواية البعث، ورؤية سلبية كونها لا تتفاعل كما في رواية ثمن التضحية.

٥- يتحقق البحث في حضور الآخر من خلال التوقف أمام روايات حضر فيها الآخر بملامح واضحة تسمح باستقراء أبعاد هذ الحضور ودلالاته، مع التأكيد على أن موضوع الآخر يدخل ضمن منظومة مركبة من القضايا ذات النزعة السياسية والاجتماعية، وقليلاً ما يتم استحضار الآخر ضمن منطلق فكري خالص. ولتنويع الوقوف سنحاول أن نراعي اختيار النماذج التي حضر فيها الآخر بوصفه موضوعاً رئيساً أو مؤثراً في مسار الأحداث الروائية، ذلك أن الإشارات السريعة وغير المؤثرة للآخر يمكن رصدها في معظم الروايات وخاصة الروايات الصادرة منذ الثمانينيات الميلادية. وعليه سيكون التركيز على الروايات التي شغل الآخر فيها حيزاً جوهرياً، بل كان حضوره محركاً أساسياً للأحداث الروائية.

١/٥- رواية **التوأمان** لعبد القدوس الأنصاري، وهي أول رواية صدرت في الأدب السعودي في عام ١٩٣٠م، جاءت في وسط أدبي غني بالشعر وبعيد عن عالم السرد. غير أن الأنصاري اختار الرواية، رغم أنها فن العصر الجديد، اختار الرواية رغم أنه أديب محافظ، فلماذا اختار الرواية واختار أن يكون موضوعها الآخر. هل بإمكاننا أن نتأول هذه اللحظة الاستثنائية في أدبنا الروائي السعودي؟ أديب محافظ، وشكل حداثي، وتجربة بكر في زمن لا يقيم وزناً للرواية، وربما لا يعرف ماهية الرواية ولا شروط كتابتها ولا قراءتها؟!

من المعلوم بالضرورة أن الرواية قدمت للأدب العربي في مصر والشام على أنها تجربة أدبية غريبة، وجاء ذلك عبر الترجمات أو محاولات التمصير للأعمال الروائية الغربية التي اطلع عليها القارئ العربي وعدت نموذجاً من نماذج الحداثة الغربية مثلها مثل المسرح والشعر الحديث. وقد جاء اختيار الأنصاري لهذا الشكل على خلفية أن هذا الشكل الروائي هو أحد منتجات الآخر الغربي، فبه ومن خلاله، يمكن فهم آليات تفكيره، وعليه كشف زيف حضارته، وهشاشة تجربته. كما أن الرواية بقدرتها على التشخيص وتكوين العوالم بدت الأقدر بالنسبة

للأنصاري في تقديم موضوع الآخر، فكأن الرواية كتبت فقط لبيان فساد الآخر والتحذير من خطره. فليس في الرواية ما يدعو للتفكير في موضوع آخر إلا ما بينته أحداث الرواية.

وبعيداً عن مستواها الفني الذي يتسم بالضعف، بل عدم الإلمام بأصول الفن الروائي [١٢]، فإنها رواية تقوم على نمطية تقليدية، وتنحو منحى تعليمياً[١٣] في بناء الأحداث وتكوين الشخصيات. فالحدث هو المكون للشخصيات أصلاً. فهذا أب يترك لابنيه رشيد وفريد أن يقررا، وهما في السادسة من عمريهما، أي المدارس يختاران. فيختار رشيد التعليم الوطني التقليدي الذي يقدم علوم الدين واللغة العربية، أما فريد فيختار الدراسة في أحد المعاهد الأجنبية. من هنا تبدأ الأحداث في التشكل وكأنها قدر محتوم. فالكاتب قد أعد التكوين الشخصي والاجتماعي للطفلين سلفاً، لتكون أفعالهما نتيجة محتومة، وعليه، فليس هناك أي مجال للتجربة والمرور ببرهان الخطأ والصواب. بهذا المعنى، فإن الرواية غير واقعية، بل رواية صراع أفكار أراد المؤلف أن يصل بها ومن خلالها إلى التحذير من خطر الآخر بطريقة تبدو حركة طبيعة للحياة. من هنا يصبح اختيار الأنصاري للرواية مخادعاً وغير فني. لقد كتب الأنصاري نصاً حداثياً بشروط الثقافة المحافظة.

إن التمثيل باسمين (رشيد وفريد) له دلالة الأصل والهامش. فالأصل هو الرشاد، والهامش الضلال. فرشيد يمثل رمزياً الثقافة العربية التقليدية باتجاهها المحافظ، حيث نسب إليه كل صلاح. فهو ابن بار بوالديه، ومتفوق في دراسته، ومواظب على صلواته، ومحبوب من أساتذته وزملائه، وناجح إجمالاً في حياته. حياة كاملة لبطل يمثل القيم المحافظة. وفي المقابل، يأتي أخوه فريد حاملاً فشله، وبؤسه وانحرافه لأنه اختار أن يذهب إلى التعليم في المعهد الأجنبي الذي أفسده ودفعه إلى عقوق والديه، وانحرافه وسقوطه في نهاية الأمر، لكن الكاتب يرى أن فريداً رغم انحرافه هو حالة شاذة في مجتمع تسوده قيم المحافظة، وهو وحيد يجب نبذه والتأكيد على إقصائه، وهي دعوة إيديولوجية للاستغناء عن حضارة الغرب دون البحث في الممكن من هذه التجربة الإنسانية.

بهذا التخطيط ووفقاً لسير الأحداث تنحاز الرواية ضد الآخر الغربي تحديداً. وهو انحياز نمطي ضد الآخر يقوم على الرفض المسبق دون التفكر في جدوى التعايش وتبادل المنافع. فالآخر في رواية التوأمان شر مطلق لا يمكن مهادنته أو مصالحته، وإنما مقاومته بالمحافظة على تقاليد المجتمع. فالآخر هنا معاد للقيم المحافظة وليس سواها. وعليه، يصبح الصراع صراع قيم ذات مدلولات حضارية عميقة، تتمسك بالحقيقة المطلقة. فالآخر شر مطلق، بينما الذات وما تمثله من قيم، خير مطلق لا تحتاج إلى ما يعززها ويثريها.

ويمكن أن تؤخذ حداثة سن الطفلين (رشيد وفريد) على أنها تعبير رمزي عن حداثة المجتمع وحداثة الصراع في سياقه المحافظ. لقد ظهرت الرواية في اللحظات الأولى لتكون المجتمع السعودي، بكل ما تعد به الدولة الجديدة من تأسيس لمجتمع مدني يأخذ بأسباب العصر. من هنا، فإن قوى المحافظة هي الأصل في القوة والحضور وأي زعزعة لمكانتها يعد ضرباً من التوهم. وفي رواية الأنصاري لا مكان للحلول التوفيقية، حل واحد هو أن تبقى محافظاً، وأن ترفض الغرب بأكمله. وهي رؤية معاكسة لما تعد به الدولة الجديدة التي انتقلت من فكر القبيلة إلى فكر الدولة، ومن تشتت في الهويات إلى هوية واحدة، ومن كينونات متناقضة إلى كينونة واحدة.

إن الرواية بهذا التصور معادية لمشروع التحديث الذي كان متزامناً مع بدء الدولة الفتية. لقد واكبت الرواية بدء تكوين المجتمع السعودي وما صاحب فترة التكوين من استقطابات سياسية وبناء مؤسسات الدولة الفتية حتى استقر المجتمع تحت الكيان السياسي الحالي. وقد كان المجتمع الثقافي في الحجاز، مكة وجدة على وجه الخصوص، هو السباق للتفاعل ثقافياً مع الأدب العربي في مصر والشام، بالإضافة إلى الأدب في المهاجر الأمريكية. جاءت نتيجة هذه التواصل ظهور جيل شاب متطلع للخروج من ظلال الثقافة التقليدية، ومتطلع إلى الأخذ بالمكتسبات المتجددة في المحيط العربي والعالمي. ولعل كتاب (خواطر مصرحة، ١٩٢٦م) لمحمد حسن عواد هو خير معبر عن هذا التيار الرافض للتقاليد البالية. لقد كان العواد جريئاً وهو يكتب نقداً اجتماعياً محاولاً التنبيه على عمق التخلف وآثاره السلبية التي تواجه محاولة المجتمع في النهوض والبناء. فالتعليم ضعيف وللرجال دون النساء، والمجتمع محكوم بالخرافة بدلاً من الأخذ بأسباب العلم والتقدم. لقد كان الكتاب جريئاً في زمنه إلى أبعد مدى ولو كان رواية لربما تغيرت نظرتنا للرواية بالكامل. غير أن الكتاب نثري نقدي غايته تنويرية. ورغم أن أول رواية التوأمان قد صدرت بعد صدور الكتاب بحوالي أربعة أعوام، فقد جاءت نكسة بالنسبة للسياق الذي تبناه الكتاب وهو الدعوة إلى إصلاح المجتمع. لقد كانت الرواية ذات رؤية معاكسة تماماً، حيث تدعو إلى رفض الأخذ بأسباب العلم الحديث الذي يتمثل في الأخذ عن الغرب، والتمسك بكل ما هو تقليدي بصرف النظر عن جدواه لأن فيه الثراء اللازم لنجاة الأمة وخلاصها كما تطرح الرواية. وبصرف النظر عن ضعف الرواية فنياً، فإن مشكلتها تكمن في تكرس سوء الفهم بالآخر، وعدم استشعار الأنصاري أهمية الأخذ بأسباب الحياة المتطورة. إن هذه الرواية وأشباهها معاكسة حتى لفكرة الدولة الجديدة التي هي شكل من أشكال التمدن، والدعوة إلى الاستفادة من الآخر. فبدلاً من التكتلات القبلية التي تفرق أكثر مما تجمع أصبح هناك كيان سياسي له صلاته بالعالم الخارجي ويمثل هوية وطنية لها نظمها وتوجهاتها.

٢/٥- تستحوذ فكرة الآخر على رواية (**البعث**، ١٩٤٨م) لمحمد علي المغربي، حيث يدخل بطل الرواية أسامه الزاهر في انبهار من منجز الآخر. وتقوم لحظة الانبهار على خلفية الموطن الأصلي. فهو يقارن بين موطنه وبيئته في الحجاز وما يعتريها من تأخر في المنجزات الحضارية والتطور المدني، وفي المقابل يرصد معالم التطور والتقدم المدني في الهند. ولعل أطرف ما في هذه الرواية أنها تختار آخراً غير تقليدي، فليس الآخر هنا غربياً يثير استحضاره حالة من النفور والتوجس. لقد حفلت الرواية برغبة جارفة في مسايرة هذا الآخر والوقوف في مصافه، وهو ما عملت الرواية على تحقيقه من خلال مسيرة بطلها.

أسامة الزاهر بطل غير تقليدي، ذهب إلى الهند للاستشفاء من مرض الدرن، وهو ما يمكن أن يشير رمزياً إلى خلل في طبيعة مجتمعه الذي يحتاج إلى تغيير في جوهره. ولعل أطرف ما في علاقة أسامه بالآخر هو الانبهار المتواصل منذ بدء الرحلة وما رآه في الباخرة وما شاهده من شواهد حضارية في الهند لم يجد لها ما يماثلها أو يدانيها في بلاده. إنه مسكون بالانبهار وكفى. ورغم أن الانبهار حالة استلاب فإنها بدت ضرورة في حالة أسامة الذي استغلها لبناء شخصيته، ومحاولة تغيير واقعه. فبعد أن عاد عمل على تغيير ما يمكن تغييره على المستوى الشخصي: «فاتجه إلى العمل الاقتصادي ... وأقام مصنعاً للجلود والمنسوجات، واستحدث نظام الشركات، وبنى المساجد والمستوصفات»[١٤]. وهو عملٌ كان باعثه ومحرضه انفعاله وتجاوبه مع الآخر. لقد كان في داخله يعيش صراعاً بين واقعين، واقع رأى فيه صورة من صور التخلف، وواقع آخر انبهر به وعمل على محاكاته لا في الشكل، بل في الغاية. إنه العمل الذي يبني الشخصية، ويضفي قوة خلاقة للإبداع والعطاء.

في المستشفي، حيث يتلقى العلاج في الهند، يتعرف على الممرضة كيتي، حيث تنشأ بينهما علاقة حب كبير، وتقدم لخطبتها لكنها تستمهله إلى حين، فقد كانت كيتي من الطائفة المسيحية الهندية التي تشعر بالدونية في مجتمعها. غير أن الحرب العالمية الثانية تفرق بينهما. وعليه، وقد شفي يقرر العودة إلى بلده عاقداً العزم على العمل بجد ومثابرة لتغيير ما يراه سلبياً في مجتمعه. وفي ختام أحداث الرواية يلتقي أسامة بكيتي وأهلها في أحد مواسم الحج وقد أسلموا، استشعاراً لعظمة الإسلام الذي لا يفرق بين الطبقات والأجناس إلا على أساس التقوى. وتنتهي أحداث القصة بزواج أسامة من كيتي، لتبدأ حياة جديدة.

إننا في رواية **البعث** أمام معطيات عديدة. تبدأ بالمقارنة بين مكانين، وتنتهي بإبراز عظمة الإسلام. لقد انبهر أسامة بالآخر، لكنه لم يقع في دائرة الاستلاب، بل سعى للأخذ بأسباب

التفوق. وأعتقد أن هذا التوظيف للآخر ينم عن وعي كبير بأهمية البحث عن الذات حتى في جغرافيا الآخر. فمرض أسامه يمكن أن يحمل على الرمز الذي يؤكد عموم الخطاب، لا خاصته. فهو مرض مجتمع، شفاؤه في عدم الانكفاء على الذات. ويمكن أن يحمل زواج أسامه العربي من كيتي الهندية على ضرورة التعايش والتقارب إلى أقصى مدى. غير أن الإشارة التي يجب أن نضعها في الحسبان ونحن نقرأ خطاب الرواية، كيف ستكون الرؤية لو لم تدخل كيتي في الإسلام. أعتقد أن اندفاع أسامه نحو الآخر وانبهاره به كان غير مشروط. فلم تكن مسألة احتواء الآخر على أجندة أسامة، بل الانبهار والسعي خلف الآخر هو الأصل. وعندما عرض على كيتي الزواج، لم تمنحه جوابها مباشرة، بل استمهلته إلى حين. ربما كان ذلك الحين هو تكشف معرفتها بالإسلام. ويمكن أن تحمل لحظة اللقاء في موسم الحج بين أسامة وكيتي على أنها مصادفة، لكنها ضرورات الخطاب التي لا تحفل بالفني كثيراً في مقابل تحقيق الغاية المضمرة من كتابة الرواية. هل كان أسامة يسعى للتعريف بالإسلام؟ أم كان باحثاً عن ذاته التي غرقت في المرض؟ أم عاقداً العزم على البحث عن دواء لتخلف مجتمعه؟ ربما تكون الإجابة المباشرة أبعد ما نود تناولها، لكنها مستويات من المعنى تتكشف لقارئ الرواية، وتظهر نواتج لقاء الآخر على أكثر من مستوى، لعل من أهمها أن اللقاء بين الحضارات يترك آثاراً متبادلة، فلا تسلم أي حضارة منفتحة على الحضارات الأخرى من أثر هنا وهناك، لكن الحضارة القوية هي التي لا تخشى اللقاء، وهو ما يمكن أن نلمسه في خطاب رواية البعث.

٣/٥- وتعد فترة الخمسينيات الميلادية فترة جمود روائي حيث لم تصدر رواية يمكن أن تسجل علامة فارقة في مسيرة الرواية السعودية. غير أن رواية **ثمن التضحية** لحامد دمنهوري، التي صدرت في عام ١٩٥٩م، شكلت قفزة فنية نوعاً ما مقارنة بما سبقها من أعمال سردية. فقد بدت أكثر الروايات استعداداً لتقديم رؤية جريئة مفارقة للواقع. غير أنها لم تستطع أن تخرج عن النسق المحافظ للمجتمع. فقد اختبرت الرواية فكرة الخروج على التقاليد واستشرفت آفاقاً مناهضة للسائد في الثقافة المحافظة، لكنها ما لبثت بوعي أو دونه أن تراجعت مستجيبة لنسيج الثقافة الكائن. فقد قدمت رواية **ثمن التضحية** صراع الذات مقابل الآخر. وهو صراع ينهك الذات الحالمة حتى تُسلِم بالنهاية المحتومة التي يختارها المؤلف عادة من خارج سياق الأحداث المنطقي وفق اشتراطات سياق الثقافة المحافظة. وهذا النوع من النهايات، في الغالب، فيه الكثير من الشفقة على الشخصية الرئيسة التي تعاني ويلات الصراع النفسي. وهذا الصراع عادة هو صراع رغبات ذاتية يكون الحب الحالم أحد أبرز معالمها، وهي إشارة رمزية إلى طبيعة العلاقة مع الآخر في سياق الثقافة

المحافظة. وغالباً ما يتم الربط في سياق هذه الثقافة بين الحب والواجب الديني أو الاجتماعي مثل ما حدث من تضحية أحمد، بطل الرواية، عندما فضل الزواج من فاطمة غير المتعلمة على فائزة المثقفة بدافع الولاء الاجتماعي واحترام رباط الزواج الذي قطعه على نفسه. وهو تمثيل موضوعي لإشكالات العلاقة مع الآخر. ورغم أن ثمن التضحية هي أجرأ من حيث القبول النسبي لخوض تجربة العلاقة مع الآخر، فإن المحيط الاجتماعي ما يزال غير مهيأ لخوض تجربة من هذا النوع. فجاءت العلاقة سطحية غير واعية بضرورات التعايش وكسر حدة العزلة والانكفاء على الذات.

وللاقتراب أكثر من رواية **ثمن التضحية** نرى أن حبكة الرواية تدور حول أحمد الشخصية الرئيسة في الرواية وعلاقته بابنة عمه فاطمة الأمية التي أحبها منذ صغره. وعندما أنهى دراسة الثانوية، عقد قرانه عليها على أن يتم الزواج بعد عودته من دراسته في مصر. وهناك في مصر يتعرف على فائزة الوجه الآخر لفاطمة، فائزة متعلمة ومثقفة، وهو الشيء الذي تفتقر إليه فاطمة. يناضل أحمد من أجل كبح جماح عاطفته التي انساقت وراء فائزة. ورغم أنه أحبها لذاتها ولثقافتها، فإنه يحسم أمره وفاء لرباطه المقدس بفاطمة، مضحياً بقناعته وإعجابه وحبه في سبيل الوفاء بعهده. وبعد عودته يجد فاطمة خير ثمن لتضحيته، كتعبير من الرواية عن ثمن تمسكه بالتقاليد والأعراف الاجتماعي المحافظة.

إلى جانب هذه الحبكة الرئيسة، فهناك أحداث ثانوية لكنها كلها نمطية تؤكد القناعة بما هو مقدر للإنسان، ولذلك فإن الرواية تخلو من الأفعال الدرامية التي تغير طبائع النفوس، وتنقلها من حالة إلى أخرى. إن الشخصيات في معظمها سطحية غير متبلورة من خلال الأحداث. حتى شخصية أحمد فهو ذلك الحالم المتطلع برومانسية شفافة للحياة، مخضعاً إرادته لقوة الفعل الاجتماعي المتمثل في الحفاظ على الترابط العائلي. ولذلك، فإن الرواية تتراجع عن حدة الصدام الذي اضطرم في نفس العاشق أحمد. فحبه لفائزة كان أكثر عقلانية ومنطقية من حبه لفاطمة، لكن الرواية تطفئ جذوة هذا الحب، بافتعال واضح معاكس لمجرى الأحداث. فلو أن أحمد أقدم على الزواج من فائزة، أو على الأقل، التخلي عن فاطمة بعد أن أدرك أن ما يبحث عنه ليس الجمال المفرغ من الفكر، لكنا أمام عمل آخر أكثر منطقية في أحداثه، متناغماً مع الذات الإنسانية المتمردة على كل ما هو مفروض عليها. وإذا كان أحمد قد أحب فاطمة في البدء، فحبه مدفوع بالعاطفة، أما حبه لفائزة فهو حب عقلاني أدرك من خلاله خاصية المتعة الفكرية المقرونة بالجمال الإنساني.

إن التناظر بين فاطمة وفائزة هو تناظر بين مجتمعين مختلفين. ففاطمة تنتمي لمجتمع مازال يؤمن بالخرافة والشعوذة وأحاديث الجن[١٥]، حسب وصف الرواية. وإذا كان الرجل قد بدأ في الحصول على قسط من التعليم، فإن المرأة ما تزال - حسب الحقبة التي قدمتها الرواية - تقبع خلف نافذتها تنظر للعالم برهبة وتخوف، أقصى أمنياتها أن تتزوج. لقد نجح الكاتب في أن يوحي برمزية فاطمة التي تحولت من مفردة إلى جملة تعبر عن حالة المرأة في مجتمعها. يقول الكاتب في هذا السياق معبراً عن فاطمة الحقيقة والرمز في آن واحد: «تلك المخلوقة الصغيرة، ساكنة مكة، «تقبع» وراء نافذتها المغلقة»[١٦]. فهي حقيقة كونها تمثل ذاتها فقط، وهي أيضاً رمز لغيرها ممن يتطلع إلى المستقبل من بنات جنسها. وعلى النقيض من مجتمع فاطمة، يقدم الكاتب صورة المجتمع المصري، مجتمع فائزة الذي حظيت فيه المرأة بالتعليم وحرية الحركة.

إن محور الرواية هو شخصية أحمد، وهي شخصية محددة المعالم، شخصية رومانسية حالمة، ضعيفة البنية، لكنها ذات تطلع للمستقبل. يقوده تطلعه إلى إقناع والده لإكمال دراسته في مصر. يمتثل الأب بعد أن يلزمه بعقد قرانه على فاطمة، ابنة عمه، إشارة للازمة التمسك بالتقاليد. فالسماح له بالذهاب إلى مصر لا بد أن يكون مشروطاً برباط يمكن أن يبقيه داخل نسقه. وهذا الاشتراط هو جوهر الصراع في علاقتنا بالآخر فبقدر احتياجنا له نخافه ونخاف أن نفقد هويتنا. يمضي أحمد في رحلته لتتحرك معه أحداث الرواية برمتها راصدة وضعه في ذلك المجتمع الجديد. وتهتم الرواية كثيراً بعلاقته بفائزة وحبه الصامت لها، الذي ينتهي بتضحية أحمد بفائزة من أجل فاطمة، بل نزوله عند شرط الثقافة المحافظة، وخضوعه بالتالي لتقاليد الزواج السائدة في مجتمعه القائمة على الولاءات العائلية. لقد نجحت الثقافة المحافظة في تجريد أحمد من أهم مقومات التنوير، بل وفرغته من مدلوله، فلم يعد للتعليم أي جدوى مادام أنه خسر مواجهته مع اشتراطات الثقافة. لقد خذل المؤلف بطله قبل أن يكمل التجربة. فربما لو أعلن حبه أو تقدم لخطبتها لحدثت المفارقة. ولا يهم حينئذٍ سواء رفضت فائزة حبه أم قبلته، فإن أبعاد الرؤية، في الحالتين ستأخذ مجرى آخر بدلالات أخرى.

٦. الآخر في التجارب الروائية المتأخرة:

ويتجدد حضور الآخر في عدد من الروايات التي صدرت في حقبة الثمانينيات الميلادية، بعد انقطاع غير مفهوم في الاشتغال على موضوع الآخر في روايات حقبتي الستينيات والسبعينيات الميلادية. فلم تقدم روايات إبراهيم الناصر أو سميرة خاشقجي أو هند باغفار أوغيرهم من الكتاب أو الكاتبات في هذه المرحلة أي اهتمام بموضوع الآخر على نحو جوهري كما هو الحال

في الروايات السابقة أو روايات ما بعد عام ٢٠٠٠ كما سيرد لاحقاً. فقد انصب اهتمام معظم روايات هذه المرحلة على موضوعات اجتماعية لا تقل أهمية عن موضوع الآخر، وبدت ملحة في مجملها مثل قضايا المرأة عند سميرة خاشقجي أو هند باغفار، ومثل علاقات التحول الاجتماعي عند إبراهيم الناصر.

لقد تزامن صدور روايات حقبة الثمانينيات مع انتقال المجتمع من حد الكفاية في العيش إلى طفرة اقتصادية غيرت من طبيعة المجتمع ودفعته إلى مزيد من الحراك الاجتماعي. كما زاد هذا الحراك الاجتماعي من حتمية التعايش ولقاء الآخر، إما وافداً إلى البلاد لحاجات التنمية الاقتصادية والتربوية والاجتماعية، أو ذهاباً للآخر للدارسة أو السياحة أو التجارة. لقد أصبح الآخر حاضراً بقوة في حياة المجتمع، وتحول وجوده بيننا أو الذهاب إليه ضرورة اجتماعية واقتصادية. ورغم كل ذلك يبقى الآخر آخراً في المعايير الإيديولوجية والسياسية. ما هي الفروق التي سجلتها الرواية السعودية في هذه الحقبة في تقديمها للآخر؟ هل اتسمت بالنظرة ذاتها، أم أن المؤثرات غيرت من النظرة العامة وحققت قدراً من الفهم الخاص لأهمية الآخر في حياة المجتمع؟

ويمكن أن نرصد ثلاث روايات في هذه المرحلة حضر فيها موضوع الآخر بإلحاح معرفي وإنساني وبتمثلات مختلفة عما سبق من معالجة. فيظهر الآخر بوضوح في رواية (غداً أنسى، ١٩٨٠م) لأمل شطا، ورواية (السنيورة، ١٩٨٠م) لعصام خوقير، ورواية (لحظة ضعف، ١٩٨١م) لفؤاد صادق مفتي.

وتعد رواية غداً أنسى الأوفر حظاً في تناول الآخر من منظور هو أقرب للاستعلاء. أما الآخر هنا فهو آخر يُنظر إليه بدونية. الاستعلاء في الرواية معادل موضوعي واقعي أكثر منه فني. فعبد المجيد التاجر المكي الذي يذهب كثيراً من أجل التجارة إلى شرق آسيا يتزوج من (تيماء) الأندونيسية وينجب منها ابنته (إسلام)، حيث أخذها معه بعد أن طلق أمها. ويؤكد عبد المجيد لابنته أن أمها قد ماتت. غير أن الأم تحضر إلى مكة، حيث تجد ابنتها بعد حبكات انتابتها المصادفة وضعف المبررات الفنية المقنعة. وترجو إسلام من أمها أن تقوم على رعاية والدها المثقل بالمرض والشيخوخة، ورغم كل الإساءات تقبل الأم تيماء، حتى إذا مات عبد المجيد تعود إلى بلادها.

واضح أن الآخر هنا مسخر للخدمة وللوفاء بمتطلبات الأنا. فعبد المجيد ليس له من هدف غير إشباع رغباته أولاً، والقيام على راحته ثانياً. وهي رؤية جد خطيرة تجاه الآخر. فالآخر هنا أضعف، وأقل شأناً من أن يتم التعايش معه إنسانياً. فنظرة الاستعلاء تستولي على عبد المجيد.

والكاتبة لم تضف شيئاً، بل أكدت النظرة السلبية الواقعية، ولم يكن للفن قول آخر يعكس سلبية النظرة تجاه الآخر. إن هذا النمط من الروايات يفضح ضعف رؤية الكتاب، ويجعل كتاباتهم الروائية مصدراً لكشف إيديولوجيا الخطاب، حيث يتحرك الروائيون على وعي زائف، تكرسه النظرة السلبية تجاه الآخر. لقد كان بإمكان الكاتبة أمل شطا أن تعاقب عبد المجيد بعدم قبول تيماء للبقاء عنده بعد أن طلقها وحرمها من ابنتها لسنوات طويلة، بل لقد ادعى موتها وأنكر معرفتها عندما حضرت إلى مكة بحثاً عن ابنتها. إن عبد المجيد يُعد رمزاً أكبر لنظرة من الاستعلاء وتسخير الآخر، وخاصة عندما يكون هذا الآخر غير غربي.

ولا يجد طارق في رواية (لحظة ضعف، ١٩٨١م) لفؤاد صادق مفتي خياراً آخر لتأسيس علاقته بالآخر إلا عن طريق الزواج، ورغم أن هذا الزواج يثمر طفلاً، فإنه ينتهي بالطلاق. ولعل العنوان يجسد فكرة الرواية من حيث العلاقة مع الآخر، وكأن الخطاب يفصح أن التقارب مع الآخر الغربي على وجه التحديد نقطة ضعف يجب توخي الحذر من الوقوع فيها. فمنذ بداية ارتباط طارق بليزا وهو يعيش تجربة انحسار نفسي ومعنوي أدى به إلى الضياع. لقد تعلق طارق بليزا ولم يستطع أن يقاوم جاذبيتها، فيتزوجها دون أن يخبر والديه إشارة إلى حالة الاستلاب وعدم الاتكاء على مرجعية تحميه من السقوط.

هل تشير الرواية، وهي ترسم رحلة طارق في الغرب إلى ضعف العلاقة بين الذات الشرقية والآخر الغربي على وجه الخصوص؟ فرغم تأسيس العلاقة على مبدأ رباط الزواج، فإنها علاقة مستحيلة للتباين بين كينونتين. والمفارقة أن الآخر يُحمل مسؤولية فشل العلاقة، وهو فشل بمقاييس ثقافة شرقية متباينة مع ثقافة الآخر.

ولا تختلف رواية (السنيورة، ١٩٨٠) لعصام خوقير في اتخاذ الزواج مبرراً ورمزاً للقاء الآخر. فهذا حسين يدرس الموسيقى في روما، حيث يقع في حب ماريانا، فتاة إيطالية. يتقدم للزواج منها وتوافق أسرتها. ويقضي العروسان شهر العسل في أسبانيا، حيث يطلعها على مآثر الحضارة العربية، ويأخذها إلى مصر، حيث يتأملان التاريخ المصري القديم. وعند العودة إلى السعودية تنقسم الأسرة حيال قبول هذا الزواج، ففي حين تقبل أم حسين هذا الزواج وتباركه، يرفض الأب لأن الزوجة غير مسلمة، لكن ماريانا تسلم بعد أن أنجبت طفلها الأول.

إن الصراع مع الآخر صراع مستديم، وعميق. فوالد حسين يرفض زواج حسين من الفتاة الإيطالية. فهل جاء الرفض لأنها غير مسلمة؟ إن كان كذلك، فهو رفض إيديولوجي مسبق تتحكم فيه أزمة اللقاء الحضاري. كما أن الرواية لا تفصح عن موقف الأب بعد إسلام الزوجة، وهو ما

يرجح الموقف السلبي من الآخر بالمطلق، وليس على المستوى الشخصي. ولعل في قبول أم حسين هذا الزواج ومباركته ما يمكن أن نرى فيه قدراً من الرؤية البعيدة التي يمكن أن يكون هذا اللقاء فاتحة للتقارب لا التباعد. وأياً يكن فرواية السنيورة ما تزال تدور في فلك الخطاب الذي يجسد رغبة الاستعلاء. فماذا يعني أن يكون الزواج لا غيره من العلاقات الإنسانية هو المدخل الأثير لدى معظم الروائيين في البحث في علاقة الأنا بالآخر؟

يخطو خطاب الاستعلاء خطوة أكبر. ففي رواية **غداً أنسى** يحدث ما هو متوقع. فالآخر منظور إليه بالدونية مسبقاً. فعبد المجيد، الغني والقادم من أرض الحجاز يملك مقومات الاستعلاء على الآخر من أرض جاوة، غير أن خطاب رواية **السنيورة** المضمر يذهب بعيداً في تأكيد هذه النظرة الاستعلائية غير الواقعية. فالآخر هنا غربي، ولا بد من إخضاعه لشروط ثقافة الاستعلاء. ولعل أبرز شروط اللقاء بين الأنا العربية والآخر الغربي أو سواه هو تحقيق التفوق، وتأكيد الانتصار.

❖❖❖❖❖❖

إن المتتبع للرواية العربية، على سبيل المثال رواية (موسم الهجرة إلى الشمال) للطيب صالح، أو رواية (قنديل أم هاشم) ليحيى حقي، أو رواية (عصفور من الشرق) لتوفيق الحكيم، وغيرها من الروايات يلحظ مفارقة عجيبة، وهي أن الأنا يمثلها رجل، بينما الآخر تمثله امرأة[١٧]. فهذا مصطفى سعيد في موسم الهجرة إلى الشمال في مقابل نساء الغرب، وهذا إسماعيل في قنديل أم هاشم في مقابل ميري البريطانية، وهذا محسن في عصفور من الشرق في مقابل سوزي الفرنسية، والأمثلة كثيرة على ذلك. فهل هي مصادفة أن يجمع الروائيون على أن الرجل هو ممثل الشرق في صراعه مع الآخر الغربي؟ أليست نوايا الخطاب هي التي تحرك هذه النظرة الاستعلائية في العلاقة بين الطرفين؟ ورغم أن النماذج المذكورة آنفاً تشكل صدمة في النهاية حيث يندحر الرجل الشرقي في مقابل تماسك وتعنت المرأة الغربية. فسوزي وميري ترفضان اندفاعة كل من محسن وإسماعيل، ويصل الآمر بمصطفى سعيد إلى حد الإقصاء الجسدي للمرأة الغربية نتيجة الرفض وعدم القبول، والنتيجة انكسار اللقاء، والعودة بالخسران.

الملاحظة الأخرى هي الذهاب إلى الآخر، وغزوه في عقر داره لا بداعي الحوار، بل بمعنى الاستيلاء. هل يأتي هذا الفعل السردي ردة فعل للعجز الواقعي، حيث يأتي الغرب ويحقق هيمنته على الأرض والإنسان العربي؟ فالعجز في مقابل القهر الذي مارسه ويمارسه الغرب في علاقته بالشرق العربي سبب قدراً من ردة الفعل تحت وطأة الإحساس بالعجز والإحباط. وكانت النتيجة بقاء العلاقة بين الطرفين متوترة وتتسم بالريبة وعدم القبول.

وإذا أردنا أن ننظر بعين الخطاب المضمر لأحداث ١١ سبتمبر، فليست إلا تداعياً من تداعيات الموروث الثقافي. فالروائيون ساهموا مع غيرهم في إشاعة ثقافة التعويض بالاستعلاء دون النظر للمكونات الواقعية للإنسان العربي في مقابل الآخر الغربي. إن الإنتلجنسيا العربية، التي كانت وما تزال هي الأكثر مسؤولية في إنتاج الوعي العام، قد أخفقت في فهم كيفية العلاقة مع الآخر، فكيف يمكن أن ينظر الإنسان العربي للآخر وقد رضع إيديولوجيا مركبة من الديني والسياسي والموروث الثقافي والاجتماعي مع وعي أقل بالملابسات الحضارية بين الشرق والغرب؟

❖❖❖❖❖❖

إذن، كيف نقرأ الآخر في الرواية السعودية؟ أليست ثيمات الخطاب ذاتها تنعكس بتنويعات مختلفة في الرواية السعودية. فحكم الثقافة واحد، وخطابها المضمر أبلغ من أن يناله التبديل والتغيير. فهو رسوخ تتوارثه الأجيال. فالأنا في الرواية السعودية يمثلها الرجل، بينما الآخر تمثله المرأة كما في الرواية العربية. فماذا يمكن أن نقرأ في هذا السياق؟ لا شك أنها النظرة المحافظة في ذاكرة الثقافة العربية تجاه الرجل والمرأة. فالرجل قوام والمرأة تابعة، الرجل صاحب سلطة، والمرأة حاضنة ومستقبلة. وإذ يعتقد الروائي أنه ينتصر لثقافته فإنه في حقيقة الأمر يسلبها أجمل ما تستحق، ويمنح غيرها القيمة الأهم وهي قيمة العطاء. فلماذا تنحرف الرواية؟ أكاد أجزم أن من يكتب الرواية لا يريد أن يصل إلى هذه التصور، لكنه الخطاب الخفي المخادع الذي يفضح الروائيين ويؤكد فحولة الخطاب[١٨]. ولا فرق بعد ذلك، من يكتب الرواية سواء كان رجلاً أو امرأة. فالكاتبة أمل شطا وصلت للنتيجة ذاتها التي وصل إليها من قبل محمد علي مغربي في رواية **البعث**، وأكدها حامد دمنهوري في **ثمن التضحية**، وأكدها عصام خوقير في منح بطله حسين كل الطاقات الخلاقة والمبالغات الخارقة[١٩]. فهو تقي وورع وموسيقي، ورغم الحذر من هذه الخلطة غير المبررة سردياً، فإنها تؤكد حشد كل الفضائل في بطل يمثل الشرق العربي خير تمثيل.

الزواج مشتق من الزوج الذي يحتاج إلى زوج آخر يكمله، هدفه البناء، لكنه في النماذج الخاضعة للدراسة بداية للهدم والتباعد وقطع الصلات. فأحمد في رواية **ثمن التضحية** يفشل في أن يصل إلى فائزة التي ترمز إلى بيئة اجتماعية تتمتع برقي وتنمية غير مشهودة في بلده. فائزة كانت الرقم الصعب في الرواية فهي لا تمثل ذاتها، كما أن صوتها كان غائباً في الرواية. وهنا يتوارى هذا الآخر تحت سلطة الإقصاء. أما أسامة في رواية البعث فهو الباحث عن آخره عن طريق الزواج، لكنه زواج هيمنة إيديولوجية، فزواجه مربوط بإسلام كيتي الهندية المسيحية، وعندما يتحقق إسلامها، يتم التقارب. أليس الزواج مشروعاً في هذه الحالة مع بقائها على دينها؟!

❖❖❖❖❖❖

٧. روايات ما بعد الحادي عشر من سبتمبر:

ويمكننا أن نمد فترة المسح لحضور الآخر في الرواية السعودية إلى ما هو أقرب زمنياً كشاهد على بقاء النظرة السلبية الاستعلائية على الآخر. فقد صدر بعد الحادي عشر من سبتمبر سلسلة من الروايات التي حضر فيها الآخر بقوة، وبأسئلة أكثر حدة وإلحاحاً. من هذه الروايات (نباح، ٢٠٠٥) لعبده خال، و(البحريات، ٢٠٠٦) لأميمة الخميس، و(فخاخ الرائحة، ٢٠٠٢) ليوسف المحيميد، وروايتي (شرق الوادي، ٢٠٠٤، وريح الجنة، ٢٠٠٦) لتركي الحمد، ورواية (سِتْر، ٢٠٠٥) لرجاء عالم، ورواية (بعد المطر دائماً هناك رائحة، ٢٠٠٣) لفاطمة بنت السراة، حيث تعد هذه الرواية من أكثر الروايات إثارة لمفهوم الآخر بعد الحادي عشر من سبتمبر. ويمكننا للاستدلال أن نركز على ثلاث روايت تُعد الأكثر تقديماً للأخر بمستويات مختلفة، هي على التوالي: **سِتْر**، **وبعد المطر دائماً هناك رائحة**، **وريح الجنة**.

١/٧- وتتعدد مستويات الآخر في رواية (**سِتْر**)[٢٠] لرجاء عالم في شبكة معقدة من التفاعلات. ولعل أهمية موضوع الآخر في هذه الرواية يكمن في المعالجة العميقة والهادئة، دون افتعال روائي، أو ضجيج خطابي. لقد طرحت الرواية إشكالية الأنا والآخر في الداخل الاجتماعي، وفي العلاقة الفعلية مع الآخر الأجنبي، وبخاصة الأمريكي. ولم تشذ الرواية في توظيف العلاقة مع الآخر عبر ثيمة الزواج، وكأن هذا الشكل هو الشكل الأنسب لبيان درجة الاختلاف عبر فرضية التلاقي. فالتلاقي يتحقق لا ليستمر، بل لينقطع وتتأكد مبدأية التنافر.

وتقدم رواية **ستر** مفهوماً مركباً للعلاقة مع الآخر من حيث هو، «انفتاح المحارة على اللؤلؤة، عملية افتراس، جرح، حيث تُحِل الآخر في منتهى ضعفك، تُحِله في المقتل منك، وتسمح له بأن يعبث في ذاك المقتل يتحرك بجلافة. كل علاقة مع الآخر ما هي إلا غلطة، وحياتنا هي مجموعة المحاولات والمحاولات لتصحيح تلك الغلطة»[٢١]. بهذا المعنى غاصت الرواية في تشكيلات مختلفة من العلاقة بين الأنا والآخر. فتبادل كل من الأنا والآخر مراكز الجذب والاستقطاب، تبادلا القوة والضعف، لكن بقيت الأنا وجهة النظر السائدة والمهيمنة بقوة السرد وتمثيلاتها الرمزية. وهي بذلك وفية لتراث الرواية السعودية والعربية.

أبرزت الرواية علاقة المرأة بالرجل في مجتمع محافظ، واختبرت درجة التلاقي عبر مقومات الزواج التقليدية فكانت النتيجة التنافر بالطلاق. وجهة النظر المقدمة في هذه الرواية نسوية بامتياز. فالبطلات نساء عناين من الرجل، وخاصة مريم وطفول. أما مريم فهي الأكثر إحساساً

بأناها، فلم تدم علاقتها بمحسن سوى ثلاثة أشهر سعت خلالها للطلاق الذي تحقق لها. وبعد طلاقها جربت لقاءها مع الرجل، بدر، وفق اختيارها. فكانت هي ضابط العلاقة. وعندما أرادت أن توثق عقد زواجها في المحكمة اصطدمت بضرورة احضار الولى فاحتجت بأنها تملك ولاية نفسها كونها امرأة بالغة عاقلة[٢٢]، وهو ما لم يرق للمحكمة. لقد عاشت مريم حساسية استثنائية في نظرتها للرجل. واتسعت إشكاليتها مع المؤسسة الذكورية في مجتمعها. ولم تر فرصة للتلاقي بمعنى الند للند. وإذا كان بدر قد أشعرها بذلك، بل وحقق لها بصفته الشخصية هذه الأنا، فإن المؤسسة الذكورية كانت أقوى من الفرد الرجل. فالمحكمة والقضاة هم سلطة أكبر، والنظام الاجتماعي بأعرافه وتقاليده سلطة موازية، والأنظمة المسنونة مؤكدة للسلطتين السابقتين. لقد خلصت مريم إلى ضرورة البحث عن صيغة تعيد درجة التوازن بين الرجل والمرأة في مجتمعها.

أما طفول فكانت الأضعف. قبلت الزواج من فهد، ابن الشيوخ المعتد بنفسه وتاريخ عائلته، رغم حبه لها. قبلت طفول الجداوية الانتقاص من طبيعتها الحضرية رغم أنها حائلية الأصل. وللتمياز بين العائلتين ومرجعيتيهما القبلية المتباينة لم ترحب عائلة فهد بهذا الزواج، مما دفعهما للعيش في أمريكا[٢٣]. لقد اختبرت الرواية فكرة تقديم المكان المحايد لتفريغ شحنات التضاد بين الطرفين، وتأسيس تلاقٍ منقطع الجذور. فهل تنجح التجربة؟ برهنت الرواية أن تراكم التنافر أشد من فرضية التلاقي حتى لو تم ذلك في مكان محايد. فبعد سنة ينقطع الرباط وتتأكد القطيعة بطلاق اجتماعي لا يمكن معه التلاقي.

المفارقة أن مريم اكتشفت أن في داخل مجتمعها، جدة، يعيش آخر، أجنبي، أمريكي وفرنسي، وبريطاني، وبولندي[٢٤]، يمارس حياته بولع منقطع النظير لهذه الأرض. لم تستسغ مريم هذه النظرة الأسطورية للصحراء[٢٥]، وهو ما دفعها لتفنيد هذه الرؤية، بقولها: «لكن ليست هذه هي كل السعودية»[٢٦]. من هنا، تختلف زاوية الرؤية، وإديولوجية الخطاب، والغاية الكلية من التموضع في المكان. فكما رأت طفول وفهد في أمريكا نمطاً مسالماً لا يمت بصلة لتاريخهما، فإن الأجنبي القادم للسعودية لم يشتبك مع الحياة اليومية، ولم يعنه منها إلا المواطن التي يرى فيها متعته ومتنفسه. فالعلاقة بالمكان في هذه الحال علاقة عابرة، تتعامل مع المكان حسب احتياجها، دون استدعاء تاريخه وأنماط العيش فيه.

وتقدم الرواية موضوع الآخر بمعناه التقليدي كما ورد في الروايات الأخرى. فبين زايد أخو طفول وربيكا الأمريكية يقوم الحب ويتم الزواج[٢٧]. وهي معادلة تقليدية، فحيث يكون الرجل شرقي الهوية، تكون المرأة غربية الانتماء. وفي كل الأحوال العلاقة لا تستقيم، إذ تحضر العوائق بأشكال متنوعة. ففي حالة زايد وربيكا يقع الخلاف على اقتراف ربيكا للخيانة الزوجية[٢٨].

وهو ما يدفع زايد إلى الانتحار للخلاص من ألم الفضحية[٢٩]. ومن خلال هذه التوليفة السردية تتقطع سبل التلاقي وكل محاولات بناء الجسور. وهي عوائق حضارية ودينية وثقافية يصعب تجاوزها. ورواية ستر تنسجم مع السائد العام من الروايات التي قدمت الآخر. فالفرضية ذاتها، ومطابقة الواقع جزء من الثيمة الروائية، ووضع الآخر في موقف الهامش يتكرر. ويمكن أن تحمل خيانة ربيكا على موقف مضمر عن طبيعة الغرب الذي لا يمكن الثقة به. فزايد أحب ربيكا وتزوجها وأحضرها لبلده رغبة في إقامة الحياة الكاملة بينهما. لكن البوح بالخيانة يعطل مشروع استمرار التلاقي. وإذا كانت ربيكا قد انطلقت من مفهومها الحضاري في التكفير عن خطأ الخيانة بالبوح والاعتراف، فإن زايد يصطدم بقيم الشرف والعيب التي تقف بينه وبين ربيكا. هذه معضلة وجودية رأت ربيكا حلها بالتخلص من مأزقها بالبوح، بينما زايد الشرقي يرى أن لا معنى للتطهر إلا بمزيد من الستر والإخفاء والتوبة. من هنا اختارت رواية ستر أن تبني جدليتها على فرضية العلاقة بين الرجل والمرأة، بين زوج شرقي وزوجة غربية، بين زوج متمسك بتقاليد الشرف منسجماً مع أناه الحضارية والدينية، وبين زوجة غربية تعيش واقعها الحضاري غير مدركة بواجبات التلاقي، وأهمها الوعي بتكوين الطرف الآخر.

وتختلف رواية **ستر** عن كثير من الروايات في مستوى اختبار فرضيات مختلفة للعلاقة. لقد أظهرت الرواية مسحاً شاملاً للتعامل مع الآخر عبر بنية سردية محفزة على الإقناع. فالآخر مختلف بدرجات متنوعة. فالآخر هو المرأة في مقابل الرجل، وهو المؤسسة الذكوية في مقابل المرأة، وهو الآخر الأجنبي، حيث يحضر في مكانه وفي أمكنة أخرى. لقد بدت الذات أكثر حدة في طرح رؤيتها، حيث الآخر ظل غائباً، حاضراً فقط من خلال تسريبات الذات. فالرواية تمثل مركز الأنا، المرأة بالذات، ومريم وطفول بالتحديد. وما عدا ذلك فهو آخر يقبل الهجاء، ويقبل التشريح، ويقبل تفريغ هموم الذات الحائرة.

٢/٧- وتعد رواية **بعد المطر دائماً هناك رائحة** من أخطر الروايات توظيفاً للآخر من حيث حدة الخطاب وبيان تفوق الأنا الدينية على الآخر الغربي بالتحديد. تقوم رواية **بعد المطر دائماً هناك رائحة** على فرضية احتواء الآخر، بل وإمكانية تغيير هويته الدينية والاجتماعية واللغوية. وهي بهذه الرؤية تعد من أكثر الروايات جموحاً في مسألة احتواء الآخر وتدجينه، بدءاً من المظاهر الخارجية، كالاسم واللغة، وانتهاء بالدين والثقافة. هل فرضية احتواء الآخر ذات جدوى؟ رغم أن الأصل يكمن في الإبقاء على الاختلاف والبحث عن المشترك بين الأقوام، امتثالاً لقوله تعالى: «وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله اتقاكم»[٣٠]. وعليه، يبقى الدين خياراً، لا شرطاً للتعارف.

رواية بعد المطر دائماً هناك رائحة، نص سردي أثقلته إيديولوجيا الكاتبة، وهيمنت عليه فكرة ذم الآخر، وفي المقابل الإعلاء من الأنا. تتلخص الرواية في تخلي (لينا) المسيحية التي تقيم مع زوجها في السعودية عن طفلها الذي تركته لدى أسرة سعودية واختفت دون بيان أسباب أو مبررات غير ما كان تأويلاً من مسار السرد. لقد صورت لينا في الرواية على أنها شبقة، تحب المال الذي تسقط معه كل القيم حتى حضانة ابنها ورعايته. لقد شكل هذا التخلي عن الطفل صدمة ومركزاً لكل أحداث الرواية. فمنه انبثقت فكرة بيان صورة الإسلام وعدله وتسامحه في مقابل فساد الآخر، المسيحي على وجه التحديد. وتحاول الرواية إحداث توازنات في الرؤية، فتقدم نماذج مختلفة من الديانتين، الإسلام والمسيحية، لبيان أن العلة ليست في الديانات بقدر ما هي في أتباع الديانات. فهذه أم ديفيد يرق قلبها للإسلام حتى تعتنقه عن قناعة مطلقة حسب تعبير الرواية. وفي المقابل هناك أم سمر اللبنانية المسلمة اسماً لا فعلاً، كما تكشف أحداث الرواية. وإمعانا في تأكيد الخطأ البشري، فهذا أبو مشعل السعودي نموذج للمسلم ذي الخطايا الكبيرة. إذن تبني الرواية فكرتها على فساد الفعل لا فساد الاعتقاد. والآخر فاسد في فعله حسب أحداث الرواية. فلينا لم تذم في الرواية لاعتقادها، بل ذمت لفساد فعلها، ولعدم إنسانيتها. وبين الاعتقاد والفعل مسافة قصيرة جداً. فالاعتقاد وحده لا يكفي لتمام العقيدة، بل يحتاج إلى فعل يؤكده، أو ينفيه. إن ترك لينا لابنها دون سؤال أو معرفة بعواقب فعلها يدخلها في خانة اللامبالاة، وعدم استحقاق جدارة الأمومة.

طفل رضيع تستقبله (ماجدة) السعودية لكي يبقى ساعات حتى تعود أمه لينا لتأخذه، فإذا به يبقى العمر كله. لقد عانت ماجدة من هذا الفعل غير الإنساني، وعانت أكثر من خوفها على هذا الطفل. قررت رعاية الطفل الذي اسمته محمداً مع رضيعها خالد. نشأ محمد مميزاً ببشرته البيضاء مسلم المعتقد والفعل، سعودي اللسان والثقافة والهوية.

إن خطاب الرواية يتحرك على أرضية إيديولوجية خصبة، حيث ينتفي نقد الذات، ويتأكد فساد الآخر. وعليه، تتأسس ضرورة إنقاذ الآخر من شر نفسه بالإسلام. وإذا كانت فرضية إسلام الآخر هي الحل لنزع شروره كما تطرح الرواية، فإن مشكلة المسلمين أصلاً هي في عدم تأثير الإسلام في حياتهم لبعدهم عن التصور السليم للإسلام. فمعظمهم مسلم بالاعتياد لا بالاعتقاد، وإن أسلموا بالاعتقاد لم يسلموا من فشل الفعل الذي ينزع عنهم جدارتهم بالإسلام.

نشرت هذه الرواية في عام ٢٠٠٣ بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر بكل ما لهذه الأحداث من تأثيرات عميقة عالمياً وعربياً. ولعل خطورة هذه الأحداث أنها مست شيئاً من تكويننا

الاجتماعي والثقافي والديني في السعودية، لذلك، فإن هذه الرواية تمثل بياناً إيديولوجيا في الرد على أمريكا. وهناك صفحات تذم حضارة أمريكا[٣١]، وهناك صفحات تشرح عقيدة التوحيد في أصولها الأولية[٣٢]. ويأتي ذلك مغلفاً بإطار سردي افتقر للنضج في توظيف المعلومة حتى أغرق بعض مراحل نمو الرواية في طرح مباشر. وإذا كانت الرواية تحتمل القول على أكثر من وجه، فإن فرضية أن الرواية، أي رواية، لا تقول الحقيقة ولكنها لا تكذب[٣٣]، تصطدم بالجدية والإيديولوجية التي بنيت بها وعليها الرواية حتى تحولت إلى كتاب في العقيدة أكثر منها رواية باعثة على الأسئلة.

٣/٧- أما رواية **ريح الجنة** لتركي الحمد فهي من أكثر الروايات مباشرة في طرح موضوع الآخر من خلال أحداث الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١. الرواية مباشرة في طرحها وفي مقاربتها للحدث، ولكن من خلال قراءة فاحصة لمشكلة الذات مع الآخر. أي أن الرواية تسعى لفهم الذات في لحظة صراعها مع الآخر. وتعتبر هذه الرواية من الروايات التي ركزت على تشريح الذات عبر اختراق تحصيناتها، وإخضاعها للمساءلة من أجل معرفة لماذا التنافر بدلاً من التلاقي؟ لقد اعتمدت الرواية تقنية إعادة التكوين النفسي والاجتماعي والديني للشخصيات، أكثر من اهتمامها، بحوادث التفجير التي كانت تمثل لحظة التصادم الكبرى التي لا تلاقي بعدها. فالرواية معنية بقراءة الفضاءات التي رعت الأنوات الحضارية لمجموعة من الأشخاص الذين نفذوا فعلهم على خلفية الانتقام الحضاري.

تقدم رواية **ريح الجنة** لحظة الصراع بمحفزات دينية مؤثرة. فمواجهة الموت بدت سهلة لهؤلاء الأشخاص، حيث الوعد بالجنة هو الدافع الوحيد للإقدام على الفعل[٣٤]. وهو ما يدفع لقراءة فرضية الرواية من أن البحث عن المكافأة لدى هذه الشخصيات، أهم من النتيجة وأثرها على العلاقات الحضارية بين الشعوب. فالتوازن بين متطلبات العلاقة غير مؤسس على أرضية واقعية، بل بين سماء علوية وأرض سفلية. فانتقل الصراع ببواعثه الدينية من صراع يقبل الجدل، ويقبل الاختلاف، وربما التلاقي، إلى قطيعة دائمة.

استحضرت الرواية وقائع مباشرة، واقعية حينئذٍ، تاريخية الآن، سجلت الوقائع، وقدمت البناء المتخيل من خلال نسج دوافع الشخصيات وتكويناتها العرقية والدينية. فالرواية عبارة عن سير للذاهبين إلى الجنة عبر بوابة الدم المسفوح من الآخر الكافر. من هنا، فحدث الرواية ينتهي منذ الصفحات الأولى، حيث تمت الحكاية وبقى صوت الماضي الذي أوصل هذه الشخصيات إلى لحظة الانفجار. وتكشف لحظة مواجهة الأنا عن شخصية مهشمة ويائسة. فمحمد قائد

عملية التفجير شخصية غذت نموها من حطام الآخرين من معارفه وأصدقائه. فأحمد الذي ألهم محمد في بدء رحلة الجهاد انتقل من ضياع إلى ضياع، من ضياعه الاجتماعي والنفسي إلى التطرف في رؤية العالم من منظور إقصائي نهائي. وقد تأسس الرفض على مبررات دينية وتأويلات نصوصية مختلف في تأويلها أصلاً، للوصول إلى لحظة المواجهة المادية.

هذه الرواية ربما هي الرواية الوحيدة التي اعتنت بتشريح الذات بعيداً عن تعليق الفشل الحضاري على الآخر الغربي. وبدت واعية بشرطها الموضوعي، وبضرورة فهم المشكل الحضاري من داخل التكوينات الاجتماعية والحضارية للأنا. غير أن هذه الأنا لا يمكن تعميمها، فهي أنا مأزومة، غير حضارية، جاهزة للفناء من أجل الحياة الأخروية، لا الحياة الأرضية. وعليه، فإن هناك فرقاً جوهرياً بين الأنوات في الروايات السابقة التي تتمزق فيها الأنوات بين رغبتها في الحياة كما تمليها الموروثات الثقافية والحضارية، وبين الاحتياج للآخر. ولذلك، ما انفك تجريب التلاقي عبر ثيمة الزواج على المستويين الشخصي والرمزي يتجدد. فهي أنوات متحركة، قلقة، دؤوبة في سعيها للوقوف عند مستوى الند، حتى وإن رفضت، فرفضها احتجاج، لا رفض إقصاء في هذه الحالة، وهو مستوى يبقى عند الحد الطبيعي. لقد تنبهت رواية **ريح الجنة** لهذا المأزق الحضاري في العلاقة مع الآخر عندما كشفت عن سقف أعلى للحياة لا يمكن أن يتحقق إلا باستنشاق ريح الجنة عبر موت الآخر. وهذه الأنا الاستثنائية معاكسة حتى لشرطها الديني الذي يفترض التلاقي قبل التصادم، ﴿ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ﴾[٣٥]. هل الرواية، رغم مباشرتها وضعف تقنياتها السردية، تمثل موقفاً من الآخر، أم من الذات؟ أعتقد أن الرواية بناءة من حيث هي نص قابل للتأويل الذي تتداخل فيه العلاقات المركبة والمعقدة في آن. فهي رؤية نحو الذات أكثر منها نحو الآخر. فالآخر في الرواية قابع في شرطه التاريخي والوجودي، لا تسائله، ولا تحرص على تقديم حججه، ولا رؤيته للأنا المقابلة له. إن مركز الرواية يفصح عن موقف نقدي تجاه الأنا لا يمكن فهمه إلا من خلال جدلية العلاقة مع الآخر. فدوافع الأنا في الرواية دوافع ردة فعل، وليست دوافع مبتكرة، أو ابتدائية. فالموقف بدا انتقامياً. ولعل أبرز مشكلة واجهتها الرواية هي كونها وقعت بين شرطي التخييل والواقع، مع غلبت المنحى الواقعي على المتخيل. فتحولت الرواية إلى تشريح للذات وشرح للدوافع أكثر منها سبر لمعضلة العلاقة المتفجرة.

٨- خاتمة:

مرت مناقشة حضور الآخر في الرواية السعودية من خلال التوقف أمام محطات مختلفة من مراحل نمو الرواية السعودية، حيث هيمن خطاب غير متجانس مع طبيعة الآخر، إما خوفاً منه كما في رواية (التوأمان)، أو تماهياً معه كما في رواية البعث، أو تردداً كما في رواية (ثمن التضحية)، أو استعلاء عليه كما في روايات (غداً أنسى، والسنيورة، ولحظة ضعف، وبعد المطر دائماً هناك رائحة). وقد انفردت روايتي (سِتْر، وريح الجنة)، الأولى كونها جاءت وفق معالجة فنية ناضجة رغم تقاطعها مع الثيمات الكبرى لهذه العلاقة، والثانية كونها انفردت بتشريح العلاقة من منظور الذات لا من منظور الآخر، وتحميل الذات بعضاً من مسؤولية الأزمة.

لقد آثرنا في مناقشة هذا الموضوع أن نقف على أول رواية صدرت، التوأمان، فإذا بها تلعب دور الموجه لمسيرة الرواية التي تناولت موضوع الآخر. فالآخر في هذه الروايات كان عدواً، وشراً، وفساداً، وموضوعاً للاستعلاء عليه. لقد ساعد على شيوع هذه الثقافة الطاردة للآخر حجم التحدي الذي مثله الآخر عموماً، والآخر الغربي خصوصاً، في حياة الأمة العربية منذ زمن بعيد. فمن تحد عسكري إلى سياسي، ومن اقتصادي إلى ثقافي، وظلت الأمة تناضل من أجل الحفاظ على شخصيتها. ولعل الصراع قد كبر حجمه مع مطلع النهضة العربية في القرن التاسع عشر، خاصة مع تزايد موجات الاستعمار السياسي والاقتصادي وما تبعها من مؤثرات ثقافية واجتماعية. فكان الآخر دائماً يذكر المجتمعات العربية بعجزها وضعفها. من هنا جاءت التكوينات الثقافية تجاه الآخر متسقة مع صور واقعية سلبية. ولم يسعف التطور الزمني الصاخب خارج الرواية أن يلتقط الروائيون رؤية بناءة تجاه الآخر، فمع مزيد من هيمنة الآخر سياسياً واقتصادياً وعسكرياً، بقيت نمطية الصورة التي شكلها الواقع المادي ماثلة أمام الروائيين.

ولعل أخطر ما في موضوع الآخر في ثقافتنا أن صورته جاءت تعميمية، وانتقامية، واستعلائية. فالآخر دائماً هو الطامع فينا، والآخر هو المهيمن على قرارنا. لقد تجنب الروائيون أن يطرحوا لماذا؟ ولماذا هذه، لو طرحت، لفجرت كثيراً من الأسئلة، ولحققت وعياً أكبر بماهية الآخر ومدى أهميته في حياتنا. فالآخر جزء من تكويننا سواء في البعد السياسي أو الاقتصادي أو التقني، أو حتى في المشترك الإنساني، وعليه فإن وجوده حتمي فرضه عامل الاحتياج إليه، وليس من واقع الترف الحضاري. فهو مشكلة في وجوده، وفي عدم وجوده.

ويمكن استثناء القليل من التجارب التي انصرفت للتعبير عن آخر غير غربي كما في روايات **البعث وثمن التضحية وغداً أنسى**، الذي كان الآخر في الأولى هندياً، وفي الثانية عربياً، وفي الثالثة

اندونيسياً. وفي كل الحالات لا يشذ تصنيف الآخر من حيث تمثيله بالمرأة في مقابل تموضع الأنا في تمثيلات الرجل. ففي رواية **البعث** كان الآخر (كيتي) الهندية، وفي **ثمن التضحية** (فائزة) المصرية، وفي **غداً أنسى** (تيماء) الأندونيسية. ولسبب غير معروف شذت رواية **البعث** في تصوير الآخر سواء في فكرة الإفادة من الآخر، أو من حيث تماسك العلاقة في بعدها الإنساني بين أسامة وكيتي. وهي رؤية سعى فيها الكاتب إلى تقديم الآخر وفق رؤية متسامحة وبناءة. وهو اختراق لهيمنة الرؤية الإيدولوجية التي تحرك على أرضيتها الروائيون بمبررات سردية مختلفة. فجاء الخطاب حاداً، وغير إنساني، ومثقل بهموم الواقع. لقد تعثر الروائيون في تقديم رؤى فنية تتغلب على محبطات الواقع، وتبني فكرة تجسير الفجوات في العلاقة بين الأنا والآخر.

لا شك أن اشتغال الرواية السعودية بموضوع الآخر هو جزء من انشغالات الرواية العربية نفسها. فهي رواية منسجمة مع واقعها، متأثرة بمجمل الخطاب السائد في الرواية العربية تجاه الآخر، حيث لم يكشف البحث في توظيف الآخر ابتكاراً خاصاً أضافته الرواية السعودية في موضوع الآخر، باستثناء مغامرة تركي الحمد في رواية **ريح الجنة** بتوجيه البوصلة تجاه فهم تركيبة الأنا في وعيها بالآخر، وكذلك باستثناء بعض التلوينات الخاصة بنكهة الثقافة المحلية من حيث طبيعة الأحداث، أو أولوية القضايا وتغليب روح المحافظة في معظم الروايات الخاضعة للدراسة.

المراجع والهوامش

١. البازعي، سعد، وميجان الرويلي. دليل الناقد الأدبي. الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، ط٣، ٢٠٠٢م، (ص ٢١).

٢. سورة الروم، الآية (٢٢).

٣. سورة الحجرات، الآية (١٣).

٤. الجابري، محمد عابد. "الغرب والإسلام". مجلة فكر ونقد. العدد ٢، أكتوبر ١٩٩٧م، (ص ١٠).

٥. البازعي، (ص ٢٢).

٦. فضلتُ استخدام مصطلح (التلاقي) بدلاً من (الاتفاق) لاستحالة الاتفاق. في حين أن التلاقي ليس بالضرورة اتفاقاً، بل احتمالية تبادل مصالح والتقاء حول مشتركات إنسانية عامة.

٧. سورة الحجرات، الآية (١٣).

٨. الحسيني، نسيب. الغرب المتخيل: رؤية الآخر في الوجدان السياسي العربي. بيروت: دار الفارابي، ٢٠٠٤م، (ص ٦٠).

٩. الجابري، (ص ٥).

١٠. الهاجري، سحمي. سجال الخطابات: قراءات مختارة في الأدب السعودي. الأحساء: نادي الأحساء الأدبي، ٢٠٠٩م، (ص ٢١٧).

١١. المرجع السابق، (ص ٢٢٢).

١٢. عواد، محمد حسن. أعمال العواد الكاملة (تأملات في الأدب والحياة). المجلد ١، القاهرة: دار الجيل للطباعة، ١٩٨١م، (ص ٣٦٩).

١٣. الشنطي، محمد صالح. فن الرواية في المملكة العربية السعودية. جازان، نادي جازان الأدبي، ١٩٩٠م، (ص ٤٥).

١٤. الحسون، محمد علي. محمد على المغربي وآثاره الأدبية. الرياض: مكتبة العبيكان، ٢٠٠١م، (ص ٣٦٩).

١٥. دمنهوري، حامد. ثمن التضحية. ط ٢. الرياض: النادي الأدبي بالرياض، ١٩٨٠،)ص ٢٢٠-٢٢٤).

١٦. المصدر السابق، (ص ٢٥٩).

١٧. انظر بتوسع معالجة هذه القضية لدى جورج طرابيشي في كتابه (شرق وغرب، رجولة أنوثة: دراسة في أزمة الجنس والحضارة في الرواية العربية. بيروت: دار الطليعة. ط٢، ١٩٩٧م، ص ٥- ١٧).

١٨. الغذامي. ثقافة الوهم: مقاربات حول المرأة والجسد واللغة. الدار البيضاء، المركز الثقافي العربي، ١٩٩٨م، (ص ٥١ - ٥٢).

١٩. القحطاني، سلطان سعد. الرواية السعودية في المملكة العربية السعودية: نشأتها وتطورها من ١٩٣٠ إلى ١٩٨٩م. الرياض: مطابع الذهبية، ١٩٩٨م، (ص ٢٠١).

٢٠. عالم، رجاء. ستر. الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، ٢٠٠٥م.

٢١. المصدر السابق، (ص ٩٧).

٢٢. المصدر السابق ، (ص ٢٥٩ - ٢٦١).

٢٣. المصدر السابق، (ص ٨٦ - ٨٧).

٢٤. المصدر السابق، (ص ٢٠٧).

٢٥. المصدر السابق، (ص ٢١١).

٢٦. المصدر السابق، (ص ٢١١).

٢٧. المصدر السابق، (ص ١٢٦ - ١٢٧).
٢٨. المصدر السابق، (ص ١٩٥).
٢٩. المصدر السابق، (ص ٢٦٢).
٣٠. سورة الحجرات، الآية (١٣).
٣١. بنت السراة، فاطمة. بعد المطر دائماً هناك رائحة. بيروت: الانتشار العربي، ٢٠٠٣م، (ص ١٠ - ١٢).
٣٢. المرجع السابق، (ص ٥٣ - ٥٩).
٣٣. إيكو، إمبرتو. ٦ نزهات في غابة السرد. الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، ٢٠٠٥م، (ص ٩).
٣٤. الحمد، تركي. ريح الجنة. ط٣. بيروت: دار الساقي، ٢٠٠٦م، (ص ٢٨- ٢٩).
٣٥. سورة الحجرات، الآية (١٣).

جامعة الطائف

الملفوظ الشعري والمنطوق النفسي في ديوان ((وحي الحرمان))

د. حامد بن صالح الربيعي

أستاذ النقد الأدبي والبلاغة المشارك

جامعة أم القرى

مجلة جامعة الطائف – الآداب والتربية (اللغة العربية وآدابها)
المجلد الأول – العدد الرابع – ذو الحجة ١٤٣١هـ – ديسمبر ٢٠١٠م

الملخص

يتناول هذا البحث ديوان «**وحي الحرمان**» **للشاعر الأمير عبدالله الفيصل** مرتكزا في تحقيق أهدافه وغاياته على محورين رئيسين؛ أولهما يخص الشاعر الأمير، وفيه يتناول آليات الكتابة الشعرية، أو الملفوظ الشعري، والآخر يخص الأمير الشاعر، وفيه بحث عن الجانب الإنساني للشاعر، كما يتجلى في نصوص ديوانه، أو ما يعرف بالمنطوق النفسي، متسلحاً في ذلك بالمنهج الوصفي، مفيداً من معطيات بعض المناهج التي لا تمانع الدراسات الأسلوبية من الاستعانة بها، بالقدر الذي يمكّن من مواجهة النص، وقراءته قراءة نقدية تتعامل مع الأحكام التي تنتجها النصوص. لا مع أحكام سابقة تسقطها على النصوص، فهي لاتستند إلى أحكام، بل تنتج الأحكام المتعلقة بالمحورين المنصوص عليهما في عنوان البحث.

ولعل البحث - بناء على ما تقدم - قد انتهى إلى حقيقة لا تقبل الشك أو الجدل، وهي تعالق الملفوظ الشعري والمنطوق النفسي في صياغة هذا العمل تعالقاً مدهشاً، إذ تمكن الشاعر أن يحول حياته النفسية إلى حياة فنية، أو إحساسه المتألم إلى إحساس فني، فكان بذلك ديوان ينبئ عن شاعر متمكن، حقق الرؤية التي تحدد شروط الشعرية المتميزة .

مدخل

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده ... وبعد:

هذه القراءة في ديوان (**وحي الحرمان**) تلتزم المقروء بقدر ما تتجاوزه أحيانًا، إذا كان للتجاوز قيمة، وهي تلتزم النص متخطية المؤثرات الحافة به إلى حد بعيد، وصولاً إلى قوانين الديوان الشعري المقروء ونظامه.

وهذا النوع من القراءات لا يتعامل مع أحكام سابقة يسقطها على النصوص، بل يتعامل مع أحكام تنتجها النصوص، فهي قراءة في الغالب لا تستند إلى أحكام، بل تنتج الأحكام، انطلاقًا من أن المدونة الأدبية مادة خام، تتحكم فيها قوانين وضوابط تعلن عن طريقة ما في نسج تلك النصوص وبنائها.

والبحث في سعيه إلى الكشف عن تلك القوانين يدرك تمامًا المخاطر والمزالق التي يمكن أن تواجهه، وهو يرغم النص على الإفصاح عن قوانينه.

ولا يخفى أن مخاطر النقد على الأدب كثيرة، إذا لم يكن الناقد متسلحًا بمنهج متماسك، يدخل به إلى النصوص أو النص يفتش في عالمه الغامض، ويواجه أسراره المتنوعة، حينها يتمنع النص على الناقد ويستعصي، مما يدفع بالناقد إلى الاستسلام، واللجوء إلى قوالب نقدية محفوظة، يسقطها على النص تجنبًا لعجزه، فيزداد بعدًا، ويزداد النص انغلاقًا وتمنعاً، ومع هذا فإن البحث لن يمانع من الاستئناس بالنصوص النقدية القديمة والحديثة التي من شأنها أن تخدم عملية التعاطي مع النصوص الشعرية، دون أن تتعارض أو تتناقض مع منهجه.

سيكون همّ البحث في كل مفرداته وضع اليد على آليات الإبداع وقوانينه متسلحًا بالمنهج الوصفي، فلا يستعين بما هو خارج عن النص إلا بمقدار ما يراه مساعدًا له في اكتشاف ما يعسر عليه اكتشافه، من ذلك على سبيل المثال: معطيات المنهج التاريخي، ومعطيات المنهج النفسي . والدراسات الأسلوبية - كما هو معلوم - لا تمانع من الاستعانة بما هو خارج النص بمقدار ما يمكّن من مواجهة النص.

لقد عاش الأمير عبدالله الفيصل (رحمه الله) - كما يذكر في مقدمة (**وحي الحرمان**) - حرماناً من عطف أبيه وحنوّه عدداً من السنوات، تبدأ من السنة الأولى من عمره، مما ترك في نفس الأمير أبلغ الأثر من الحرمان، وهذا ما أكد عليه حين قال: فأنا لا أزال محروماً.

تربى الأمير في كنف جده الملك الراحل عبدالعزيز آل سعود (يرحمه الله) أمداً لم يزد

على خمس سنوات، تركت في نفسه - على قصرها - آثاراً كبيرة، ثم تولت تربيته والدته حتى التحق بوالده في الحجاز، حيث ألحقه بمدرسة من مدارس الشعب، فاختلط بالشعب في المدرسة و(الحارة)، وشاركه أفراحه وأحزانه، وشاطر أبناءه ممن سعد بمزاملتهم آلامهم وآمالهم، انقطع عن الدراسة بعد حصوله على شهادة التعليم الابتدائي، فكان الفراغ الذي سدّه بالمطالعة والرياضة.

معنى ذلك أن الشاعر عاش درجة قصوى من الحرمان، فهو لم يلد وفي فمه ملعقة من ذهب كما يظن الكثيرون، وإنما عاش الحرمان كما يتصوره هو، سواء بفعل غياب الأب، أو بفعل التنقل بين الأمكنة، مما لم يمكنه من الاستقرار الانفعالي، فكان (**وحي الحرمان**) حسبما يذكر في مقدمته (صورة طبق الأصل) لحياته، وصدى لشعوره وعواطفه وآماله وخيالاته وانفعالاته النفسية، والحرمان الذي يعنيه هو مرادف للشقاء أو بداية له، أو هو دليل عليه، والشقاء عكس السعادة[1].

هذه الدراسة تتناول ديوان (**وحي الحرمان**)، للشاعر الأمير عبدالله الفيصل، وسيكون لها محوران؛ أولهما يخص الشاعر الأمير، ويتناول آليات الكتابة الشعرية، أو الملفوظ الشعري. والآخر يخص الأمير الشاعر، وفيه بحث عن الجانب الإنساني للشاعر، كما يتجلى في نصوص ديوانه، أو ما يعرف بالمنطوق النفسي.

والباحث حين يقدم على ذلك على دراية تامة بأن الفصل بين الأمير الشاعر والشاعر الأمير غير مقبول منهجيًا، غير أنه سيأتيه للسيطرة المركزة على المادة الشعرية بعناصرها كلها، على نحو يتمكن معه من المقاربات النقدية من خلال عدد من الظواهر.

ولله الحمد من قبل ومن بعد.

المبحث الأول
الملفوظ الشعري

أولاً: التراكيب

أ - الضمائر

يرى (هارفج) أن الضمير شرط حتمي لبناء أي نص[٢] وتتجلى أهميته وقيمته في صوره جميعاً حتى الإفرادية منها . يقول محمد عبدالمطلب: (... واللافت أن التعامل الإفرادي قد يكون أداة صياغية لفتح الخطاب الشعري، على خطابات قولية أخرى كالقصة والمسرحية، وذلك بالنظر إلى بنية (الضمائر) التي اجتذبها التعامل الشعري الحداثي من انتمائها التركيبي، إلى البناء الإفرادي، عندما خلصها من مراجعها، ودفعها إلى الاكتفاء بنفسها في إنتاج الدلالة)[٣].

ويروم البحث الوقوف عند بنية تصريف الضمائر في (وحي الحرمان)، وتحليله بوحي مما يسميه جاكبسون (نحو الشعر)، حين قارب بين الألسنية والشعرية في قوله: (لا يمكن للتحليل اللساني للشعر أن يقتصر على الوظيفة الشعرية، فخصوصيات الأجناس الشعرية المختلفة تلتزم مساهمة الوظائف اللفظية الأخرى بجانب الوظيفة المهيمنة، وذلك في نظام هرمي متنوع.

إن الشعر الملحمي المتركز على ضمير الغائب يفتح المجال بشكل قوي أمام الوظيفة المرجعية، والشعر الغنائي الموجه نحو ضمير المتكلم شديد الارتباط بالوظيفة الانفعالية، وشعر ضمير المخاطب يتسم بالوظيفة الإفهامية، ويتميز بوصفه التماساً وعظياً، وفق ما إذا كان ضمير المخاطب فيها تابعاً لضمير المتكلم...)[٤]. فضمير الغائب يبرز الوظيفة المرجعية، ضمير الـ(هو)، وضمير المتكلم يبرز الوظيفة الانفعالية، ضمير الـ(أنا)، وضمير المخاطب يبرز الوظيفة الإفهامية، ضمير الـ(أنتَ).

وقد تبين بعد قراءة الديوان سيطرة ثلاثة أنواع من الضمائر، ضمير المتكلم المجسد في ضمير (أنا)، وضمير المخاطب المتمثل في ضمير (أنتَ + أنتِ)، ويتراجع ضمير الغائب إلى حد كبير، فتتراجع الوظيفة المرجعية وتسيطر الوظيفتان: الانفعالية والإفهامية، وقد أمكن ضبط حركتهما في الديوان، ووجدا على الشكل التالي :

علاقة الـ (أنا)، بالـ (أنتِ) + + / - +

علاقة الـ (أنتِ)، بالـ (أنا) + - / - +

علاقة الـ (أنا)، بالـ (هو) + الـ(هم) + + ...

علاقة أنا + أنتِ = // في الإحساس والسلوك، وهي علاقة تنبني على المصالحة التامة.

هل تذكرين وداعينا مصافحة
أو دعت فيها كريم الأصل يمناك
أو تذكرين بوادي وج وقفتنا
وقد أفاضت عليها الطهر عيناك[٥]

علاقة أنا + أنتِ = متعارضة في الإحساس والسلوك، (أنا) وفيٌّ و(أنت) سالبة غير وفية، وهي علاقة منبنية على القطيعة.

ففيم هذا التجافي والهجر -يا حلو- والصدْ
لكم سهرت الليالي وقلت: يانجم فاشهد
بأنني منه مضنى وأنني فيه أحسد
وأنه يتجنّى وأنني أتجلد[٦]

وتتجلى قمة القطيعة بين الـ (أنا) و الـ (أنتِ) في حوار درامي بين سلوكين يتعارضان تعارضاً تاماً مع مرجعيات الحب وطقوسه ومستلزماته.

لاحبَّ والغدر الخئون يحوطه ولّي الغرام مع الحبيب الغادر
هي وردة ظمأى وقد رويتها إذ قل عنها الغيث ماء نواظري
لم أدر حين سقيتها ورعيتها أني سأجزى بالعقوق السافر[٧]

هكذا تظهر الأنا مضطهدة مقهورة، وفي الوقت نفسه وفية، وتصادم طرفي هذه المعادلة غير المتكافئة أنتج صراخاً مدوياً، رغبةً وندماً وألماً، وهذه الصرخات سرعان ما تحولت في مرحلة ثالثة على شكل جديد للعلاقة التي تصل الطرفين: الـ (الأنا) + الـ (أنتِ).

الـ (أنا) + الـ (أنتِ) = // في الإحساس وفي السلوك، هنا تخرج الأنا من بعدها الإيجابي في الوفاء والإذعان إلى بعد سلبي هو في الحقيقة إيجابي إذا ما قيس بمنطق الطرف الآخر، وطبيعة معاملته لـ (أنا)، وهنا تختتم دورة العراك الوجداني والتمزق الروحي للشاعر.

فأربأ بنفسك أن تكون معذباً وانظر إلى الماضي بعين الساخر[٨]

غير أنه من اللافت للنظر أننا لا نجد في الديوان أبياتاً كثيرة تكشف لنا مرحلة استيقاظ الروح من تيهها الدرامي، وعودتها إلى وعيها ؛ أي لا نكاد نجد لحظات مواجهة كثيرة، أو مكاشفة

موضوعية حقيقية لخبايا النفس، وهذا يعني أنها مواجهة غير جدية تلمح إلى عدم قدرة الشاعر على السيطرة على عواطفه، وضبط إيقاع مشاعره، فيعلن ذلك العجز عن روح شفافة للشاعر الأمير تضبط الديوان، ولا تلبث أن تنفلت في لحظة سريعة ليتحول الشاعر من الشاعر الأمير حيث العواطف إلى الأمير الشاعر حيث السلطة والقوة والإلزام والحيازة.

ولــولا الحــب في الأعــنــاق رقّ
ملكتك باليميــن وباليماني

ولــو فوق العنان تخذت مثوى
هتكت عليك أغشيــة العنان[٩]

وتتجلى انكسارات الـ (أنا) في مواجهة الـ (أنت) قياساً إلى علاقة الحب، وما تستدعيه من مواقف وسلوك وعواطف، فالحب يواجه بالحب علاقة موجبة، والصد يواجه بالصد علاقة موجبة؛ لأن الجزاء يكون بحجم الفعل. أما الحب الذي يواجه بالصد فهو لقاء بين موجب وسالب، والعكس صحيح أيضاً، والتمرد على المتمرد فعل إيجابي نقيض لفعل سلبي وإن تساويا في الصفة، ويمكن تلخيص ذلك في الجدول التالي :

أنا	أنتَ	الصفة
راغبة	راغبة	++
راغبة	متجاهلة	+
متجاهلة	غير عابئة ممعنة في الصد	-
متمردة	ملغاة	+

الـ (أنا) + الـ (هو)+ الـ (هم)// علاقة موجبة بين الـ (أنا) الممثلة للشاعر، والـ (هو) الممثل للوطن، والـ(هم) الممثلة للمجتمع . وتفضي علاقة الـ(أنا) بالـ(هو) إلى فضاءات جديدة مختلفة كلياً عن منطق العلاقة السابقة بين الأنا والأنت،هي علاقة إيجابية ؛ وهذا يعني أن إنتاج العلاقة بين الضمائر المختلفة لا تثبت على صفة واحدة، فهي بين الـ(أنا) والـ(أنتَ) متغيرة، أما بين الـ (أنا) والـ (هو) أو الـ(هم)، فإنها علاقة ثابتة غير متحولة، فتحت للشاعر أبواب النجاة من التمزق الحاد الذي يعيشه، يقول :

نسيت ما كـان من حب وموجدة
شغلت عنها بما يصبو له وطني[١٠]

فبعد الصراع المحموم بين الأنا والأنتِ، والتمزق النفسي الحاد الذي يؤدي -غالباً- إلى حالة من اللاتوازن، لجأ إلى وطنه ،إلى الـ (هو) والـ (هم)، من جحيم معاناته وتمزقه ،ليجد توازنه بهذا التحول، وليتجاوز مقولة الـ(أنا) المستسلمة الضعيفة المحايدة إلى الـ(أنا) الصانعة لزمانها. الناسجة لدراما الوجود الواقع خارج الشاعر، فخروج الشاعر من ملحمة الذات في علاقتها مع الـ(أنتَ) منتصراً إنما هو انتصار لوجوده الحي المثمر، انتصار تمثل في تجاوزه إلى الـ(أنا) المتجاوزة ذاتها إلى زمنها الاجتماعي، والمتخطية إنسانه إلى إنسانيته.

وفيما وصلنا إليه تنكشف لنا، بل تتأكد سيطرة ضميري المتكلم والمخاطب؛ أي سيطرة الوظيفتين الانفعالية والإفهامية على الديوان. وندرة اللجوء إلى ضمير الغائب، إذ لا تصل نسبة وروده إلى (١٪) من مجموع أشعار الديوان.

هذا إلى جانب أن سيطرة ضمير (أنا) أي ضمير المتكلم تعني سيطرة الوظيفة الانفعالية (الغنائية)، وبالتالي سيطرة السمة الرومانسية التي تستعين بالضمائر كلها في صناعة ملحمة النص من ناحية وملحمة الذات من ناحية أخرى، وتناسجها وتعاضدها يخرج الضمير الواحد من السيطرة ويجعل منها في تعالقها مجتمعة صانعة دراما الشعر وملحمة الذات في مواجهة ما يتعارض مع الأحلام والرؤى.

فضمير المتكلم يستعين بالغائب، ويستعينان بالمخاطب، ويتم التناسج بينها في صناعة تمزق الإنسان الداخلي، والتناقض الخارجي الذي ينتج التمزق الداخلي وينتج بها، فتناسج الضمائر في وقت واحد هو وسيلة اختزال الخارج في الداخل، وإخراجه ملفوظًا شعرياً علامياً يضبط إيقاع انفعال الإنسان وصراعه مع ما حوله.

نخلص من ذلك إلى أن ملامح الغنائية في ديوان الشاعر تحايث طبيعتها في نصوص ودواوين الشعر العربي، ولكن بمقدار ما فيه من محاكاة، هو محاولة للتجاوز، وهو تعبير عن ذات تختلف، يتجاوز النسق أو النظام المألوف. وبذلك يكون الشاعر مجددًا في إطار من أصالته وتراثه، مبشراً بنظام علامي يعلن عن شاعرية رقيقة متميزة، وعن شاعر قادر على اختزال الوجود والعواطف وإعادة إنتاجها بطريقة تتعايش مع رؤاه، يعبر الغياب حاضراً والحضور غياباً.

ب - المعجم الشعري :

الكلمة المفردة تحتل منزلة عالية في ممارسة تحليل النص أو النصوص الأدبية عموماً، والشعرية على وجه الخصوص؛ لأن (الكلمة تبقى الوحدة الأدبية الأساس للبناء الفني اللغوي)[١١].

وتتبع العناية بالمفردة من إدراك (لمهمة الدوال الإفرادية، وهو إدراك لم يعد قانعاً بأن الدال مهمتة أن يستدعي مدلوله، أو لنقل إنه يتحول بنفسه إلى مدلول حسب الوظيفة الإشارية ... فالدال أصبح مالكاً لكينونة ذاتية على مستوى البناء الشكلي أو الصوتي، وعلى مستوى المردود النحوي أو المعجمي)[١٢].

ومن هنا كان النظر إلى المعجم وتناوله من الزاوية الدلالية أمراً وجيهاً يستمد مشروعيته من غاياته التي يتوخاها (فإذا ما وجدنا نصاً بين أيدينا ولم نستطع تحديد هويته بادىء الأمر، فإن مرشدنا إلى تلك الهوية هو المعجم بناء على التسليم بأن لكل خطاب معجمه الخاص به، إذ للشعر الصوفي معجمه، وللمدحي معجمه، وللخمري معجمه، فالمعجم لهذا وسيلة للتمييز بين أنواع الخطاب، وبين لغات الشعراء والعصور، ولكن هذا المعجم يكون منتقى من كلمات يرى الدارس أنها هي:

مفاتيح النص أو محاوره التي يدور عليها)[١٣].

والمعجم الشعري في ديوان **(وحي الحرمان)** ينقل ويصور تجربة الشاعر، وهو إجمالاً معجم ثري، يكشف لنا عن حركة الشاعر العاطفية وعن تصوره للعالم ؛ لأنه هو المادة التي ينشئ منها عالمه. وأول ما يواجهنا من المادة التي اعتمدها الشاعر في ديوانه عنوان الديوان **(وحي الحرمان)**، وهو عنوان يحيلنا إلى بعد نفسي، طرفه الأول يتصل بالعقيدة، وطرفه الثاني يتصل بذات مأزومة مهزومة معذبة ملتاعة. فالشاعر يقدم الخارج على الداخل؛ ليظهر أنه مع وجود الوحي يمكن أن يكون الحرمان، فبدأ العنوان من المطلق واتجه نحو المحدود، بدأ من خارج الذات وانتهى داخلها، فكانت الذات حقلاً تتربى فيه الآلام وفضاء تصاغ فيه الأحلام.

وتطالعنا في الديوان جملة من الألفاظ بعضها نفسي ينتمي إلى المعجم الابتداعي، مثل: (الوداع، القلب، الخيال، الدمع، الشقاء، الوجد، الأماني، الألم، الهجر، الحرمان، الوصل، الصد، الأنين، الحزن)[١٤].

وهناك معجم جمالي يتصل اتصالاً كبيراً بالمعجم الابتداعي، الذي يتعامل المنتمون إليه مع الجمال تعاملاً حسيًّا، من ذلك على سبيل المثال: (عينا مهاة، الشعر ليل، الثغر عقد لآل، الفم عنّاب، الثنايا لؤلؤ)[١٥].

وهناك معجم صوفي منه (الطهر، الحياة، الإلهام، الوصال، الوحي، الوهم، النوى، النور، الوحدة، الشوق، الله، الروح).

ويبدو في المعجم تواتر يدل على أن الديوان بنصوصه كلها ينتمي إلى فترة زمنية واحدة، تمكن الشاعر بمعجمه هذا من تحديد خصائص الديوان .

وتتبع المعجم الشعري في الديوان يظهر لنا معجماً عاطفياً نفسياً مسيطراً يفتح أمامنا أبواب النص، فالشاعر مسكون بالـ (هناك)، مسكون بالآخر، بمقدار ما هو مسكون بالـ (أنا) المأزومة التي تواجه آخر لا يذعن.

أما فنياً فالمعجم الشعري ليس مجرد قائمة من الكلمات المنعزلة، بل هو قائمة من الكلمات التي تتردد لتنتج تعالق النص وتماسكه ونظامه.

ويمكن بضرب من التجاوز رسم بنية معجمه الشعري بطريقة تكشف حركة بناء النص باعتبار المعجم، أو باعتبار حضور مكونات المعجم، فالحضور الأكبر هو للمعجم النفسي الذي يعلن عن انتماء الديوان إلى المذهب الابتداعي دون مواربة، وهو ينقل إلينا أشكال الضغط النفسي التي تعرض لها الشاعر في علاقته بالمرأة، ولحظات الألم التي خلقتها على صفحة حياته.

هذا الخط من خطوط المعجم تبعه بالحضور سبب تحققه، أو سبب صورته، فكانت المرأة «الجمال» حاضرة في هذا المعجم، ثم تبعه المعجم الصوفي الذي يمكن اعتباره نتاج مرحلة متطورة جعلت الشاعر يلجأ إلى المجردات، وإلى معجم الصوفية الذي ينقل صورة المنحى الجديد الذي نحاه الشاعر في حياته، وحتى لا يفهم الأمر على غير حقيقته فإن المعاجم التي أمكن تحديدها لم يكن كل معجم منها في نصوص معينة، بل كانت متداخلة، مما يؤكد على مسألة تنازع الشاعر بين الموجود والمفقود، بين الواقع الذي لم ينل منه سوى الحرمان وواقع نقي برئ لا ألم فيه ولا شقاء، بين الانتصار للواقع والانتصار للروح، والنزوع في كل ذلك إلى عالم الطهر.

جـ - نظام الجملة :

أفاض النحويون في الكلام عن (الكلام) الذي عرَّفه ابن جني بأنه (كل لفظ مستقل بنفسه مفيد لمعناه، وهو الذي يسميه النحويون الجمل)[١٧]، أما على المستوى البلاغي فإن عبدالقاهر الجرجاني قد تجاوز هذا المفهوم، إلى ما يمكن تسميته (فقه النحو)، حين كشف عن دور العلاقات النحوية في المعنى وفي تشكيل جماليات النص، من خلال نظرية النظم التي تتمحور

حول (معاني النحو)، فالنظم عنده هو توخي معاني النحو ليس إلا، وقد توسع في شرح ذلك وبيانه حتى استوفى الظواهر النحوية من تقديم وتأخير، وذكر وحذف، وتعريف وتنكير، وخبر وإنشاء، وفصل ووصل... وغير ذلك .[١٨].

والجملة جزء من النظام اللغوي، أو من الملفوظ الشعري في النص؛ لأنها تتشكل بحسب الأحوال النفسية التي تأتي ضمن المقام النفسي العام[١٩].

ومما يسترعي الانتباه عند تتبع نظام الجملة في ديوان (وحي الحرمان) ذلك الأسلوب الإنشائي القائم على الاستفهام باعتباره مفتاحاً من مفاتيح دراسة الظاهرة الغنائية، وما تفضي إليه من إنتاج شبكة دلالات متنوعة على مستوى المبنى والمعنى والمغنى معاً.

فالشاعر استعمل الاستفهام في عدد من المواضع، احتلت أدوات الاستفهام - في أغلبها - مطالع الأبيات التي ترد فيها، وهي تدور في مجالات السؤال عن السماع، أو الإبصار أو التذكر، أو السمو من ذلك «هل» كما في قوله:

هل تذكرين وداعينا مصافحة
أودعت فيها كريم الأصل يمناك[٢٠]

وقوله :

هل سمعت اللحن من قلبي ينساب لقلبي
ثم يرتد فيروي لك ما قصة حبي
هل رأت عيناك في الصحو وفي بعض السهاد
صور البعد الذي أذكى خيالي وفؤادي[٢١]

وقوله :

هل سمت بالوهم دنياك إلى حيث وجودي
وتوهمت على البعد رضائي وصدودي
... ...
هل أداري الألم العاصف في قلبي بصبري
أم أبوح اليوم بالسر وهل يجهل سري[٢٢]

و«ماذا» في قوله :

ماذا يضيرك لو حققت أمنيتي
فيسعد القلب - من شوق - لرؤياك[٢٣]

و«أي» في قوله:

أي طيوب ليس يوحي بها
إلا محياك في شباب الزهر[٢٤]

ونجد بعض أدوات الاستفهام تتصدر الشطر الثاني من الأبيات التي وردت فيها، وهما أداتان: «أين» في قوله :

سوى محياك دجى حالك
فأين منه لمحة للنظر[٢٥]

و«كم» في قوله :

وتذهب الوحشة عن خاطر
كم غالب الشوق وكم ذا صبر[٢٦]

وجملة الإنشاء في ديوان الشاعر - كما يتضح مما تقدم - صرخات حادة محمومة؛ هي سؤال المتفجع عن سبب الفجيعة، وسؤال المعذب معذبه، والمجلود جلاده، وهي في الوقت نفسه سؤال استدراجي، يستدرج به الشاعر من يحب إلى اللجوء إلى الذاكرة علها تنجده في العودة إلى أحضانه . أو هي من جانب ثالث تحديد المساحات الجمالية بالسؤال عنها.

ومما لا يخفى أن الجملة الإنشائية تشارك الجملة الخبرية في بناء النص، ومثلما هو مألوف في أي نص شعري تغلب الجملة الخبرية على الإنشائية حضوراً، وسيطرتها تحول عناصر الموضوع من عناصر تساير زمن القول إلى عناصر تتجاوز زمن القول، وتداخل بين الأزمنة، تستحضر الغائب في الحاضر، وتعيد الحاضر إلى الغائب، يصير الزمان فضاء تتشكل فيه الأزمنة المتعارضة، وتشارك في إنتاج زمن النص؛ أي بفعلها يخرج النص من زمنه الفيزيائي إلى زمنه الشعري، وتخرج عناصر الموضوع من حيادها وخصوصيتها إلى عناصر تدخل في صميم التجربة الشعرية للشاعر.

والمرأة مركز الديوان، والحرمان هو طرف المعادلة الآخر المشكّل للمركز.

المرأة ⟵ الحرمان

وبفعل العلاقة بين المركز وما يشكل المركز، ثم بفعل ذلك الحوار بين الإنشاء والخبر تغادر المرأة طبيعتها المألوفة في أفراد جنسها، لتصير جزءاً من تجربة فنية لا حدود لها، تجمع فيها بين ما لا يجمع :

موجب	⟹	المرأة	⟸	سالب
حرمان	⟹	المرأة	⟸	متعة
هموم	⟹	المرأة	⟸	سعادة
غائب في الحقيقة	⟹	المرأة	⟸	حاضر في الذاكرة.

هي معبر نحو زمن غائب يفتح أفق زمن قادم، تتجسد فيه الأحلام وتجتمع فيه الرؤى وتنمو. وبهذا خرج الشعر من خطابية تتكفل بها بعض عناصر الإنشاء إلى شعر درامي في تلك المعركة الوجدانية والتنازع الحاد بين حالتين نفسيتين؛ رغبتين إحساسين موقفين، هذا التنازع الحاد كان وراء ميلاد الشاعر الدرامي، وكان أحد صناع عجائبية الشعر عنده.

والحديث عن الجملة الشعرية في مسألتي الإنشاء والخبر يقودنا مرغمين إلى زمن الجملة الشعرية، وزمن الجملة الشعرية في ديوان الشاعر لافت للنظر، إذ أن المسافة بين زمني الماضي والحاضر تتلاشى أو تكاد، وانهيار المسافة بينهما يوحدهما في نقل مشاعر الشاعر المتألمة، ويوحد من طرف آخر صورة حياته الفنية، يصير الزمن واحدًا يواجه إحساساً واحداً، فالماضي كالحاضر في طبيعة العلاقة، والإحساس واحد في مواجهة تلك العلاقة.

فالزمن الحاضر المتمثل في الفعل المضارع يقصد به الزمن الماضي، أو حادث حدث في الزمن الماضي [٢٧]، وهو تحول يحدث بفعل الاستحضار؛ فاستحضار الشاعر للزمن الماضي والتحدث به في الذاكرة، وكأنه زمن حاضر يجعل من الذاكرة مساحة يختصر فيها الزمان، ويفقد قيمة تصنيفه النحوي. يقول :

هل رأت عيناك في الصحو وفي بعض السهاد
صــور البعد الذي أذكى خيالي وفؤادي
وترامى بظنوني في النــوى في كل واد[٢٨]

ويقول :

لكم سهرت الليالي
وقلت: يانجم فاشهد
بأنني منه مضنى
وأنني فيه أحسد
وأنه يتجنى
وأنني أتجلد (٢٩)

وكذلك أمر الخروج من الماضي إلى الحاضر ؛ أي استخدام الفعل الماضي في الحديث عن الحاضر، يصير الفعل الماضي في الجملة الشعرية ناقلاً لفعل حاضر، ووجود هذا وذاك في مواضع متعددة وسياقات مختلفة في **(وحي الحرمان)** يؤكد على أن المسافة بين الفعلين مسافة تتلاشى عند شاعرنا إلى حد بعيد، من ذلك :

وكلما رمت وعدا
بهجره يتوعد
وإن خلوت بنفسي
وجدتها تتمرد
حتى يقول :
أقولها وفؤادي
على اللظى يتوقد (٣٠)

❖❖❖❖

ثانياً: الصورة:

اختلفت وجهات النظر حول مفاهيم الصورة إلى حد التعمية أحياناً [٣١]، غير أن المراد بالصورة هنا هو الصورة البلاغية، وبخاصة التشبيه والاستعارة، وقد اختلفت وجهات نظر النقاد -أيضاً- فيما يخص المسافة التي تفصل بين التشبيه والاستعارة، فمنهم من ألغى المسافة الفاصلة بينهما[٣٢]، اعتماداً على المصطلح السائد، وهذا رأي لا يخلو من الإسراف، وأصحابه يجدون أنه من الأنسب إلغاء المسافة باعتبار أنهما وجهان لقضية واحدة، هي الصورة، فالصورة عندهم (لا تلغي التشبيه ولا تمحو الاستعارة، وإنما تقدم فهماً أعمق من الفهم الجزئي الذي ارتبط بكل منهما في السابق)[٣٣].

ويرى بعض النقاد أن الفصل بين التشبيه والاستعارة مصطنع، ذلك أنهما (يتوافقان بداعي أنهما يهدفان إلى مقارنة أمر بآخر محدد أو مجرد، وبداعي كونهما وسيلتين يعتمدهما الشاعر في الابتعاد عن استخدام اللغة استخداماً عادياً، وفي خلق لغة أشد أصالة وغرابة)[٣٤]، فمن التشبيه إلى التطابق الاستعاري يتأتي الاختلاف ولا يمكن شرحه بمجرد وجود أداة التشبيه أو إسقاطها، ولا شيء يبرهن على أن الذهن مجبر على المرور بالتشبيه كي نصل إلى الاستعارة.

وثمة فكرة قديمة عند البلاغيين العرب تجعل من الاستعارة تشبيهاً مختصراً، أو تشبيهاً حذف أحد طرفيه وذكر الآخر[٣٥]، وقد انتهى عبدالقاهر الجرجاني إلى أن (التشبيه كالأصل في الاستعارة، وهي شبيهة بالفرع له أو صورة مقتضبة من صوره)[٣٦]، غير أنه من المتأكد لدينا أن التذويب الكامل للمسافة بينهما أمر غير مستحب، والفرق بينهما واقع بسبب المنطق الذي يتأسس عليه التشبيه وتعتمد الاستعارة؛ إذ في الوقت الذي يعتمد فيه التشبيه على المماثلة، فالاستعارة تعتمد على التضاد، والتشبيه يعتمد على المماثلة الإيجابية أو السلبية، وهما طرفان يقعان في حيز الممكن. أما المنطق الذي تنبني عليه الاستعارة فيقع خارج الممكن. وفي الوقت الذي يتأسس التشبيه على التماثل فالاستعارة تتأسس على التفارق؛ أي تحميل أمر ما ليس من طبيعته، فهي قوة اختزالية تخترق النواميس، وتعيد تركيبها بطريقة مختلفة، وبذلك تكون الاستعارة أكثر قدرة على فتح أبواب تعدد التأويل، وتفاوت القراءة عكس التشبيه، فتخرج الأشياء من مداراتها لتصير لها مدارات أخرى.

وبرجوعنا إلى ديوان الشاعر وجدنا التشبيه حاضرًا، وهو حضور لافت للنظر من زاويتين؛ أولاهما اهتمام الشاعر به، والأخرى تعامل الشاعر مع التشبيه تعاملاً اتباعياً إلى حد بعيد، وبخاصة في تصوير المرأة.

المهم في الأمر أن للشاعر منهجاً - حسبما يبدو- في التعامل مع التشبيه، يظهر ذلك في بعض المظاهرة، لعل أهمها ما يأتي:

أ - الأركان: فهو مرة يتجاوز أداة التشبيه، ومرة يثبتها، وهي في ديوانه لا تخرج عن أداتين؛ وردت «كأن» مرة واحدة في قوله:

أتى جبريله وأسرَّ وحيا
إليّ كأنه رجع المثاني(٣٧)

وما تبقى من أبيات استرفدت التشبيه في صناعة عالمها الجمالي اعتمدت على كاف التشبيه بنسبة عالية جداً قد تصل إلى ٩٩٪ من مجموع التشبيهات، من ذلك على سبيل المثال قوله :

وتهاوى الدمع في آثارهم
وهو كالجمر على
الخد يسيل(٣٨)

وقوله :

حاربت نومي والوساد
والقلب أمسى كالحطام(٣٩)

وقوله :

هل تذكرت الذي كان لنا بالضفتين
يوم كنا والهوى يجتاحنا كالزهرتين(٤٠)

وقوله :

وساحرتي بعينيها
وروح كالسنا يسرى(٤١)

وقوله :

وفم لو قال من ينعته
هو كالعناب ما عرّفه(٤٢)

وقوله :

ولمست في الأجفان وكف مدامعي
كالجدول المترقرق المنساب(٤٣)

وقوله :

فالحياة التي أحب وأهوى
أصبحت كالجحيم ملء جراحي[٤٤]

ولا نعثر في ديوانه على أداة أخرى غير ما ذكرنا، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فقد جاءت أركان التشبيه مرتبة ترتيبًا واحدًا (المشبه - الأداة - المشبه به)، وفق قانون التشبيه المرسل، ولا نكاد نجد تقديماً أو تأخيرًا لأحد الأركان . والأركان كلها ظاهرة إلا في النادر من تشبيهاته، مثل قوله على البليغ:

إنا وإياكم نجمان في فلك
يديره الحب في آفاق ماضينا[٤٥]

وهذا النوع من التشبيه إجمالاً يقع في مجال الوصف الجمالي للمرأة، من ذلك قوله:

وثنايا لؤلؤ مؤتلف
ألق سبحان من ألفه[٤٦]

والشاعر في تعامله مع أركان التشبيه - كما هو واضح - يستند إلى المرجعية البلاغية العربية، دون أي محاولة للتجاوز أو التغيير أو الخروج عن عناصرها وقوانينها القارة.

ب - الموقع: يتضح مما وقفنا عليه في ديوان الشاعر أنه يوزع التشبيه توزيعًا منتظمًا، بعضه نجده محصورًا في الشطر الأول من البيت، مثل :

عنياك عينا مهاة
والشعر كالليل أسود
والثغر عقد لآل
يا ليتني فيه أنضد[٤٧]

وبعضه يقع في الشطر الثاني دون الأول، مثل :

حاربت نومي والوساد
والقلب أمسى كالحطام[٤٨]

ولجوء الشاعر إلى واحد من الشطرين ينسج فيه خيوط تشبيهه قليل إذا قيس بما توزع منه على الشطرين معًا، ويظهر لنا من تتبع المادة الشعرية ميل الشاعر إلى توزيع التشبيه على

الشطرين، فعادة ما يقع المشبه في الشطر الأول وبقيه الأركان في الشطر الثاني، كما في قوله :

وتـــهـــاوى الـــدمـــــع في آثـــــارهـــم
وهـــو كـالجـمـر عـلـى الخـد يـسـيـل[٤٩]

وقوله :

وفـــم لـو قـال مـن ينعته
هـو كالعناب ما عـرّفـه[٥٠]

ج - الصفة: للتشبيه صفتان؛ صفة الإفراد، أي يأتي المشبه مفردًا والمشبه به كذلك، وما ذكرناه كله يؤيد هذه الصفة، وكثيرة هي الأبيات التي ورد فيها تشبيه شيء بشيء. غير أننا نجد في بعض أبيات أخرى - وهي قليلة نسبياً - تشبيهات يتعدد فيها المشبه أو المشبه به. وهي خطوة متميزة نحو الصورة المركبة. صورة يكون طرفها الأول مفردًا وطرفها الثاني متعددًا، مشبه واحد ومشبه به متعدد، كما في قوله :

دنـيـاي نـــار مـن الـهـجـران محـرقـة
إذا نـأيـت وروضـــ حيـــن ألـقـاك[٥١]

وأحياناً يكون الطرف الأول متعددًا والطرف الثاني مفردًا، من ذلك قوله :

أراك فـمـا لـعـيـنـك لا تـــــراني
وأنـــت وصـبـوتـي فـرسـا رهـــان [٥٢]

وبعض ذلك يتسم بالإضمار، أي يتحول المشبه المتعدد من اسمين ظاهرين إلى ضميرين، يقول الشاعر :

هـل تـذكـرت الـذي كـان لـنـا بالضفتين
يـوم كنا والهوى يجتاحنا كالزهرتين [٥٣]

وهناك نوع آخر من أنواع الصورة الشعرية في الديوان، وهي تلك التي يجتمع فيها عدد من التشبيهات لإنتاج صورة جزئية ما، يظهر ذلك في قوله :

عـيـنـاك عـيـنـــا مـهـاة
والـشـعـر كـالـلـيـل أسـود

والـثـغـــــر عـقـد لآل
يـاليـتـنـي فـيـه أنـضـد[٥٤]

وهي صورة مركبة من عدة صور تنقل لنا مظهرًا جمالياً تتكامل عناصره وتتعاضد في إنتاج صورة أكثر شمولاً مما يؤديه التشبيه الواحد.

❖❖❖❖

أما الاستعارة في ديوان الشاعر فهي قليلة إذا ما قورنت بالتشبيه، فنحن لا نجد من الاستعارات

الكثير، ولكنها - على قلتها - كثيراً ما دفعت النص إلى الخروج من المباشرة المطلقة إلى ضرب من التخييل، يكثف الدلالة ويفجر المعنى.

والاستعارة تقوم على متباعدين يلتقيان شعريًا، وتتأسس على جمع طرفي الاستعارة عبر التجسيم والتشخيص والتجريد، وهي عناصر تعمق مسافات التوتر بين الدال والمدلول والعلامة والمرجع[٥٥]، يزيد من تعميق المسافة تلك اتكاء الشاعر على التشبيه في صناعة الاستعارة، كأن يصير المشبه به طرفًا في إنتاج الاستعارة. يقول:

إنـــا وإيـاكـم نجمـــان في فلك
يديره الحب في آفاق ماضينا[٥٦]

ومن الصور الاستعارية الأكثر تميزًا واختلافاً وتوترًا ماجاء في قوله:

لـولا الـهـوى ووفـــاؤك المعهود
خفقت لغيرك في الفؤاد بنود
وتبسم القلب الـــذي رويته
ما شئت من شوق به تسهيد
حرصاً عليك وأنت في أحشائه
قبس يشب هيامـــه ويزيد
والنار تُعشق إن تغب فإذا دنت
بك فرّ من رمضائها المـوؤود[٥٧]

والشاعر لا يتعامل مع الصورة البلاغية المفردة فحسب، بل يتعامل مع نوع آخر من الصورة الشعرية، هي الصور الكلية التي تجمع بين أكثر من صورة بلاغية في إنتاج نفسها، نجد استعارات ونجد تشبيهات تفضي مجتمعة إلى صورة كلية، فقصيدة «حلم الهوى العذري» [٥٨]، نص تتضافر فيه الأساليب الخبرية والإنشائية والصور الجزئية لتنتج صورة للمرأة الموصوفة، صورة شملت الروح، العينين، البسمة، الالتفات، الجيد، الوجنة، اللون، الشعر ....

ولا يخفى أن الاستعارة بما هي قصة مجازية أو أسطورة مصغرة تعطي اللفظ حركية؛لأن عدم التطابق واختلال التناسب في العلاقات بين الدوال والمدلولات، وكذا الصور البعيدة المأتي والتوزيعات التي لا تخضع لمنطقنا المعروف، كل هذه التحديات الخاصة بالوظيفة المرجعية للغة، لا تبدو من قبيل الحذلقة المجانية أو العمل الاعتباطي، ذلك أن هذا النظام الذي يمنح كل استعمال ما يبرره ضرورة وما يقتضيه بداهة إنما يقوم - فيما يلوح - على قدرة الألفاظ على توليد جمل مترابطة، لكنها في استقلال نسبي عن الواقع، تلك هي الألفاظ في ديناميتها وطاقتها الكامنة.

وللصورة في ديوان الشاعر مرجعياتها المتعددة، هي: النار، والزمن، والماء، والطبيعة، والدين. فدنيا الشاعر نار [٥٩]، ومشتقاتها مثل: الجمر في قوله :

وتهاوى الدمع في آثارهم
وهو كالجمر على الخد يسيل[٦٠]

والضوء في قوله :

وساحرتي بعينيها
وروح كالسنا يسري[٦١]

هذا بالإضافة إلى استعماله مصطلح «الجحيم» وإرادة ناتجة أو لازمة، وذلك في قوله :

فالحياة التي أحب وأهوى
أصبحت كالجحيم ملء جراحي[٦٢]

أما فيما يتعلق بالزمان، فالشاعر مولع باستخدام زمن الليل مادة تتشكل فيها أحاسيسه، يقول :

وأطعت عيني - في الغرام - وخافقي
أقضي الليالي السود في نجواك[٦٣]

ومرجعية الماء نجدها في لفظ الجدول الذي اتكأ عليه الشاعر في صياغة بعض تشبيهاته، كما في قوله :

ولمست في الأجفـان وكف مدامعي
كالجـدول المترقرق المنساب[٦٤]

ومرجعية الطبيعة في قوله :

هـل تـذكـرت الـذي كـان لنا بالضفتين
يوم كنا والهوى يجتاحنا كالزهرتين[٦٥]

وتعلن المرجعية الدينية عن نفسها حين يستعمل الشاعر كلمة (المحراب) لإعلانه عن السجود في قوله :

وأنـــت محـــــــراب قـلـبـي
فـحـيـثـمـا كـنـت يـسـجـد[٦٦]

د - الإيقاع:

الإيقاع ظاهرة تقوم على التكرار المنتظم، ويلعب الزمن فيها دوراً مهماً ؛ لأن الإيقاع يقوم على حركة الأصوات، وللشعر العربي ارتباط وثيق بالإيقاع منذ نشأته، ولعل أبرز مظاهره في القصيدة العربية هو الوزن والقافية، غير أن الإيقاع لا يقف عند هذا الحد ،وإنما يتجاوزه إلى ما يعرف بالإيقاع الداخلي الذي يتأبى على المعيارية الصارمة، فهو (خلو من المعيارية لكونه يعتمد على قوانين النفس الفردية لا الجماعية)[٦٧]؛ لأنه يصدر عن الألفاظ المستعملة ذاتها، في حين يكون الوزن مقصوداً لذاته، وقد أدرك البلاغيون قيمة هذا النوع من الإيقاع وأبعاده الجمالية والنفسية، وتتبعوا كثيراً من مظاهره التي جاء أغلبها تحت ما يسمى (علم البديع) [٦٨]، منها ما يقوم على الصوت المفرد، ومنها ما يقوم على الصوت المزدوج . وقد لجأ الشاعر عبدالله الفيصل إلى المرجعية الإيقاعية العربية، يتوخاها ويستند إليها في مستويي العروض والقافية دون أي تجاوز يذكر. أما في مستوى التوقيع الصوتي فقد وجدناه يعتمد عليه كثيرًا، وبأشكال مختلفة، أبرزها ما يأتي :

أ - الصوتي الجزئي المفرد: وهو الشكل الذي يتم فيها الترديد في المستوى الأفقي، وله مواضعه، منه ما يكون في الشطر الأول لا يتجاوزه، وهو نادر في الديوان، منه تكرار حرف الراء في بداية فعل ونهاية اسم يليه، يقع موقع المفعول به، في قوله:

إن رأيت البدر في كبد السماء
أو رأيت الطير يشدو بالغناء (٦٩)

ومن اللافت للنظر أننا لا نجد الصوت الجزئي المفرد يجتمع في الشطر الثاني، بل نجد للشاعر ميلاً إلى توزيع الصوت البسيط المشابه على الشطرين، وهو بهذا يدعم القافية العمودية بقافية أفقية مشابهة إن اتفق الصوت البسيط مع القافية، أو مثل قافية مستقلة مختلفة تدعم القافية العامة بصوت مختلف، وكلها إثراء للإيقاع، تجعل منه قوة مساعدة في إنتاج نص شعري متميز.

من الأول تكرار حرف الكاف في حشو الشطر الأول وفي القافية في قوله :

ماذا يضيرك لو حققت أمنيتي
فيسعد القلب - من شوق - لرؤياك(٧٠)

ومنه تكرار الصوت نفسه في خاتمة الصدر وفي القافية في قوله :

والذكريات إذا ما عز قربك لي
سلوى فؤاد على الأيام يهواك (٧١)

وهو سعي من الشاعر إلى إنتاج جملة إيقاعية تصل بين صدر البيت وعجزه . ومن هذا النوع ما يعرف في علم البديع بالتصريع، وهو تصيير مقطع المصراع الأول في البيت كمقطع المصراع الثاني، وهذا دليل على تمسك الشاعر بالمرجعية الشعرية العربية في إبداعه . من ذلك قوله :

الشعر يوحيه الشباب
وخياله الزاهي العجاب (٧٢)

ومن هذا النوع من التكرار - أيضاً - ما يقع في مطالع الأبيات، فيشكل قافية عمودية تواجه قافية عمودية هي قافية النص الرئيسة، يقول :

قلت أهواك وعن دنياك بالحب شغلت
وبودي لو تحدثت إلى الدنيا بحبي وأطلت
وتأملت الذي يوحي إلى قلبي وقلت (٧٣)

وعلى عادة الشاعر فهو يسعى باستمرار إلى جمل إيقاعية مركزة، إعتمادًا على الثنائية، مما جعله في بعض الأحيان يلتزم في الأشطر الأول من أبيات القصيدة قافية تختلف عن القافية العامة لها، وهو فعل مثير ينتج علاقة متميزة بين المرسل والمتلقي، كما هو الحال في قصيدة «

نهاية حب « (٧٤)، يقول فيها :

هـدهـدت حـبـي في المهـاد
ووأدتـــه قـبـــل الفـطـام
مـيـعـاده يـــوم المعـــاد
يـــوم تـعـاد بـه العـظـام
أمـــل أضـاء بـه الفـؤاد
لما خبا ســـاد الظلام
الشوق عنـدي في ازديـاد
وعلى الهوى مني السلام
عفت البـلاد مـع العباد
واستثقلت نفسي الكـلام
قـد هـدني طـول البعاد
لما تـركتك في الـرغام
لما دفنتك يا سعـاد
أسقيتني المـوت الـزؤام
حـاربت نومي والوساد
والقلب أمسى كالحطام

ب - الصوت المزدوج: يمثله تكرار الأدوات أو الضمائر، وهو على نوعين، أو يقع في مكانين؛ في شطر واحد ويكتفى بما يصنعه من إيقاع بسيط، أو يصل بين الشطرين ويكون بذلك أكثر قدرة على إنتاج جملة أو جمل إيقاعية تثريها القافية.

في هذا النوع تتنوع مسألة الاسترجاع، فنجد الشاعر ينتج بها قافية داخلية تدعم القافية العامة، وهي عنده مرة تنحصر في الشطر الثاني فتكون قريبة من القافية، مثل :

ولي فوق السها عزم طموح
فمن عني ثناك ومن ثناني(٧٥)

ومن ذلك استخدامه الأداة « كم » في الشطر الثاني من قوله :

فيصدح الكون بأوصافه
كم صور الله وكم ذا ابتكر(٧٦)

ومرة نراها تجمع في الشطر الأول، وذلك حين يستخدم الشاعر ضمير «أنا»، وهو الضمير الوحيد الذي تكرر في ديوان الشاعر في موضع واحد:

وأنا - حيث أنا - أعبث في دنيا خلودي[٧٧]

ومرة نجد الإيقاع الذي تنتجه الأصوات المركبة يتوزع على الشطرين، ولذلك يكون أكثر قدرة على خلق مزيد من المشاكلة الإيقاعية بين الشطرين، كما في قوله:

هل رأت عيناك في الصحو وفي بعض السهاد[٧٨]

ومرة نراه يكثر في البيت الواحد ويتنوع، مما يثري الجملة الإيقاعية، من ذلك قوله:

في الأرض أو في البحر أو
في الجو فوق ذرى الضباب[٧٩]

وهذا التكرار - كما هو واضح - ينتج إيقاعات متلاحقة ومتشابهة إلى حد ما، وموزعة عروضياً التوزيع نفسه، وهذا التنويع لا يقتصر على تكرار الحرف أو الأداة نفسها، وإنما قد يتجاوز ذلك إلى تكرار حرفين أو أداتين في الشطرين، كما هو الحال في تكرار « إن « في قوله :

يهواك إن غبت وإن حاضرا
يهواك في الوحدة أو في السمر [٨٠]

ويُلحظ أن التكرار في البيت يقع في المساحات العروضية التي يقع فيها التكرار في سابقه إلى حد بعيد، وهنا يصير التوقيع مسانداً قوياً يعين الإيقاع العروضي في إنتاج إيقاعية النص.

يهواك إن / غبت وإن / حاضرا
يواك في الـ / وحدة أو / في السمر

وأحياناً نجد الشاعر يكرر المزدوجات عمودياً، ويدعمها بتكرار الأصوات البسيطة وذلك في قوله:

لكم سهرت الليالي وقلت يا نجم فاشهد
بأنني منه مضنى وأنني فيه أحسد
وأنه يتجنى وأنني أتجلد[٨١]

جاء التوزيع على النحو التالي :

.. .. سهرت .. .. قـلـت .. .. .. د

.. أنني .. .. .. مضنى .. أنـنـي .. .. .. د

.. أنـه .. .. .. يتجنى .. أنـنـي .. .. .. د

ونجد من الجمل الإيقاعية ما يعتمد فيه الشاعر على تكرار كلمات ذات أصوات متفقة ومعان متفقة في الوقت نفسه، وهذا النوع يتجه في المساحتين الأفقية والعمودية، مثل أشكال التكرار السابق كلها، ومنها أيضاً في المستوى الأفقي قول الشاعر :

أكاد	أشك	في	نفسي	لأني	أكاد	أشك	فيك	وأنت	مني[٨٢]
١	٢	٣	٣	٣	١	٢	٣		٣

في هذا وأشباهه يعلن الشاعر عن أن الشعر ليس مجرد دلالة أو مقصد أو رؤيا، إنما هو إيقاع أيضاً، إيقاع يحقق للشعر التميز من ناحية، والمحافظة على جنسه في مواجهة الأجناس الأخرى.

ومنه ما نجده في المستوى العمودي، مثل قوله :

إن رأيـت البـدر في كبد السماء

أو رأيـت الطير يشدو بالغناء[٨٣]

بعد هذا كله يمكننا القول بأن الشاعر كان يؤسس إيقاعاً خاصاً به في نصوصه، وهذا الإيقاع نقرأ فيه عدم اكتفاء الشاعر بالاكتفاء بالقافية عنصراً كلياً ووحيداً للإيقاع، وميله إلى الثقة بالأصوات بأنواعها في إنتاج إيقاعية النص، فالجملة الإيقاعية تتوزع بعفوية وتدفق جميل، وهذا يفضي بنا إلى أن التكرار وسيلة أثيرة لدى الشاعر، إثراءً للإيقاع وإشباعاً للدلالة، وحظ الشاعر الأمير من الإيقاع موفور إلى حد بعيد، لذلك أنتج نصوصًا ذات خصوصية إيقاعية مستوفية لشروط جماليات الإيقاع الشعري.

المبحث الثاني

المنطوق النفسي

التجربة الشعرية هي الخبرة النفسية للشاعر حين يقع تحت سيطرة مؤثر أو مؤثرات ما، فهو (يتأثر بظاهر الوجود حوله، لكنه أمامه ذات تصهر الوجود في عالمها، فتحيل حقائق الأشياء الموضوعية حقائق ذاتية، وهو إذ يعيدها إلى الخارج في صياغة تعبيرية، لا يعيدها على حقيقتها الأصلية كما هي في الواقع الموضوعي، وإنما يعيدها بعد دخولها إلى هيكله النفسي، كما تريدها ذاته أن تكون، كأنما هو يخلقها من جديد...)[٨٤]، ومن المؤكد أن (العلاقة بين الأدب والنفس لا تحتاج إلى إثبات ؛ لأنه ليس هناك من ينكرها ... وحقيقة هذه العلاقة ليست شيئاً مستكشفاً للإنسان الحديث ؛ لأنها كانت قائمة منذ أن عرف الإنسان وسيلة التعبير عن نفسه)[٨٥]، ولكنها تطورت مع الزمن حتى أصبحت تشكل منهجاً نقدياً من أبرز مناهج النقد في العصر الحديث، تكمن أهميته في أنه مظلة واسعة تندرج تحتها عدة مسارات تعود لتختلط بمفاهيم الجسد والعاطفة والعقل وتاريخ النمو والتجربة الشخصية ... وكيف يبني المرء أنساقاً نفسية وعاطفية تتداخل مع علاقاته الأبوية والاجتماعية والثقافية، أنساقاً قد يقبلها أو قد يرفضها. وكيف يتفاعل مع البيئة العاطفية والمادية التي يسكنها ويعيش ضمنها، فيعكسها أو يقاومها[٨٦].

وقد حظي الاتجاه النفسي باهتمام كبير من الباحثين والدارسين العرب في العصر الحديث على المستوى التاريخي، وعلى المستوى النظري، وعلى المستوى التطبيقي[٨٧].

ولنا أن نتصور في البدء تلك السلسلة من الأحاسيس والمشاعر التي ملأت حياة الشاعر عبدالله الفيصل، ويبدو أن عالمه الشعري قد تشكل من خلالها[٨٨]؛ لأن كلاً منها كان سبباً في نوع من المعاناة، وهي سلسلة متصلة الحلقات يفضي بعضها إلى بعض في تلاحم عجيب.

(حرمان ⟸ غربة ⟸ حب ⟸ حرمان ⟸ غربة نفسية ⟸ حنين)

ولحرمان الشاعر مصادر:

يصف صلاح لبكي الشاعر بأنه محروم [٨٩]، ويؤكد الشاعر على هذه الصفة حين يقول:

أجل ... أنا محروم [٩٠].

لقد باعدت الظروف بينه وبين أبيه سنوات كثيرة، وهو لم يتخط السنة الأولى من عمره

بعد، وحرمانه من أبيه هو مصدر حرمانه الأول، الذي ختم كلامه عنه قائلاً: ولهذا فأنا لا أزال محروماً[٩١].

أما المصدر الثاني فالحرمان من الأم التي انتلقت إلى رحمة الله تعالى، بعد أن أدت واجبها نحوه، وعوضته عن حرمان أبيه .. ولكن بموتها راح الشاعر يبحث عن مصدر حنان يعوضه عن الحنان الذي فقده، فكانت المرأة المصدر الثالث؛ إذ لم يتمكن في بحثه عنها ،من إلغاء حرمانه؛ لأنه حسبما يقول عجز عن تحقيق عواطفه، فترك عجزه في نفسه أبلغ الأثر حتى الآن[٩٢].

معنى ذلك أن مصادر حرمان الشاعر متعددة . تعددها وضغطها عليه، وعواطفه الابتداعية الشفافة جعلته يحس بضرب من الغربة الإنسانية، لذلك كانت أشعاره تنقل إلينا باستمرار لحظة الألم ومصدرها، ولحظة الحلم ومصدرها. فالشاعر يعيش تمزقاً حاداً وحزناً عميقاً، هو حزن الباحث عن صورة محققة في الذاكرة، هو شاعر يختزن مراوحة حادة بين الواقع والحلم، بين الموجود والمرفوض، بين المتحقق وغير المتحقق، بين الممكن والممتع . ومن هنا جاءت رؤيته محمولة على انكسارات الموجود المرفوض، ومتأسسة على تمزق نفسي حاد، ورغبة محمومة في الانتصار على المادة، ورغبة محمومة – أيضاً – في تجاوز المال والسلطان إلى الذات المختبئة وراء أحلام لا صلة لها بالمال والسلطان، وبسبب هذه الرغبة جاءت رؤيته ضرباً من التحدي لهما ؛ لأنهما لم يتمكنا من إلغاء آلامه وتحقيق أحلامه.

ومن هنا فإننا نقرأ تمردًا هادئاً مصحوباً بأنين الذات في مواجهة عجزها عن إنتاج ذاتها بمعزل عن المؤثرات الهامشية الحافة بقضيته المركزية، والتوازن النفسي المرهون باتصاله بمن يحب.

والأمر الجدير بالذكر هو أن المنطوق النفسي في أشعاره لم يكن مجرد حالة نفسية تحملها إلينا تلك الأشعار، لأن الشاعر تمكن باقتدار من تحويل حياته النفسية إلى حياة فنية، أي صير الألم فناً، لذا لا نستغرب حين يقول في الإهداء: إلى الذين شاركوني في لذة الحرمان [٩٣].

ولو عدنا قليلاً بالذاكرة إلى الوراء، إلى فضاء قراءة المعجم الشعري لتمكنا من تحديد السمات الدقيقة لحياة الشاعر النفسية وإعادتها إلى صورتها، ومكونات تلك الصورة الداعية والمعينة على تشكلها بصفات معينة وانفعالات محددة.

وفي عودتنا إلى ديوان الشاعر تبين لنا حال التمزق الحاد والصراع المرير الذي عاشه شاعرنا، تمزق أتى من سلوكين متعارضين ورغبتين متخالفتين وإحساسين متباينين.. يقول :

أجـــــزاء الـوصـــل منّـي
يـاحـبـيـبـي مـنـك صـــــدُّ؟
وأنـــا الأحـــــرى بعطف
منـك مـا اسـتـجـداه سهد
كـلـمـا حـــاولـت نـسـيـا
ن غـــرامـــي، بـــات يـبـدو
فـأذكـريـنـي بـالـذي كا
ن فقلبي بك يشدو... (٩٤)

ويصل الشاعر من تمزقه هذا الى لحظة مكاشفة بريئة مع نفسه، حينما يعلن عجزه عن ممارسة سلوك غير ما تطيقه نفسه وما تحثه عليه، ويعلن استسلامه لعواطفه الطيبة.

لا يطيق القلب - ياسـد
واي -بعد اليوم بعدك (٩٥)

والديوان كله يتحرك في ثلاثة محاور: محور عرض الحال بما تعانيه من حرمان وأشواق، وقد سجل عنوان الديوان هذا الأمر بعنوانين متلاحقين (محروم + وحي الحرمان)، ومحور آخر هو الفاعل في المحور الأول، وهو منتجه، يتمثل في الوصف الجمالي والإحساس بالرضا عن الفعل، ومحور ثالث يتمثل في انتفاضات سريعة لا ترتقي إلى مستوى القرار، بسبب المرور السريع بها، وعدم تكرارها أو تأكيدها، وهي تمثل ضرباً من المكاشفة حين يجد أنه أذل نفسه كثيراً، وهوت به عواطفه إلى حيث لا يحب ولا يرغب، مما جعله يعلن القطيعة . وأفضل - هنا - انتقاء عدد من الأبيات، من قصيدة تبين لنا الأمر بجلاء. يقول في قصيدة «أمل يخيب» (٩٦).

ودعـت أيـــام الـربـيـع الناضر
ودفنت آمـالي ووحـي خواطـري
ووأدت ما في القلب من ذكر الصبا
ونفضت عن ذهني خيال الشاعـر
لا حب والغـدر الخئون يحوطه
ولّي الغـرام مع الحبيب الغادر
هـي وردة ظـمـأى وقـــد رويتها-
إذ قـلّ عنها الغيث - ماء نواظري

ومنحتها قلبـــاً على أترابها-
قـــد عـز - يرعاها بحب طاهر
لم أدر حيـــن سقيتها ورعيتها
أني سأجـــزى بالعقوق السافر
يـا قلب لا يحـــزنك ما ضيعته
مـن حبك الـــــوافي لعهد غابر

ومما يسترعي الانتباه أن إعلان الشاعر القطيعة جاء خلال وصف حال العلاقة وضبط حدودها في ثنائية طرفها الأول موجب، ويمثله الشاعر، والآخر سالب وتمثله المرأة الغادرة. وقد كشف لنا في هذه الثنائية عن أسلوبين أو سلوكين متعارضين، تعارضهما كان مصدر التمزق والألم والأحزان التي عانى منها الشاعر والتي اختتمها بالقطيعة، وبذلك يكون - قد - انتصر على آلامه وأحزانه وواقعه.

❖❖❖❖

وبعد تصفح الملفوظ الشعري والمنطوق النفسي في ديوان «وحي الحرمان» نجد الشاعر ابتداعياً يبحث عن الألم، وبحثه عن الألم جعله يختار معجمه الشعري، أو الملفوظ الشعري الذي يصلح أن يكون الفضاء الذي تتشكل فيه أحزانه بطريقة فنية، وفي إعلانه القطيعة أعلن عن ولادة معجم شعري مختلف، أو ملفوظ شعري مختلف، يتناسب والحالة النفسية التي يعيشها ... فحياته حوار بين القبول والإذعان والألم، ومعجمه يتأسس على مفردات من نوع: الوداع، والقلب ،والدمع والخيال، والشقاء، والوجد، والأماني، والألم، والهجر، والحرمان، والصد، والأنين، والأحزان ... ونحو ذلك . هذا المعجم يواجهه معجم آخر يتأسس على الفعل والاسم: وعدت، دفنت، وأدت، نقضت، الغدر، الخؤون، العذر، العقوق، الابتلاء...

هذا يفضي بنا إلى حقيقة لا تقبل الشك أو الجدل، وهي تعالق الملفوظ الشعري والمنطوق النفسي في صياغة هذا العمل تعالقًا مدهشاً، إذ تمكن الشاعر أن يحول حياته النفسية إلى حياة فنية، وإحساسه المتألم إلى إحساس فني، فكان بذلك ديوان ينبئ عن شاعر متمكن، يختصر العالم ويختزله، يعيد تنظيم العالم تنظيمًا جمالياً، ويعيد تنظيم الوجود على معاناته بطريقة جمالية، فنقل إلينا مشاعره الإنسانية الحزينة نقلاً جميلاً، أو مثلها تمثيلاً جميلاً، وبذلك يكون قد حقق شعرية متميزة.

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

الهوامش والتعليقات

١. انظر: فولفاج هاينه من - ديتر فهفيجر، مدخل إلى علم اللغة النصي، ترجمة: فالح العجمي، مطابع جامعة الملك سعود، ١٤١٩هـ، ص ٢٨.

٢. مناورات الشعرية، محمد عبدالمطلب، دار الشروق - القاهرة، ط٢، ١٤١٧هـ، ص ٦٣.

٣. قضايا الشعرية، جاكبسون، ترجمة: محمد الولي وآخر، دارتوبقال - الرباط، ١٩٨٨م، ص ٣٢.

٤. وحي الحرمان، ص ٢٥، وانظر: ص ٥٠، ٥٦، ٥٧.

٥. المرجع السابق، ص ٤٥، وانظر: قصيدة «في روضة الهدى»، ص ٨٠، «ولوعة» ص ١٠٦، و «ردوا سهام الجفون» ص ١١٥، ١١٦، و «منى غدي» ص ٤٤، و «أمل يخيب»، ص ٨٥.

٦. السابق، قصيدة «أمل يخيب»، ص ٨٥-٨٦.

٧. السابق، قصيدة «أمل يخيب»، ص ٨٧.

٨. السابق، قصيدة «أراك»، ص ٢٩.

٩. السابق، قصيدة «نداء»، ص ٩١، وانظر: قصيدة «صبر ينفد»، ص ١٢٧.

١٠. نقلاً عن: عزف على وتر النص الشعري، عمر محمد طالب، اتحاد الكتاب العربي - دمشق،ص ٥٦.

١١. مناورات الشعرية، ص ٥٧.

١٢. تحليل الخطاب الشعري، محمد مفتاح، المركز الثقافي العربي- الدار البيضاء، ط٣، ١٩٩٢م، ص٥٨.

١٣. انظر: وحي الحرمان ،على سبيل المثال، ص ٢٥، ٣١، ٣٢، ٣٣، ٣٤، ٣٥، ٣٦، ٣٩، ٤٥، ٦٣، ٨٩، ١٣١، ١٣٥، وهذه المفردات وأشباهها تكررت بشكل لافت.

١٤. انظر: السابق، ص ٤٤، ٦٩، ١٣٣، ١٣٤.

١٥. انظر: السابق، مثلاً ص ٢٥، ٢٦، ٣٢، ٣٧، ٣٨، ٣٩، ٤٠، ٤١، ٤٢، ٤٣، ٤٤، وغيرها.

١٦. الخصائص، ابن جني، ت: محمد علي النجار، دار الكتاب العربي - بيروت، ج١، ص١٧.

١٧. انظر: دلائل الإعجاز، عبدالقاهر الجرجاني، قرأه وعلق عليه: محمود شاكر، مكتبة الخانجي - القاهرة، ط٥ ١٤٢٤، ص ٨١ وما بعدها.

١٨. انظر: تحليل الخطاب الشعري، ص ٧٠.

١٩. وحي الحرمان، ص ٢٥.

٢٠. المرجع السابق، ص ٣٧.

٢١. السابق، ص ٣٨ - ٣٩.

٢٢. السابق، ص ٢٦.

٢٣. السابق، ص ٤٢.

٢٤. السابق، ص ٤٠.

٢٥. السابق، ص ٤١.

٢٦. وهذه الظاهرة مما تحدث عنه علماء البلاغة، تحت عنوان: (خروج الكلام على مقتضى الظاهر) . كما في: شرح السعد، سعد الدين التفتازاني، ت: محي الدين عبدالحميد، مكتبة محمد على صبيح - مصر، جـ١، ص ١٥٥. أو تحت (الالتفات) كما في: الإيضاح، الخطيب القزويني، شرح وتعليق: محمد عبدالمنعم خفاجي، مكتبة الكليات الأزهرية، ط٢، جـ٢، ص٨١.

٢٧. وحي الحرمان، ص ٣٨

٢٨. المرجع السابق، ص ٤٥

٢٩. السابق، ص ٤٦

٣٠. انظر: الصورة الشعرية في الكتابة الفنية، صبحي البستاني، دار الفكر اللبناني، ط١ ،١٩٩٨م، ص ٦ - ١٥، الصورة الشعرية في النقد العربي الحديث، بشرى صالح، المركز الثقافي العربي - الدار البيضاء، ط١، ١٩٩٤م، ص ١٩ - ٤٠

٣١. انظر: الصورة الشعرية في الكتابة الفنية، ص ٧٥ وما بعدها.

٣٢. الصورة الفنية في النقد الشعري، عبدالقادر الرباعي، دار العلوم - الرياض، ط١، ١٤٠٥هـ، ص ٩٥

٣٣. الصورة الشعرية - وجهات نظر غربية وعربية، ساسين عساف، دار مارون عبود، ١٩٨٥م، ص ٧٥

٣٤. معجم المصطلحات البلاغية وتطورها، أحمد مطلوب، مطبعة المجمع العلمي العراقي، ١٤٠٣هـ، ص١٣٦ ومابعدها.

٣٥. أسرار البلاغة، عبدالقاهر الجرجاني، قرأه وعلق عليه: محمود شاكر، دار المدني بجدة، ط١، ١٤١٢هـ ص ٢٩

٣٦. وحي الحرمان، ص ٣٠

٣٧. المرجع السابق، ص ٣٣

٣٨. السابق، ص ٤٩

٣٩. السابق، ص ٥٠

٤٠. السابق ،ص ٦٨

٤١. السابق، ص ١٣٣

٤٢. السابق، ص ١٤٠

٤٣. السابق، ص ١٤٩

٤٤. السابق ،ص ١٣٨

٤٥. السابق، ص ١٣٤

٤٦. السابق، ص ٤٤، وانظر: ص ١٣٤

٤٧. السابق، ص ٤٩

٤٨. السابق، ص ٣٣

٤٩. السابق، ص ١٣٣، وانظر: ص ١٤٠ - ١٤٩

٥٠. السابق، ص ٢٦

٥١. السابق، ص ٢٨

٥٢. السابق، ص ٥٠

٥٣. السابق ،ص ٤٤

٥٤. انظر: الاستعارة بين قضايا النقد الأدبي، أحمد الصاوي، مطبعة الانتصار - القاهرة، ط١، ٢٠٠٢م، ص ٢٣٣ وما بعدها.

٥٥. وحي الحرمان، ص ١٣٨

٥٦. المرجع السابق، ص ١١٠، وانظر: ص ٣٧

٥٧. السابق، ص ٦٨

٥٨. السابق، ص ٢٦

٥٩. السابق، ص ٣٣

٦٠. السابق، ص ٦٨، وانظر: ص ١١٠

٦١. السابق، ص ١٤٩

٦٢. السابق، ص ٧٩، وانظر كذلك: ٤٤، ٩٨، ١٢٠، ١٤٩، ١٥٠، ١٥١، وغيرها.

٦٣. السابق، ص ١٤٠

٦٤. السابق، ص ٥٠

٦٥. السابق، ص ٤٧

٦٦. الايقاع الداخلي في قصيدة الحرب، عبدالرضا علي، دار الحرية - بغداد، ١٩٨٩م، ص ٣

٦٧. انظر: الإيضاح في علوم البلاغة، جـ٦، ص ٤، والمنزع البديع، لأبي محمد السجلماسي، تحقيق: علال الغازي، مكتبة المعارف - الرباط، ط١، ١٤٠١، ص ٤٧٦ وما بعدها.

٦٨. وحي الحرمان، ص ٥٦

٦٩. المرجع السابق، ص ٢٦

٧٠. السابق، ص ٢٧

٧١. السابق، ص ٣١، وانظر: مجمل قصائد الديوان.

٧٢. السابق، ص ٣٧

٧٣. السابق، ص ٤٨، وانظر: ص ٥٩

٧٤. السابق، ص ٢٨

٧٥. السابق، ص ٤٣

٧٦. السابق، ص ٣٨

٧٧. السابق، ص ٣٨

٧٨. السابق، ص ٥٣

٧٩. السابق، ٤١

٨٠. السابق، ص ٤٥

٨١. السابق، ص ٥٨

٨٢. السابق، ص ٥٦

٨٣. الفن والأدب، ميشال عاصي، المكتب التجاري للطباعة والنشر - بيروت، ط٢، ١٩٧٠م، ص ٥٧

٨٤. التفسير النفسي للأدب، عزالدين إسماعيل، مكتبة غريب - القاهرة، ط٤، ص٥

٨٥. انظر: دليل الناقد الأدبي، ميجان الرويلي وسعد البازعي، المركز الثقافي العربي - الدار البيضاء، ط٢، ٢٠٠٠م، ص ٢٢٥

٨٦. انظر على سبيل المثال: من الوجهة النفسية، محمد خلف الله، دار العلوم الرياض، ط٣، ١٤٠٤هـ، الاتجاه النفسي في نقد الشعر العربي، سعد أبوالرضا، مكتبة المعارف - الرياض، ط١، ١٤٠١هـ، الأسس النفسية للإبداع الفني، مصطفى سويف، دار المعارف - القاهرة، ط٤

٨٧. ذلك ما أفصحت عنه قراءة اللغة الشعرية في الديوان، من خلال المبحث الأول.

٨٨. وحي الحرمان، ص ٩

٨٩. المرجع السابق، ص ١٦

٩٠. السابق، ص ١٧

٩١. السابق، ص ١٧

٩٢. السابق، ص ٧

٩٣. السابق، ص ٧٤

٩٤. السابق، ص ٧٥

٩٥. السابق، ص ٨٥ - ٨٦

جامعة الطائف

علاقة الماء بالدم في شعر المتنبي

«دراسة وصفية تحليلية»

د . صلوح بنت مصلح السريحي الحربي

أستاذ الأدب العربي المساعد - جامعة الملك عبد العزيز – فرع كليات البنات

كلية الآداب والعلوم الإنسانية - قسم اللغة العربية

مجلة جامعة الطائف - الآداب والتربية (اللغة العربية وآدابها)

المجلد الأول - العدد الرابع - ذو الحجة ١٤٣١هـ - ديسمبر ٢٠١٠م

الملخص

يشهد لفظ الماء حضورا واضحا في الشعر العربي القديم ، ساعد على حضوره تعدد دلالته - اللّغويّة والدّينيّة والمعرفيّة – وارتباط هذه الدّلالات بالحقيقة حينا وبالخيال حينا آخر، فكان الماء محور حياة الإنسان إيجاباً وسلباً . أقام بقربه الحضارات ، وأقام بقربه ومن أجله الحروب والغارات .

وفي شعر المتنبيّ نلحظ حضور لفظ الماء مرتبطاً بسياقات عدة تكشف عن علاقات تربط بين أكوان شعرية كثيرة التردد في قصائده فتتداخل مع الماء تلك العوالم التي ارتبطت في الثقافة العربية بالماء تشبيهاً به ،أو وصولاً إليه أو ذوداً عنه أو تحديداً لنوعه. تمّثلت هذه الأكوان الشعرية في عوالم مختلفة الدّلالات منها الوجه و الشبيبة و الكرم و السّحاب و الخيل و الجياد و السّيف و الدّم ... صنع الماء من خلال الارتباط بهذه الأكوان الشعرية وشائج قوية مكنته من الخروج عن حدود المعنى المعجميّ إلى سعة المعنى الدّلاليّ .

وبما أن شعر المتنبيّ ما هو إلا معرضٌ لأدوات القتال وصدى لموسيقى الحرب فإن ارتباط الماء بهذه الجوانب فجر فيه معاني القوة ودلالاتها غير أننا نلمس بين الماء و الدم علاقات أكثر قرباً تنبني على ما بينهما من تشابه في أنّ كليهما ذو قوام سائل وكليهما وثيق الصلة بالحياة و الموت ، لذلك أصبح للماء تداخلاً مع الدم ، كما أنّ للدمّ تداخلاً مع الماء على النحو الذي تكشف عنه الدّراسة المبنيّة على دلالات القوة و المنعة فقط لقربها من دلالة الدّم .

تعددت دلالات الماء اللّغوية والدّينية والمعرفيّة، والتفّت حول هذه الدّلالات معتقدات وعادات ومفاهيم متشعّبة فكرًا ووجدانًا وسلوكًا، تداخلت هذه الدّلالات حينًا وتباينت حينًا آخر ثم أفضت جميعها إلى عالم متناسل متشابك متضاد، يدور حول هذه المادة السّائلة (الماء) تختلط في هذا العالم الحقيقة بالوهم والخيال بالأسطورة.

فمن النّاحيّة اللّغويّة نجد في مادة (مَوَهَ) عند ابن منظور: الماء و الماة و الماءة تتقلب الهمزة فيها عن الهاء بدليل جمعها على (أمواه) في القلّة، و(مياه) في الكثرة و إنّ تصغيرها يكون على مُوَيْه. وأصل الماء (ماهٌ) و الواحدة (مَاهةٌ)، (وماءةٌ) في التّأنيث وينسب إليه فيقال: مائيٌّ وماويٌّ وماهيٌّ [1]. ومن هنا يتضح أنّ الماء هو الماهيّة لرجوع كلّ شيء إليه في النّشأة والتّكوين وقد ذكر الجاحظ (١٥٠-٢٥٥هـ)[2] ذلك فقال: «أنّه ليس من شيء إلاّ وفيه ماء، أو قد أصابه ماء، أو خُلِق من ماء»

وتتظافر الرّوايات مع تعريفات اللّغة لهذه المادة (الماء) لتؤكد هذه الحقيقة فقد روِي عن ابن عبّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قوله: (أراد الله تعالى أنْ يخلق الماء فخلق ياقوتة خضراء لا يعلم طولها وعرضها إلا هو سبّحانه وتعالى ثم نظر إليها بعين الهيبة فذابت وصارت ماء، فاضطرب الماء فخلق الرّيح ووضع عليها الماء، ثم خلق العرش ووضعه على متن الماء) [3] وعليه قوله تعالى: ﴿ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ ﴾[4].

ولتكتمل هذه الرواية نسوق ماذُكر في تأريخ الخميس عن خلق الله للأرض حيث جاء فيها "خَلَقَ اللهُ الأرضَ في موضع بيت المقدس كهيئة النّهر عليها دخان أي جوهر ظلمانيّ ملتزق بها، ثم أَصْعَدَ منها الدخّان وخلق منه السّموات، و أَمْسَكَ النّهر في موضعه وَبَسَطَ منه الأرض [5].

يؤكد هذه الرّوايات جميعها قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ﴾ [6] ومن خلال الماء أدرك الإنسان قوة الله الفاعلة التّي تجلّت من خلال خلق الإنسان ﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ۝٥ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ۝٦ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ﴾ [7] وقوله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا ﴾ [8]

كما تتجلّى قدرة الله أيضاً من خلال إعادة الخلق و الإحياء بالماء بعد الموت ﴿ وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴾ [9]

أدرك الإنسان هذه الحقائق – حقيقة خلقه من الماء وبدايته ونهايته وماهيته منه – كما وجد فيه مرآة له تعكس صورته إذا نظر إلى صفحته، وتعكس داخله إذا قاس على دلالته، أدرك آثاره

في الوجود من حوله إيجاباً وسلباً وعرف أنّ في وجوده حياة وفي عدمه وكثرته موت وفناء، لأنّهم يتواعدون عنده على الحياة كما يتواعدون عنده على الموت والفناء. صّور ذلك الشّعراء وظهر على ألسنتهم:

- ثُمَّ استَمرُّوا وقالُوا إنَّ مَوعِدَكُم ماءٌ بَشرقِّي سَلمَى فَيْدَ أورَكَـــكُ [١١]
- فَلمَّا وَرَدْنَ الماءَ زُرْقاَ جِمامهُ وَضَعْنَ عِصِيَّ الحاضِر المتخِّيم[١٢]

لذا عرف العرب لأجل الماء وحمايته نظام الحمى والنّجعة وعاشوا من أجله حـــروباً طاحنة، ورحيلاً أبديًا، وحرمانًا دائمًا لذا قيل:

أراد طفيلٌ يمنع الماءَ زلّـــة ولم يك رأيًا منعه الماء لو عقل
ففارقت البيض الخفاف غمودها ولاحت بأيديهم مصابيح كالشّعل
حسبت رجالاً أن تجفّ حَلوُقَهم وأنت على رأيٍّ وفي رَاحها الأسل [١٣]

انعكست هذه المفاهيم جميعها على تفكير الإنسان ولازمت عقله و أوحت له بمجموعة من الأساطير و المعتقدات فظهرت لنا فكرة السّقيا للميت إما طلبًا لما يحمله الماء من دلالات الرحمة و النقاء و الطّهر وطيب العيش لساكني القبور، وإمَّا إرضاءً للهامة و الصدى لذا قال حاتم الطائيّ:

أماويَّ إن يصبح صدايَ بِقَفْرةٍ من الأرضِ لا ماءٌ لديّ و لاخَمْرُ
ترى أنّ ما هلكت لم يك ضَرَّني وأنَّ يَدايَّ مما بخلتَ به صْفرُ[١٤]

وقال نمر بن تولب:

أعاذلُ يصبحْ صدايَ بقَفْرةٍ بعيداً نآني صاحبي وقريبي
نرَىْ أنّ ما أبقيتُ لم أكُ رَبَّهُ وأنّ الّذي أمضيتُ كان نصيبي[١٥]

لذلك ذكر الماء في المرثية العربية، في الدّعاء بالسّقيا وبقيت بعض عاداتهم منها :الثأر لتهدئة صداه، وكان في مزاعمهم أنه كالطائر يصيح :اسقوني و لايهدأ حتى يثأروا له. ومنها سكب الماء على القبر أو في أثر الرّاحل [١٦] ولا ترتبط الصّدى وسقياها بالقتل والثـّأر وإنما ترتبط بالموت عامة من ذلك قول أحدهم يرثي امرأته:

سقى جدثاً تَضَمَّن أم عمرو بنخلة ما اسّتهل به الغمام
وما للأرض استسقي ولكن لأصداءٍ أقمن بها وهام[١٧]

وفي المجتمعات القديمة ربطوا بين الماء و المطر عن طريق المحاكاة ووجدوا في الماء قوة جاذبة للمطر الذي تقوم عليه حياتهم فرشّوا الماء محاكاة لنزوله رغبة فيه، ومثلما وجدوا في رشّ الماء قوة جاذبة للمطر وجدوا في البعد عنه وعدم الاقتراب منه قوّة طاردة له [١٨]. وقريباً من هذه الفكرة غسلهم البيت بماء نجس طلبًا للمطر الذي سرعان مايهطل ليَطْهُر البيت [١٩]

سمات لفظ الماء:

لعل تعدد دلالات الماء – اللّغوية و الدينّية و المعرفيّة – وامتزاج الحقيقة فيها بالوهم، و الخيال بالأسطورة، نابعٌ من تعدد مصادره وتنوع صفاته وتقابلها ،وتقلبها. تركت هذه السمات الباب مشرعاً أمام الشّعراء يلجّ كلّ منهم من أي باب شاء وكلّ باب يفضي إلى صاحبه حتى أصبحت هذه السّمات حلقة مفرغة.

أولاً تعدّد المصادر: يشير التعّريف اللّغويّ الذي ساقه ابن منظور إلى تعدّد مصادر الماء وتنوعه لذلك لا يعتبر عنصراً واحدًا و إنما هو جمع أمواه أو مياه وقد جاء على لسان المتنبيّ قوله :

طلبتُهُم على الأمـــواهِ حتى تَخَوفَ أن تفتشهُ السحابُ[٢٠]

وقال أبو ثمامة بن عازب الضّبيّ:

رددت لضبة أمـــواهها وكادت بلادهم تستلب[٢١]

وفي لفظ المياه جاء قول المتنبيّ :

عيُونُ رَوَاحلي إنْ حرْتُ عَيْني وكُلُّ بُغَامِ رَازِجَة بُغَامِي
فَقَدْ أرِدُ الميَاهَ بغيرِ هادٍ سوى عَدَّى لها بَرْقَ الغَمَامِ[٢٢]

وقال أبو تمام:

إذا قال أهلاً مرحباً نبعت لهم مياه الندى من تحت أهل ومرحب[٢٣]

وبذلك يتضح أن لفظ الماء وَإن كان مفرداً إلا أنه كانَ متعدداً متنوّعاً يستبطن داخله عالماً متحركاً متناسلاً متشابكاً من الدّلالات. حيث يحمل لنا هذا اللّفظ من خلال جمعه تعدد مصادره و بالتالي تعدد صفاته وخواصّه فمنه: **ماء الصّلب، وماء الأرحام**. وقد وردا بلفظ الماء مفردًا في القرآن الكريم لامتزاجهما عند خلق الإنسان قال تعالى :(﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ۝٥ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ۝٦ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ﴾ [٢٤] وجاء في تفسير القرطبيّ قول الفرّاء و الأخفش:

«ماء دافق أي مصبوب في الرّحم ... فالدّافق هو المندفق بشدة قوته، و أراد ماءين ماء الرجل و ماء المرأة لأن الإنسان مخلوق منهما لكن جعلهما ماءًا واحدًا لامتزاجهما»[٢٥]

ومنه **ماء الشّفاء** وفيه اغتسل سيدنا أيوّب عليه السلام وعنه قال عبيد بن الأبرص:

فذاك الماء لو أنّي شربتُ به إذا شفي كبداً شكا مكلومه[٢٦]

ومنه الماء القاتل الذي أهلك قوم نوح قال تعالى: ﴿ إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ ﴾[٢٧].

و إسناد فعل الطّغيان للماء يستدعي انهدامًا حضاريًا شاملا أتى على الإنسان وما حوله.

ولقد تعدّدت مصادر الماء عند الشّعراء ذكروه في مديحهم وغزلهم ووصفهم .... فكان المادة التي تستوعب مشاعرهم و أحاسيهم و أفكارهم، فهو **ماء المُزن** الذي جعله جويرية بن بدر دالاً على عطايا الممدوح وكرمه فقال:

لَعَلْهم أن يَمْطُروني بِنِعْمَةٍ كما صَابَ ماءُ المزنِ في البَلَدِ المحلِ[٢٨]

وهو **ماء السّحاب** الذي يدل عند حسّان بن ثابت على ريق المحبوبة مازجًا في الصورة بين **ماءِ السّحاب** والمسك لتتظافر الحواس الذّوقيّة و البصريّة في نقلها حيث قال:

تَبلَتْ فُؤادكَ في المنَامِ خَرِيدَةُ تَشْفي الضَجِيعَ ببَارِدٍ بسَّامِ
كالمِسْكِ تخلطه بماءِ سَحَابةٍ أو عاتقٍ كَدَمِ الذبيح مُدامِ[٢٩]

وهو **ماء النّضح** وقد دل به طرفة بن العبد على سرعة فرسه فقال:

مَرْفوعُها زولٌ وموضوعُها كَمَرْ غَيْثٍ لجب وَسْطَ ريحْ
تَشْغَبُ بالفَارِسي ثغباً كما يثغب القَرْقَرِ ماء النّضيحْ [٣٠]

وهو **ماء البحر** عند عمرو بن كلثوم حين قال :

مَلأْنا الَبرَّ حتىَّ ضَاق عنَّا وماءِ البحرِ نملؤَه سفينا [٣١]

و أضيف لفظ الماء إلى الإنسان فكان **ماء العين** عند المرقّش حيث قال:

أمِنْ رَسْمِ دارٍ مَاءُ عَيْنَيكَ تَسْفَحُ غَدَا من مُقَامٍ أَهْلُهُ وتَروَّحُوا [٣٢]

وماء الأسنان عند طرفة بن العبد حيث قال:

وإذا تضحك تبدى حَبَباً كرِضَابِ المسك بالماء الخِضْر
صَادَفتْه حَرْجف في تلعَةٍ فسجا وسط بلاطٍ مسبطر[٣٣]

ثانياً: تعدّد صفاته: تبعاً لتعددّ مصادر الماء تعدّدت صفاته تعددًا قد يصل بها إلى حدّ التّقابل و التّناقض والتّضاد، وقد يكون تلازّماً مابين الصّفة ونقيضها من هذه الصفات صفتا **العذوبة والملوحة** وقد ذكرهما الله عزوجل في قوله تعالى: (هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ) [٣٤] وتكررت هاتان الصّفتان في قوله تعالى: (هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ) [٣٥]

ومثلما تعدّدت مصادر الماء عند الشّعراء تعددت صفاته، واستوعبت لغة الشّعر هذا التعّدد فكانت دالّه على صور الشعّراء من ذلك صفتا **الصّفاء و الكدر** وقد ذكرهما عمرو بن كلثوم فقال:

وأنّا الشّاربُونَ الماءَ صَفْواً ويَشربُ غيُرنا كَدرًا وطينًا [٣٦]

وقد بدأ البيت بأداة توكيد مع الابتداء ثم تلبّس الفعل بالفاعل ليظهر على هيئة اسم الفاعل (الشّاربون)؛ ليحمل لنا زيادة في تأكيد صفة التّعالي وما فيها من عزّة ومنعة و التي دلل عليها بقوله (الماء صفواً)، ليقابلها في الشّطر الثّاني الانكسار و الهوان من خلال تهميش الفاعل (غيرنا) وتغييب الماء ليصبح المشروب كدراً وطينا وهكذا يصبح الماء الصّفو دالاًعلى العزة و المنعة و الماء الكَدِر دالاً على الذّل والهوان.وقريب منه قول عنترة:

لا تسقني ماء الحياة بذّلة بل أسقني في العزّماء الحنظل [٣٧]

ومن صفات الماء أيضاً الحميم وهو من الأضداد للدّلالة على الماء البارد أو الحار وفي الدّلالة على الأولى قيل:

فساغ لي الشّراب وكنت قبلاً أكاد أغص بالماء الحميم

وفي الدّلالة على المعنى الثاني قيل:

فَخُشَّتْ بها النَّارُ نارُ الحميم وصُبَّ الحميمُ على هامها[٣٨]

وفي اللّسان جاء قول ابن الأعرابيّ واصفاً حال المرضعات وعدمهن جاعلاً من شرب الماء الحار دلالة على الفقر و العوز

وبتنَ على الأعضاد مُرْتفقاتها وحاَرْدنَ إلا ما شَرْبن الحَمائما

وجاء في تفسير البيت قوله: ذهبت ألبان المرضعات إذ ليس لهن ما يأكلن و لايشربن إلا أن يسخّن الماء فيشربنه، و إنما يسخّنه لئلا يشربنه على غير مأكول فيعقر أجوافهن فليس لهن غذاء إلا الماء الحار [٣٩]

ثالثاً: التّقلّب: امتاز الماء بخاصية التّقلّب و المخاتلة فلا يثبت على حال كما لا يثبت على سمة فهو متقلب في جميع الأجرام السّيالة فيكون أبيض إذا قلّ عمقه، و أخضر إذا كان وسطاً، و أسود إذا بعد غوره ،وصوره أبو العلاء المعريّ في لزومياته فقال:

ولا لون للماء فيما يقال ولكن تلّونه بالأواني (٤٠)

الماء في شعر المتنبي:

تكرر ورود لفظ الماء – مفرداً وجمعاً دالاً على الكثّرة و القلّة – في شعر المتنبي حاملاً دلالاته المتعدّدة لتعدّد مصادره و اختلافها، وصفاته وتباينها، وأحواله وتقلبه. ارتبطت هذه الدلالات بسياقات عديدة تكشف عن علاقات تربط بين أكوان شعرية كثيرة التردد في قصائده. فتتداخل مع الماء تلك العوالم التي أرتبطت في الثّقافة العربيّة بالماء تشبيهاً به أو وصولاً إليه أو ذوداً عنه، أو تحديداً لنوعه فتداعت إلى النّص ألفاظ القوة لتتآزر مع لفظ الماء خاصة وإن شعر المتنبيّ معجم للّغة القتال وصدى لموسيقى الحرب انعكس هذا المعجم على دلالة لفظ الماء وفجر فيه معاني القوة بعد أن تظافر المعنى المعجميّ مع المعنى الدلاليّ. في هذه الدّائرة حضرت ألفاظ السّيف و الخيل و الجياد و الدم ... فاستّل لفظ الماء من هذه الألفاظ بعضاً من دلالتها، وأسقط عن ذاته بعضاً من دلالته حين لا تتفق مع السياق، فكانت الدّلالة الجديدة مزيجاً من هذه الألفاظ المتحاورة. وعلى الرّغم من أن هذه الأكوان جميعها تعود إلى دلالات القوّة إلا أنّ للماء و الدّم تميزاً عن بقيتها مما يجعلها مجالاً للدراسة، فقد اجتمع فيهما معاً دلالة السّيولة و الصّلة الوثيقة بالحياة والموت. فكان الماء دالّاً على الحياة وإن استبُطنت دلالةُ الموت داخله، وكان الدم دالّاً على الموت وإن استبطنت دلالة الحياة بوجوده، تداخلت كل منهما مع الأخرى فسقطت بينهما حواجز الاختلاف.

وخارج هذه الدائرة استخدم المتنبيّ لفظ الماء على عادة العرب (٤١) فاستعاره للوجه و للشّباب ومن ذلك قوله:

وَلَقدْ بَكَيْتُ عَلَى الشَّبَابِ وَلِمَّتِي مُسْوَدَّةٌ و لِماءِ وَجْهِيَ رَوْنَقُ
حَذَراً عَلَيْهِ قَبْلَ يَوْمِ فِرَاقِهِ حَتَّى لَكِدْتُ بِمَاءِ جَفْنِي أَشْرَقُ (٤٢)

وقوله:

وأَحْسَنُ مِنْ مَاءِ الشَّبَيبة كُلِّه حَيا بَارِقٍ في فَازَةٍ أَنَا شائِمُهْ
عليها رياضٌ لَمْ تَحْلَهَا سَحَابَة وأغصان دَوْحٍ لَمْ تَغَنَّ حَمَائِمُهْ (٤٣)

كما استعاره لريق المحبوبة وجعله دالّاً على الأحياء فقال :

قَبَّلْتُها وَدُمُوعِي مَزْجُ أَدْمُعِها وَقَبْلَتْنِي عَلَى خَوْفٍ فَمَا لفَمِ
فَذُقْتُ مَاءَ حَياةٍ مَنْ مُقَبِّلِهاَ لَوْ صَابَ تُرْباً لأَحْيَا سَالِفَ الأُمَمِ[٤٤]

وشبه كرم ممدوحه بماء غاديّة فقال:

لَوْ كَانَ فَيْضُ يَدَيْهِ مَاءَ غَادِيَةٍ عَزَّ القَطَائِفُ القَيَائِفُ مُوْضِعَ اليَبَسِ[٤٥]

في هذه الدّراسة سوف نتجاوز لفظ الماء الوارد في مثل هذه الأبيات ونقف عند لفظ الماء وقد أخرج من ذاته دلالات اللّيونة و الرّقة وتلبّس بدلالات القوّة و العزّة و المنعة مستعيناً بالسياق في هذا التلبّس.

الماء ومعاني القوة في شعر المتنبيّ:

أسقط المتنبيّ على لفظ الماء دلالات العزّة و المنعة والقوّة، ولم يتم إسقاطه لهذه الدلالات عن طريق المشابهة فحسب، وإنما عن طريق تجاور الألفاظ وتلاحمها أيضاً، هذا الارتباط بين الماء ومعاني القوة ودلالاتها جعلت له حضوراً مع ألفاظ القتال و الفروسيّة و الحرب، لا سيما وأنّ الماء شاهدٌ لهذا القتال وهذه الفروسيّة.

هذا العلاقة المكانيّة التي تربط الماء بالقوّة و الشّدة جعلته يتجرد من معاني السهولة و الليونة و الرقة. هذه التجرّد أورده المتنبيّ ضمن قصيدة يرثى بها والدة سيف الدّولة حرص فيها على تفرّد مرثيته ليعطى لنفسه الحقّ في رثاء المرأة التي لم يعتد العرب على رثائها:

وليست كالإناث ولا اللواتي نعدلها القبور من الحجال[٤٦]

هذا التفرّد والتميّز نالته لأنها و الدة سيف الدولة :

رواق العز حولك مسبطرٌ وملك على ابنك في نوال[٤٧]

ثم يقول :

بِعَيْشِكَ هَلْ سَلَوْتَ فَإِنَّ قَلْبِي وَإِنْ جَانَبْتُ أَرْضَكَ غير سَالِي
نَزَلْتَ على الكَراهةِ في مَكَانٍ بعدت عن النَّعَامَي و الشَّمَالِ
تُحَجَّبُ عَنْكَ رائحَةُ الخُزَامَى وَتُمْنَعُ مِنْكَ أَنْدَاءُ الطِّلَالِ
بِدَارٍ كُلُّ سَاكِنَهَا غَرِيبٌ طَوِيلُ الهَجْرِ مُنْيَتُّ الحِبَالِ

حَصَانٌ مِثْلُ مَاءِ المُزْنِ فيه كَتُومُ السِّرِّ صَادِقَةُ المَقَالِ
يُعَلِّلُهَا نِطَاسِيُّ الشَّكَايَا وَوَاحِدُهَا نِطَاسِيُّ المَعَالِي
لإذَا وَصَفُوا لَهُ دَاءً بِثَغْرٍ سَقَاهُ أَسِنَّةَ الأَسَلِ الطِّوَالِ
وَلَيْسَتْ كَلاَنَاثِ وَلاَ اللَّوَاتِي نُعَدُّ لَهَا القُبُورُ من الحِجَالِ[٤٨]

ربط المتنبيّ في هذه المرثيّة بين الماء ووالدة سيف الدّولة عن طريق التشبيه وذلك في قوله: (حصان مثل ماء المزن) ونص الشارح على أنّ الحصان (العفيفة ... و المزن: السّحاب ثم قال: في هذا المكان امرأة عفيفة مثل المزن)[٤٩] واكتفى بذلك الشّرح مع أنّ لفظ حصان الذي سبق لفظ الماء يفتح معانٍ عدّة، ولفظ المزن الذي يلي لفظ الماء يفتح دلالات عدّة.

ففي قوله «حصان مثل ماء المزن» يربط الشاعر بين طرفين هما حصان من طرف وماء المزن من طرف آخر، جاء الأول منهما نكرة دلت على العفة و الطهر - وهذا المعنى الذي ذهب إليه الشارح - كما دلت أيضًا على المنعة حيث جاء في لسان العرب: الحصن كل موضع حصين لا يوصَل إلى مافي جوفه ... والعرب تسمى السّلاح كله حصناً [٥٠] «لذا كانت مرثيته طاهرة عفيفة وأيضاً حصان عزيزة الجانب منيعة. يؤكد هذا المعنى الطرف الثاني في التشبيه (ماء المزن) المكون هو الآخر من طرفين أيضًا مضاف ومضاف إليه، ورد الطّرف الأول (ماء) نكرة مما يفتح أمامه الباب واسعًا لاستقطاب دلالات من الطّرف الثّاني (المزن) الذي ارتبط مع الماء بوشائج عميقة فأصبح الماء (ماء مزن) وليس مجرد ماء، بل هو ماء منيع متحصن داخل سحابة لا يستباح فيكون شرًا يستعاذ منه:

ومن شر المياه إذا ستميحت آواجنها على طوال المقام[٥١]

ولا يُحرم بسلطان القوّة و السّيف:

يُحرمه لمع الأسنة فوقه فليس لِضمآن إليه وصول[٥٢]

لذا كانت مرثية (حصان مثل ماء المزن) منيعة الجانب نقية طاهرة. هذه العزة و المنعة و التفرد التي دلت عليها كلمة الماء وما جاورها من السّياق لم تكن حائلاً دون الموت لذلك بدأ قصيدته بذكر المشرفيّة و العوالي وما يحمله من إيماء للشّرف، و العلو و الرّفعة ؛ وما تتركه هذه الألفاظ من دلالات العزّة و المنعة التي يريد الشاعر بثّها في القصيدة حين قال :

نَعِدُ المشرفيةَ و العوالي وتقتلنا المنون بلا قتال[٥٣]

وبهذا المطلع وضعنا الشاعر أمام معارضة حادة بين الإنسان في أرفع مكان يصل إليه وأقوى منعة يتحصن بها، وبين سيطرة الموت وغلبته (وتقتلنا المنون بلا قتال) هذه السّطوة و القوّة هي التي قـــادت المتنبيّ للاستغراق في الصّورة، فجعل تلازماً بين الماء و الممدوح من خلال مفارقة بين صورة الماء في قوله (حصان مثل المزن) وما تحمله كل من حصان وماء المزن من دلالات العزّة و المنعة وبين قوله:

طلبتهم على الأمـــواه حتى تخوف أن تفتشه السحاب(٥٤)

فصورة الماء في هذا البيت تثير معاني الخوف و الفزع، يظهر ذلك من خلال تجاوز الشاعر دلالة لفظ مياه على الكثّرة التي يتضمنها معنى البيت إلى دلالة (أمواه) على القلة و كأنه يحمل تقليلاً لشأن هذه المياه التي يجوبها ممدوحه ،هذه الاستهانة امتدت إلى كلمة سحاب وما فيها معاني السّحب والجَر وما يحمله من انكسار أمام نفوذ سيف الدّولة وسطوته.

وظلّت صورة الماء ودلالته ماثلة في النّص ولم تفقد ذاتها داخل الدلالات المجاورة لها من حصان ومزن وسحاب، مع ملاحظة أن هذه الدلالات سبقت بذكر أدوات القتال المشرفية و العوالي إلا أنها أدوات لم ترق دماً لذلك ظلّ الماء محتفظاً بذاته ودلالته حتى إذا حضرت إلى نص تلك العوالم مصحوبه بالدم بدأ الماء بفقد ذاته فتتحول دلالته ليكون سبباً للموت و الفناء بدلاً من الحيـــاة و البقاء. تركت لنا هذه الدلالة قلقاً وتوتراً بدا واضحاً من مطلع النص القاتم من خلال تكرار لفظ الليل وطوله فقال:

لَيَالِيَ بعد الظَّاعِنِينَ شُكُولُ طِوَالٌ وَلَيْلُ العَاشِقِينَ طَوِيلُ (٥٥)

لذلك جاء ذكر الماء حاملاً بعضاً من هذا القلق الذي ظهر من خلال الشرق فقال:

وَمَا شَرَقِي بِالماءِ إلاَّ تَذَكُّراً لِمَاءٍ بِهِ أهْلُ الحَبِيبِ نُزُولُ
يُحَرِّمُهُ لَمْعُ الأَسِنَّةِ فَوْقَهُ فَلَيْسَ لِظمآنٍ إلَيْهِ وُصُولٌ (٥٦)

يحمل تكرار لفظ الماء في البيتين اهتمامًا خاصًا بهذا اللّفظ فقد ورد في البيت الأول اسمًا ظاهرًا مرتين مشارًا إليه بالضّمير في الثّالثة (به)، وتكرر ذكره في البيت الثاني ثلاث مرات، ولكنه ظلّ فيها مستترًا متخفيًا وراء الضّمير. ففي صدر البيت الأول جاءت كلمة الماء معرّفًا بأل مرتبطة بالشَرَق و الغصص ومافيه من دلالات الموت(٥٧) (وما شَرَقي بالماء) ،على حين ذُكرت في عجز البيت نكرة و ارتبط نعتها بالحبيب (ماء به أهل الحبيب)، ويحمل النّعت تميّزاً لها فيظهر لنا التماثل و الاختلاف بينهما في آن واحد، فينتزع من بين المتآلفات أشياء متباينة

فالماء الذي يشرق به غير الماء الذي ينزل به أهل الحبيب، ومن هنا تتآلف المياه وتختلف فيضعنا الشّاعر بذلك أمام قوّتين تتجاذبانه هي قوّة الحياة و قوّة الموت (ماء به أهل الحبيب – تحرمه لمع الأسنّة فوقه) لتستمر دلالة القلق و التّوتر الذي طُرح من بداية النص لاحتجاب وسيلة الحياة (الحبيب) واحتجاب لفظ الماء معها مكتفياً بعودة الضّمير في (يحرمه – فوقه – إليه) مع نفي الوصول إليه (فليس لضمآن إليه سبيل).

وإذا كان الموت قد حدث في الزّمن الماضي يشهد على ذلك زمن الفعل (شَرَقي) إلا أنّ تحريم الماء ظلّ قائمًا مستمرًا (تحرمه) وظلّ الزّمن المضارع شاهدًا على استمراره وظلّ: (ماء يعجز الطير ورده)[٥٨]

وبحضور الأسنة تتوالى الأبيات كاشفة عن غياب لفظ الماء وحضور لفظ الدّم مكانه مصحوباً بذكر أدوات القتال: السّيوف و الخيل.

سحَائبُ يُمْطِرنَ الحديد عَليَهم فكَلُّ مكانٍ بالسُّيوف غَسيلُ
وأَمْسَ السَّبَايَا يَنتْحَبْنَ بِعَرْقة كأن جُيُوبَ الثَّاكلاتِ ذُيُولُ
وعَادَتْ فَظَنُّوها بِمْوزارَ قُفَّلاً ولَيْسَ لها إلاَّ الدُّخُولَ قُفُولُ
فخاضت نَجيعَ الجمعِ خوضاً كأنه بِكُلِّ نجيعٍ لمْ تَخُضْهُ كَفيلُ
تُسايرهُا النِّيرانُ في كلِ مَسْلكٍ به القَوْمُ صرعى والدِّيار طلول
وكرَّتْ فمرتْ في دماءٍ ملطيةٍ مُلطيةٌ أمُّ البنين ثكُولُ
وأضْعَفْنَ ما كلَّفْنَهُ من قُبَاقبٍ فأصحى كأن الماء فيه عليلُ[٥٩]

فنلحظ غياب لفظ الماء وحضور دلالته من خلال السّحاب و المطر و الغسل ومن حفظ الخوض التي تكررت في النص ثلاث مرات حاملً معه دلالة الكثرة من جانب المعنى و القلق و التوتر من جانب التكرار و التّردد بين الإيجاب والسّلب في (خاضت،خوضاً، لم تخضه) هذا التّوتر الذي شاع في النص من بدايته ليالي بعد الظاغنين شكول..طوال ساعد على غياب كلمة الماء خاصّة وأنّ السحائب كانت خيلاً، ومطرها كان حديداً وكلمة الغسل سبقت بالسيوف ومفعول خاضت كان نجيعاً ليحضر بهذه الدلالات لفظ الدم[٦٠] وتظهر النار لنشهد حضوره بعد أن انتزع من الماء دلالة الكثرة المأخوذه من السّحاب والمطر والخوض و الغمر (غمرت في دماء ملطية) ويترك الدم الماء في ضعيفاً عليلاً بعد أن انتزعت منه دلالة القوة و الكثرة (كأن الماء فيه عليل).

هذا التماهي بين الماء و الدم أو هذه العلاقة التبادلية بينهما بصحبة السّيف و المطر والسّحاب نلحظها في قول المتنبي

قـومٌ إذا امطـرت مـوتـاً سيوفهم حسبتها سحباً جادت على بلد[٦١]

فالطرفان الماء و الدم غائبان لفظاً حاضران معنى. حضر الماء إلى النص من خلال دلالات المطر و السّحاب المتضمن لدلالة الخير (جادت على بلد) فارتبط بالماء دلالة الحياة إلا إنّ هذه الدّلالة سرعان ما تغيب لحضور الموت الذي هو مفعول المطر وحضور السّيف الذى هو فاعله لتظهر معهما دلالة الدم الذي هو نتيجة لتأثير السيف وعلامة للموت.

و إذا كانت السيوف في الأبيات السابقة تمطر و المطر يجمل دلالة الماء وحضوره إلا أن أقترانه بالسيف يجعل للدم سلطة الحضور بدلاً عنه لتكتمل صورة التّماهي بين الماء و الدّم.

وذلك بقول المتنبي يرثي محمد بن إسحاق التوخي:

أيَـــامَ قـــائمُ سيْفِه في كفه اليُمْنىَ وبَاعُ الموت عنـــه قصيرُ
ولطالما انْهَمَلتْ بماءٍ أحمـرٍ في شفرتيه جماجمٌ ونحـورُ[٦٢]

فقد توسط لفظ الماء بين السّيف وشفرتيه وبين الموت و الجماجم ففزعت من المـــاء بسبب هذا التوسط دلالة الحياة و أسقطت عليه دلالة الموت. فحضر الماء مشوباً بحمرة الدم ففقد بهذه الحمرة ذاتها (لا لون للماء)[٦٣] على الرغم من حضوره لفظاً وحضر الدم بسبب هذه الحمرة على الرغم من غيابه لفظاً.

و إذا كانت السّيوف انهملت بماء أحمر فإنّ هذا الماء ما هو إلا ماء الرقاب الذي يطفىء النار التي تشعلها السّيوف نار الحقد و الكراهية و الثّأر فقال:

تَبْكي عَلَى الأَنْصَلِ الغُمُودُ إذا أنذرها أنـــه يُجَـــرِّدُهَـــا
لعلْمَها أنَّهـــا تصَيرُ دَماً وأنَّـــهُ في الـرِّقـابِ يُـغْـمـدُهَا
أطْلَقَهَا فالعُدوُّ من جَـــزَعٍ يـذمها و الصَّـديـقُ يحْمَـدُهَا
تَـنْـقَـدِحُ النَّـــار مِـن مَضَارِبَها وَصَبُّ مَاءِ الـــرَّقَابِ يُخْمِدُهَا[٦٤]

ذكر لفظ الماء في الأبيات مضافًا إلى الرّقاب (ماء الرّقاب) لتسقط بهذه الإضافة جميع معـــاني الحيـــاة، و أيضاً جميع معاني الرقة و السهـــولة التي يستنبطنها لفـظ الماء الذي اكتسب بهذه الإضافـــة معاني القوّة مشوبة بحمرة الدّم الذي صرّح به في قوله (لعلمها أنّها تصير دمًا) ساعد على بقاء مفهوم لفظ الدم على الرغم من ذكر لفظ الماء مجاورته لألفاظ تشـــع بالـــقوّة (النّصل،الغمد، الدّم) لتترك أثارها على لفظ الماء. على حين يضفي لفظ الماء على المعنى مفهوم الكثـرة و الاستهانة بدماء الأعداء.

هيأ هذا الحضور و الغياب للماء و الدّم أو العلاقة الجدلية بينهما بحضور السّيف وتأثيره إلى خلق تلازم بين هذه الأطراف، هذا التّلازم ظهر في الأبيات التّالية بصحبة النّار ودلالاتها:

كفرندي فرندي سيفي الجراز لذة العين عدة للبراز
تحسب الماء خط في لهب النا ر أدقَّ الخطوطِ في الأحراز
كلما رُمت لونه منع النَّا ظر موجٌ كأنه منك هازي
ودقيق قذى الهباءِ أنيقٌ متوالٍ في مستو هزهاز
ورد الماءَ فالجوانب قدرا شربت والَّتي تليها جوازي
حملته حمائل الدهر حتى هي محتاجة إلى خرَّ از
وهو لاتحلق الدماء غيراريه ولا عرض منضية المخازيَ
يا مزيل الظَلامِ عني وروضي يوم شربي ومعقلي في البراز[٦٥]

تكررت في النص الأول ألفاظ السّيف و الماء و الدمّ و النّار ومتعلقات كل لفظ منهم. وقد ذكر السّيف اسمًا ظاهرًا ثم توارى خلف الضّمير الظّاهر و المستتر كما ورد ذكر الفرند مرتين مضافاً إلى ياء المتكلم في الأولى و إلى السّيف المضاف بدوره إلى ياء المتكلم في الثّانية مما يحمل تأكيدا على الذّات الشّاعرة و المتماهية بدورها في السيف، وقد بد أ به النص - على الرغم من كونه مشبها به - تاركا للذّهن رسم صورة للذّات الشّاعرة بعد أن جمعت ملامحها وصفاتها من طريق الصورة المشبه والمشبه به، مما يخلق توحّدا بينها فيتماهى الشّاعر في فرند السّيف ويتماهى فرند السّيف في الشّاعر حتى يصبحا صورة واحدة روحًا وفعّلا وتأثيرًا نلمس ذلك من خلال فعل (الورد) و الشّرب المرتبط بالماء فالسّيف يرد الماء، و الشاعر يشرب الماء والنتيجة واحدة تظهر من خلال حظور لفظ الدّم في البيتين ثم يتوالى من خلال النص تواجد السّيف وحضوره مرتبطًا بلفظ الماء الذي يرد مرتين في النّص تابعًا له في الأولى حيث كان وصفاً، وقد جمع في هذا الوصف بين الماء و النار من باب جمع الأضداد[٦٦]، معضّداً الطّرف الأول (الماء) بذكر الموج على حين عضّد الطّرف الثّاني (النّار) بذكر اللّهب ليتفق الطّرفان على إبراز الصّورة البصريّة، أما في الثّانية فقد ذكر الماء مكانًا لورود السّيف (ورد الماء فالجوانب قدرا) فيرتبط الماء بالقتل و الدّم لأنّ هذا الماء كان سببا لمضائه وحدتّه، وإذا ما ورد السّيف الماء فإن الشّاعر يشرب وفعل الشرب يوجه الذّهن إلى الماء إلا أن هذا التّوجه سُرعان ما ينحسر ليطلّ لفظ الدّم الذي نصّ عليه الشارح[٦٧] (يا مُزيلَ الظَّلاَمِ عَنَّى وَرَوْضِي يَوْمَ شُرْبي).

عندها تصبح العلاقة بين الورد و الماء و الدمّ [٦٨] علاقة تلازم وتبادل حيث يحضر لفظ الماء مع الورود ولفظ الدمّ مع السّيف فتسقط من الماء معاني الإيجاب وتعزز معاني السّلب وما تحمله من دماء. فورود السّيف (ورد الماء) يتبعه انزياح يلحق بلفظ الماء لتظهر لنا لفظ الدّماء وحمرتها لا تلحق الدماء غراريه وإذا ما لحق هذا الانزياح فإن العلاقة بين لفظ الماء و الدّماء تصبح علاقة تبادليّة فيتماهى كل منهما في الآخر كما تماهى سابقاً السّيف و الشّاعر .

هذا التماهي بين الماء و الدم جعل لفظ (الورد) الملتصق بالماء يخرج من بوابة الحياة إلى بوابة الموت فالسيف يرد الماء فيتركها دماً والخيل في الأبيات التالية ترد الغدران و تترك أثر وروده دماً وهذا ما جاء في قوله :

تَعَوَّدَ أَنْ لاَتَقْضَمَ الحبَّ خَيْلُهُ إذاَ الَهامَ لَمْ تَرْفَعْ جُنُوبَ العلائقِ
وَلاَتَرِدَ الغُدْرَان إلا وَمَاؤُهَا من الدَّمِ كالرَّيحانِ تحت الشقائقِ[٦٩]

يثير المتنبي قبل الوصول بالماء لدرجة الامتزاج بالدّم معاني القوّة من خلال القضم والهام وتساعد الأفعال المضارعة على استمرار هذه الإثارة (تعوّد –ترفع – ترد) مع ما تتضمنه كلمة (تعوّد) من تكرار إلا أن دلالات كلمتي الغدران و الماء تثيران ارتياحًا نفسيًّا، يعزز هذا الارتياح ويقوّيه حضور لفظ الرّيحان والشقائق، حيث يثير حضورهما حاستي البصر والشم معاً، فتستبعد معاني السّلب التي قد تتسرب من الألفاظ الدالة على القوّة من جانب ومن لفظ الغدير وما يشتمل عليه من معاني الغدر و المخاتلة، التي يستنبطها المعنىاللّغوي من جانب آخر[٧٠] إلا أنّه سُرعان ما يظهر هذا الجانب السّلبيّ و يلتحم مع معاني القوّة السابقة ليظهرالغدر بامتزاج الماء بالدّم، فتصدم الحواس بحمرة الدّم المنفرَّة بدّلا من حمرة الشقائق المحببة، لينتقل الإحساس بالصورة للنقيض من الارتياح والانبساط للقلق والتوتر حيث تثار مشاعر الاشمئزاز والألم، فيتحوّل الماء من بعد الامتزاج من عنصر حياة إلى عنصر موت وفناء.

ولعل فكرة ورود السّيف الماء تحمل معها فكرة المعاودة و التكرار لهذا الورود فكلما خامر السيف العطش ورد الماء، لذلك قال:

كأن جوري المهجات ماءٌ يعاودها المهندُ من عطاشِ[٧١]

ساعد التصاق المشبه بالمشبه به (جواري المهجات ماءً) على حضور لفظ الدّم من خلال الكناية على حين يحضر لفظ الماء صراحة معضداً بكلمة جواري السابقة له وكلمة العطش التالية له لالتصاق هاتين الكلمتين بالماء أكثر من التصاقهما بالدّم .

وهكذا نلحظ أن لهذه الأدوات حضوراً في هذه العلاقة التبادلية بين الماء ة الدّم حتى أنّ حضور أحدهما يستدعي حضور الآخر وإن غاب في باطنة هذه الدلالات أسقطها السّيف الذي كان له في النّص بحضور الخيل و الأسنّة و النار سحابٌ ومطرٌ وورودٌ وعطاشاٌ هذه السيولة المتمثّلة في الطرف الثّني كانت مجالاً للعلاقة التبادليّة بين الماء و الدّم أو تماهي الماء في الدّم و الدّم في الماء .

الخاتمة :

كان للماء في شعر المتنبيّ حضور واضح شأنه في ذلك شأن الشّعر العربّي عامّة، مستوعباً بهذا الحضور دلالات الماء المتعددّة و المتناقضة ؛ والمتقلبة، ولكن حضوره في شعـــر المتنبيّ جاء حضوراً مختلفاً متفاوتاً في ارتباطه بدلالات القّوة من السّيف و الأسنة و الخيل و النّار و الدّم، جاء هذا الاختلاف و التفاوت تبعاً لغياب الدم عن هذه الدلالات، أو حضوره معهـــا فعند غياب الدّم عن النص يظل الماء محتفظاً بدَاته و لايفقد شيئاً من سماته مع أخذه من السباق الذي تظهر فيه أدوات القتال السيف و الأسنة شيئاً من دلالاتها فتعزز فيه دلالات القوة وتطرح عنه دلالات الليونة و السهولة لانها لاتتماشى مع السيّاق .

وعند حضور الدم مع أدوات القتال إلى النّص يقيم مع الماء علاقة تبادلية حيث يغيب أحدهما في الآخر ويظلّ السّيف مع أدوات القتال شاهداً على هذا الحضور و الغياب وعاملاً مؤّثراً فيهما بعد أن أصبح للسيف سحابٌ ومطرٌ وورودٌ وعطشٌ فيصنع بهذه العلاقات وشايج قوّية بين سائلين يتماهى كل منهما في الآخر من خلال علاقة تبادلية، فيحضر الدّم من خلال دلالات الماء ويحضر الماء من خلال دلالات الدم تاركاً علاقة جدلية بين الدلالتين.

هوامش البحث

(١) اللسان / موه

(٢) الحيوان. الجاحظ: أبو عثمان عمر بن بحر. تحـ عبد السَّلام هارون، ط٥، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي و أولاده. القاهرة، ت ١٣٨٦هـ - ١٩٦٦م، مج ٣، ج٥، ص١٤٢

(٣) المستطرف من كل فن مستظرف. الا يشبهني شهاب الدين. تحـ: عبد الله أنيس الطبَّاع .(دار العلم للملايين، بيروت) ص٣٧١

(٤) سورة هود الآية ٧

(٥) تاريخ الخميس في أحوال أنفس النفيس. ديار بكري حسين محمد بن الحسن (مؤسسة شعبان، بيروت، ط بدون، ت بدون) ٣١/١

(٦) سورة الأنبياء آية ٣٠

(٧) سورة الطارق آية ٥-٦-٧

(٨) سورة الفرقان آية ٥٤

(٩) سورة الزخرف آية ١١

(١١) شرح ديوان زهير بن أبي سُلمَى، صنعة: أبي العبَّاس ثعلب. تحقيق د. حنا نصر الحِتّي (دار الكتاب العربي، بيروت، ط١، ١٩٩٢م - ١٤١٢هـ) ص١٣٩

(١٢) السابق ص ٣٩

(١٣) الهامدنيون شعر همدان و أخبارها، جمع وتحقيق: حسن أبو ياسين (طبع دار العلوم، الرياض، ت ١٩٨٣) ص٣٠٨

(١٤)ديولن حاتم الطائي، تحقيق سليمان جمال (مطبعة المدني، القاهرة ت ١٩٧٥م) ص١١

(١٥) البيان و التبين. الجاحظ (أبو عثمان عمر بن بحر) تحقيق: عبد السلام هارون (ط٤ الخانجـي، ت ١٩٧٥م) ج١ ص ٢٨٤

(١٦) موسوعة أساطير العرب عن الجاهلية ودلالاتها. د. محمد عجينة (دار محمد علي للنشر دار الغاربي ، بيروت، ط٢، ت ٢٠٠٥) ص ٢٥٩

(١٧) الممتع في علم الشعر وعمله. القيرواني: عبد الكريم النهشلي. تحقيق د. منجي الكعبي (الدار العربية للكتاب، ليبيا - تونس، ت ١٩٧٨م) ص ٢٦٤

(١٨) الغصن الذهبي. جميس فريزر (الهيئة المصرية العامة، ١٩٧١م) ج١ ص ٢٥٠

(١٩) آثار البلاد و أخبار العباد. القزويني: زكريا بن محمد (دار صادر، بيروت، ت ١٩٦٠م) ص ٤٩٦

(٢٠) شرح ديوان المتنبي. وضع عبد الرحمن البرقوقي (دار الكتاب العربي، بيروت، ت ١٩٣٨ م) ٢٠٥/١ (٢١)ديوان الحماسة. أبو تمام (حبيب بن أوس الطائي) تعليق محمد عبد المنعم خفاجي (القاهرة، ١٣٩٧هـ) ص ٢٣٥

(٢٢) شرح ديوان المتنبي ٤/ ٢٧٣

(٢٣) ديوان أبي تمام شرح الخطيب التبريزي (أبو زكريا يحي بن علي) ت ٥١٢هـ تحقيق: محمد عبده عـــزام (دار المعارف، مصر، ط٤، ت ١٩٥١ هـ) ١٥٢/١

(٢٤) سورة الطارق آية (٥-٦-٧)

(٢٥) تفسير القرطبي الجامع لأحكام القرآن، القرطبي: (أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري) (كتاب الشعب، ط د تاريخ د) ٧٠٩٤/٨

(٢٦) ديوان عبيد بن الأبرص تحقيق: حسين نصار (مطبعة البابي الحلبي، القاهرة، ١٩٥٧م) ص١٢٩

(٢٧) سورة الحاقة آية ١١

(٢٨) بنو تميم شعرهم في العصر الجاهلي، جمع وتحقيق: عبد الحميد المعيني (منشورات نادي القصيم الأدبي، السعودية، ١٩٨٢م) ص ٣٣٢

(٢٩) ديوان حسان بن ثابت الأنصاري (ت ٥٤ هـ) تحقيق: د. سيد حنفي (طبعة الهيئة المصرية العامة، ت ١٩٧٤م) ص ١٠٧

(٣٠) ديوان طرفه بن العبد، تحقيق دربة الخطيب، لطفي الصقال (مطبـــوعات مجمع اللغة العربية، دمشق، تَ ١٩٧٥م) ص ١٧١

(٣١) شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات. الأنباري (أبو بكر محمد بن القاسم ٢٧١-٣٢٨هـ) تحقيق عبد السلام هارون (دار المعارف، ط٤، ١٤٠٠هـ. ١٩٨٠م) ص ٤٢٧

(٣٢) شرح المفضليات. التبريزي (يحي بن علي (٤٢١-٥٠٢هـ) تحقيق: علي البجاوي (دار نهضة مصر، القاهرة، ت ١٩٧٧م) ٣٨٣/٢

(٣٣) ديوان طرفة بن العبد ص ٧٢

(٣٤) سورة فاطر آية ١٢

(٣٥) سورة الفرقان آية ٥٣

(٣٦) شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات. الأنباري ص ٤١٩

(٣٧) ديوان عنتره شرح وتحقيق عباس إبراهيم (دار الكتاب العربي، بيروت، ط٢، ١٩٩٨م) ص ٩٩

(٣٨) كتاب الأضداد. الأنباري. محمد بن القاسم (٢٧١هـ) تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم (المكتبة العصرية، بيروت، ت ١٤٠٧هـ -١٩٨٧م) ص ١٣٨

(٣٩) اللسان / حمم

(٤٠) ديوان لوزم ما لا يلزم. أبو العلاء المصري: أحمد بن عبد الله بن سليمان التنوخي. رواية الإمام التبريزي ومراجعة الإمام الجواليقي. تقديم وشرح وفهرسة وحيد كبابه وحسن صمد (دار الكتاب العربي ط ١، ت ١٣١٦هـ) ٥٣٦/٢

(٤١) يقول الثعالبي: «العرب تستعير في كلامها الماء لكل ما يحسن موقعه ومنظره، ويعظم قدره ومحله ...»

ثمار القلوب في المضاف و المنسوب. الثعالبي: أبو منصور عبد الملك (مطبعة الظاهرة، القاهرة، ت ١٣٢٦هـ) ص٤٤٩

(٤٢) شرح ديوان المتنبي، ٣/ ٧٦

(٤٣)السابق ٥٢/٤

(٤٤) السابق ٤/ ١٥٣-١٥٤

(٤٥) السابق ٢٩٩/٢

(٤٦) السابق ١٤٨/٣

(٤٧) جاء في شرح ديوان المتنبي للبرقوقي ٢٤٥/٣ قوله: أنكرا لصاحب بن عباد لفظة مسبطر وقال: «إن ذكرها في مرثية النساء من الخذلان المبين» والصاحب مولع بنقد المتنبي وذمه بالحق وبالباطل، وإلا فالكلمة لاغبار عليها وقال العروضي: سمعت أبا بكر الشعراني خادم المتنبي يقول: قدم المتنبي وقرأنا عليه شعره فأنكر هذه اللفظة وقال: مستظل قال العروضي: و إنما غيرها الصاحب و أنكرها عليه يقول مت و أنت في هذا الحال من العز المتطاول و الملك الكامل من ملك أبنك.

(٤٨) السابق ١٤٧/٣-١٤٨

(٤٩) السابق ١٤٧/٣

(٥٠) اللسان /حصن

(٥١) ديوان أبي تمام ٣/ ٢٧٨

(٥٢) شرح ديوان المتنبي ٢١٩/٣

(٥٣) شرح ديوان المتنبي ١٤٧/٣

(٥٤) السابق ١/ ٢٠٥

(٥٥) السابق ٢١٧/٣

(٥٦) السابق ٢١٩/٣

(٥٧) اللسان / شرق

(٥٨) شرح ديوان المتنبي ٢/ ١٢٨

(٥٩) شرح ديوان المتنبي ٢٢٤/٣

(٦٠) شرح ديوان المتنبي ٢/ ١٢٨

(٦١) شرح ديوان المتنبي ٧٣/٢

(٦٢) شرح ديوان المتنبي ٢٣١/٢

(٦٣) انظر ص٥

(٦٤) السابق ٣٣/٢-٣٤

(٦٥) شرح ديوان المتنبي. ٢/ ٢٨١-٢٨٢

(٦٦) منهاج البلغاء وسراج الأدباء حازم القرطاجني. تقديم وتحقيق الحبيب بن الخوجه تونس ١٩٦٦م ص ٣٦٨

(٦٧) يريد كما أن شارب الراح يشربها على الرياض و البساتين فروضي يو أشرب وماء الأعداء شرح ديوان المتنبي ٢٨٢/٢

(٦٨) هذا التاريخ الدموي للورد و الماء و السيف هو تاريخ العرب الذي أشاد به عمرو بن كلثوم مفتخراً فقال: في شرع القصائد السبع الطوال ص ٤٢٠

أبـاهِـنْـدِ فـلا تَـعْـجَـلْ عَلَيْنَا وانْـظِـرْنَـا نُـخَـبِّرْكَ اليقينا
بـأنَّـا نـورد الـرَّيـات بيضاً وَتَـفْـيـد رُهـنَّ حُـمْـراً قـد رَوِينَـا

و أشاد به عنتره العبسي ص٦١ فقال:

ولكم وردت الموت أعظم موردٍ وصدرت عنه فكان أعظم مصدر

(٦٩) السابق ٣/٧١

(٧٠) اللسان / غدر

(٧١) شرح ديوان المتنبي ٢/٣١٨

جامعة الطائف

التقديم والتأخير في المتشابه اللفظي في القرآن الكريم

دراسة نحوية دلالية

د . بريكان سعد الشلوي

أستاذ مساعد – قسم اللغة العربية – كلية الآداب
جامعة الطائف

مجلة جامعة الطائف – الآداب والتربية (اللغة العربية وآدابها)
المجلد الأول – العدد الرابع – ذو الحجة ١٤٣١هـ – ديسمبر ٢٠١٠م

الملخص

يعرض البحث لدراسة التقديم والتأخير في القرآن الكريم من خلال بعض ما ورد في كتب متشابه القرآن الكريم من أمثلة هذا النوع ونماذجه.

وذلك وفق دراسة نحوية دلالية تعنى بدراسة التقديم والتأخير في متشابه القرآن، سواء على المستوى النحوى الذي يعنى باختلاف الرتبة النحوية، أو على المستوى الدلالي الذي يعلل لهذا التقديم والتأخير من جهة مراعاة السياق والمقاصد، لا من جهة ما توجبه أو تجيزه أنظمة اللغة أو تمنعه.

وقد بيّن البحث أنماط التشابه اللفظي في القرآن الكريم، وموضع التقديم والتأخير منها، وأنه نوع من التصرف في التركيب والعدول به عن أصل الترتيب لغاية مقبولة .

وتم تقسيم البحث وفق صور وأنماط التركيب النحوي، فقد يكون التقديم والتأخير بين المبتدأ والخبر، وقد يتقدم الفضلة على أحد ركني الجملة، وحينا تتقدم بعض الفضلات على بعض. وكل ذلك لأغراض قد تكون نحوية، وقد تكون دلالية، ذكرت في ثنايا البحث.

لقد حفل التراث العربي الإسلامي بعدد من المصنفات التي أفردت للبحث في المتشابه اللفظي للقرآن الكريم، إما بجمع هذه الآيات المتشابهة ؛ ليقف الحفاظ على الفروق التي بينها رغبة في إتقان الحفظ، وإما بمحاولة بيان الفروق الدلالية بين ما تشابه من الآيات،[١] سواء ما كان منه على المستوى المعجمي أو الصوتي أو الصرفي أو النحوي.

وترجع أهمية الدراسة إلى كثرة ما أثارته هذه القضية من الجدل في القديم والحديث ، حيث اعتمد عليها المغرضون والطاعنون في القرآن الكريم؛ لإثارة الشبهات والشكوك لدى العامة وذوي الجهالة بنظام هذه اللغة وقواعدها الثابتة.

ومن ثم فإن الحاجة لا تزال ملحة للدراسة المتأنية حول ما في هذا الكتاب المعجز من صور وأقسام عديدة للتشابه.

ومن هذه الأقسام ، **قسم التقديم والتأخير في المتشابه اللفظي** - موضوع هذا البحث - و«هو بابٌ كثيرُ الفوائد، جَمُّ المحاسن، واسعُ التصرُّف ،بعيدُ الغاية . لا يزالُ يفتَرُّ لك عن بديعة ويُفضي بكَ إلى لطيفة. ولا تزالُ ترى شِعراً يروقُك مسمَعُه، ويَلْطُف لديك موقعُه، ثم تنظرُ فتجدُ سببَ أنْ راقك ولطُف عندك أن قُدّم فيه شيءٌ وحُوّل اللفظُ عن مكانٍ إلى مكان» .[٢]

تعريف المتشابه اللفظي:

عرف الكرماني الآيات المتشابهات بأنها هي: «التي تكررت في القرآن وألفاظها متفقة ؛ولكن وقع في بعضها زيادة أو نقصان، أو تقديم أو تأخير، أو إبدال حرف مكان حرف، أو غير ذلك مما يوجب اختلافا بين الآيتين، أو الآيات التي تكررت من غير زيادة ولا نقصان»[٣].

وبنحو من ذلك عرفه كلٌّ من الإسكافي والغرناطي[٤].

وذكر ابن جماعة أن موضوع كتابه هو الآيات التي تكررت معانيها واختلفت ألفاظها ، من اختلاف ألفاظ معان مكررة، وتنويع عبارات فنونه المحررة، من تقديم وتأخير، وزيادات ونقصان، وبديع وبيان، وبسط واختصار، وتعويض حروف بحروف أغيار[٥]

ولقد حدَّ الزركشي والسيوطي مفهوم المتشابه بأنه: «هو إيراد القصة الواحدة في صور شتى، وفواصل مختلفة، ويكثر في إيراد القصص والأنباء»[٦]

صور التشابه وموقع التقديم والتأخير منها:

نستطيع -من خلال ما سبق عرضه من أقوال العلماء الذين تعرضوا لقضية المتشابه بالدراسة والتحليل- أن نقف على صورتين للتشابه في القرآن الكريم:

الصورة الأولى: اتفاق آيتين أو أكثر في بعض الألفاظ مع الاختلاف بينها بصور ووجوه شتى، وهذا هو ما يعرف بالمتشابه اللفظي.

الصورة الثانية: اتفاق آيتين أو أكثر في جميع الألفاظ والمعاني مع الاختلاف في الغرض أو المقام أو السياق، وهذا ما يعرف بالتكرار.

وهذه الصورة الأخيرة خارجة عن موضوع بحثنا؛ لوقوعها في دائرة الدراسات البلاغية.

أما الصورة الأولى: فلها صور وأقسام فرعية ، تتمثل في دراسة الصور التالية:

١- الفروق الصوتية: اختلاف التشكيل الصوتي.

٢- الفروق المعجمية: (إبدال كلمة بأخرى).

٣- الفروق الصرفية: (إبدال صيغة بأخرى).

٤- الفروق النحوية: ولها صور منها :

(أ) اختلاف التقديم والتأخير .

(ب) اختلاف الحذف والذكر .

(ت) اختلاف التعريف والتنكير .

(ث) اختلاف الفاعل .

(ج) اختلاف المفاعيل .

(ح) اختلاف المتعلق .

(خ) اختلاف النعت .

(د) اختلاف صيغة النداء ....الخ .

وسوف يقتصر هذا البحث على دراسة ظاهرة واحدة من ظواهر التشابه السابقة، هي اختلاف الآيتين المتشابهتين بالتقديم والتأخير، وهي صورة من صور الاختلاف النحوي في أنماط التشابه .

مفهوم التقديم والتأخير:

يراد بالتقديم والتأخير مخالفة عناصر الجملة ترتيبها الأصليّ في السياق، فيتقدَّم ما حقه التأخير، ويتأخر ما حقه التقديم.

ومن المتقرَّر أن ثمة ترتيبا لازما لا يمكن مخالفته، وهو ما يعرف بالرتبة المحفوظة، وثمة ترتيب غير لازم، وهو ما يعرف بالرتبة غير المحفوظة، وقد أشار القدماء إلى قضية رعاية الرتبة، كما نلاحظ ذلك فيما ذكره سيبويه عن الخليل.(٧)

وثمة أسباب معروفة للخروج على الترتيب الأصلي حيث لا يكون لازما؛ ومن أهمّ هذه الأسباب:

١- أن تكون العلاقة بين العنصرين علاقة المحكوم عليه بالحكم، فمقتضى الأصل أن يتقدَّم المحكوم عليه ويتأخَّر الحكم، كتقدُّم المبتدإ على الخبر .

٢- أن تكون العلاقة بينهما علاقة العامل بالمعمول، فمقتضى الأصل أن يتقدَّم العامل ويتأخَّر المعمول، كتقدُّم الفعل على المفعول .

٣- أن تكون العلاقة بينهما علاقة المقدِّمة بالنتيجة، فمقتضى الأصل أن تتقدَّم المقدِّمة وتتأخَّر النتيجة، كتقدُّم فعل الشرط على جواب الشرط .

٤- أن تكون العلاقة بينهما علاقة الكلِّ بالجزء المأخوذ منه، فمقتضى الأصل أن يتقدَّم الكلُّ ويتأخَّر الجزء، كتقدُّم المُستثنى منه على المُستثنى .

٥- أن يكون التقدُّم لحفظ الترتيب المعهود في نظام اللغة، كتقدُّم الفعل على الفاعل.

والحاكم للتقديم والتأخير في النحو العربي هو الرتبة، التي يمكن تعريفها: بأنَّها جزءٌ من النظام النحويِّ يقصد به «أن يكون للكلمة موقع بالنسبة لصاحبتها كأن تأتي سابقة لها أو لاحقة، فإذا كان الموقع ثابتا سُمّيت الرتبة محفوظة، وإن كان الموقع عرضةً للتغير سُمّيت غير محفوظة»(٨).

ومعنى ذلك أن الرتبة تحدِّد موقع الكلمة من بناء الجملة، بمعنى: أن تأتي إحداهما أوَّلاً والأخرى ثانيًا، ويمتنع العكس إذا كانت الرتبة محفوظة، أمَّا في حالة الرتبة غير المحفوظة فيعتبر ترتيب الكلمات في السياق أصلٌ افتراضيٌّ اتَّخذه النظام النحويُّ، وقد يُحتِّم الاستعمال -حسب المقام والغرض- خلافه بتقديم المتأخِّر .

ويُوصَف العنصر المتقدِّم في الرتبة المحفوظة بأنَّه متقدِّم وجوبًا - ومن ذلك تقدُّم الموصول على الصلة، والموصوف على الصفة، وحرف الجرِّ على المجرور، وغيرها -أمَّا في الرتبة غير المحفوظة-كالَّتي بين المبتدأ والخبر، والفاعل والمفعول به، والضمير والمرجع، وغير ذلك فالتقديم والتأخير اختيارٌ أسلوبيٌّ جائزٌ للمتكلِّم يعبِّر به عن مقصده.

وقد يُلغى هذا الاختيار وتُحفَظ الرتبة ؛ إمَّا لاتِّقاء لبس، كما في (ضرب موسى عيسى)، أو لاتِّقاء مخالفة القاعدة، كما في (رأيتُكَ)، فانتقال الرتبة من دائرة الرتبة غير المحفوظة إلى دائرة الرتبة المحفوظة أمرٌ وارد.

مخالفة الأصل فيهما:

إذا كان الحديث عن التقديم والتأخير ينطلق من منطلق الرتبة فإن الترتيب الَّذي جعله النظام النحويُّ أصلاً في الرتبة غير المحفوظة لا يُسأل عن علَّته في غالب الأحيان، وإنَّما يُسأل عمَّا جاء على خلافه .

فالتقديم والتأخير نوعٌ من التصرُّف في التركيب والعدول عن أصل ترتيب عناصره لغاية، وهذا التصرُّف لا يكون لغير علَّة مقبولة، وإلا كان محض عبث تتنزه اللغة عنه.

حاصل القول في ظاهرة التقديم والتأخير (الجائز) أنَّها تفتقر إلى أمور :

الأوَّل: تحديد الأصل في ترتيب عناصر التركيب.

الثاني: تحديد العدول عن الأصل في هذا الترتيب.

الثالث: البحث عن علَّة هذا العدول وتأثيره في المعنى والدلالة.

هذا وسوف يعنى هذا البحث في دراسته بأهم الصور المذكورة للتقديم والتأخير في متشابه القرآن.

صور التقديم والتأخير:

تعدُّ ظاهرة التقديم والتأخير من أوضح الظواهر في كتاب الله تعالى، ودراسة هذه الظاهرة دراسة قديمة متأصِّلة، وقف عليها الصحابة رضوان الله عليم في تفسيرهم لكتاب الله تعالى ؛ فمن ذلك ما رواه الطبري عن ابن عباس في تفسير قوله تعالى: ﴿ يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ فَقَدْ سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓا۟ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً ﴾

«عن ابن عباس في هذه الآية قال: إنهم إذا رأوه فقد رأوه، إنما قالوا :جهرةً أرنا الله . قال: هو مقدّم ومؤخر.»(٩)

وهذا صورة من صور التقديم والتأخير في متشابه القرآن – المذكورة في هذا البحث – حيث تتقدم بعض الفضلات على بعض ؛ وهنا تقدمت جملة مقول القول – في محل المفعولية – على الحال: (جهرة).

ولذا فقد نصَّ الطبري على وجود هذا الفن في كلام العرب ووجوده في كتاب الله تعالى، فقال: «فبيِّن -إذْ كان موجودًا في كلام العرب الإيجازُ والاختصارُ، ..... وتقديمُ ما هو في المعنى مؤخر، وتأخيرُ ما هو في المعنى مقدّم، والاكتفاءُ ببعض من بعض، وبما يظهر عما يحذف، وإظهارُ ما حظه الحذف- أن يكون ما في كتاب الله المنزل على نبيه محمد ﷺ من ذلك، في كلّ ذلك له نظيرًا، وله مِثْلا وشبيهًا».[١٠]

وقد كان لسيبويه الريادة في هذا الباب -التقديم والتأخير- ؛ وذلك حيث تعرض له في: باب الفاعل الذي يتعداه فعله إلى مفعول، فقال: «وذلك قولك: ضرب عبد الله زيداً. فعبد الله ارتفع ههنا كما ارتفع في ذهب، وشغلت ضرب به كما شغلت به ذهب، وانتصب زيد لأنه مفعول تعدى إليه فعل الفاعل. فإن قدمت المفعول وأخرت الفاعل جرى اللفظ كما جرى في الأول، وذلك قولك: ضرب زيداً عبد الله ؛ لأنك إنما أردت به مؤخراً ما أردت به مقدماً، ولم ترد أن تشغل الفعل بأول منه وإن كان مؤخراً في اللفظ. فمن ثم كان حدُّ اللفظ أن يكون فيه مقدَّماً، وهو عربيٌّ جيِّدٌ كثير، كأنهم إنما يقدمون الذي بيانه أهم لهم وهم ببيانه أعنى، وإن كانا جميعاً يهمانهم ويعنيانهم.»[١١]

ويفهم من كلام سيبويه: «لأنك إنما أردت به مؤخراً ما أردت به مقدماً» أن من الألفاظ ما هو مقدم على نية التأخير، ومنه ما ليس كذلك.

وهذا ما ينص عليه عبد القاهر الجرجاني حيث يجعل التقديم على وجهين ؛ فيقول :

واعلمْ أنَّ تقديمَ الشيء على وجهينِ:

تقديم يقالُ إنه على نيَّةِ التأخير وذلك في كلّ شيءٍ أقررْتَه معَ التقديم على حُكمه الذي كان عليه وفي جنسه الذي كانَ فيه، كخبرِ المبتدأ إذا قَدَّمْتَه على المبتدأ، والمفعولِ إذا قدمتَه على الفاعل، كقولك: منطلقٌ زيدٌ، وضربَ عمراً زيدٌ . معلومٌ أن «منطلق» «وعمراً» لم يَخرجا بالتقديم عمَّا كانا عليه من كونِ هذا خبرَ مبتدأ ومرفوعاً بذلك وكونِ ذلك مفعولاً ومنصوباً من أجله، كما يكونُ إذا أخَّرتَ .

وتقديم لا على نيَّةِ التأخيرِ ولكنْ على أن تنقلَ الشيءَ عن حُكمٍ إلى حكم، وتجعل له باباً غيرَ بابه وإعراباً غيرَ إعرابه، وذلك أن تجيءَ إلى اسمين يحتملُ كلٌّ واحدٍ منهما أن يكونَ مبتدأً ويكونُ الآخرُ خبراً له، فتقدمُ تارةً هذا على ذاك وأخرى ذاك على هذا، ومثالُه ما تصنعُه بزيد والمنطلقِ، حيث تقولُ مرةً: زيدٌ المنطلقُ، وأخرى: المنطلقُ زيدٌ، فأنتَ في هذا لم تقدّم المنطلقَ على أن يكونَ مَتروكاً على حُكْمِه الذي كان عليه معَ التأخير فيكونُ خبرَ مبتدأ كما كانَ، بل على أن

تنقُّلَه عن كونهِ خبراً إلى كونهِ مبتدأ، وكذلك لم تؤخِّر زيداً على أن يكون مُبتدأ كما كان، بل على أن تُخرجَه عن كونِه مبتدأ إلى كونِه خبراً .

وأظهرُ من هذا قولُنا: ضربتُ زيداً وزيدٌ ضربتُه، لم تقدم زيداً على أن يكون مفعولاً منصوباً بالفعل كما كان، ولكن على أن ترفعَه بالابتداءِ وتشغلَ الفعلَ بضميرِه وتجعلَه في موضعِ الخبرِ له [١٢]

وقد أشار القدماء إلى نحو ما ذكره عبد القاهر هنا من هذا التقسيم، فمن ذلك ما ذكره سيبويه عن الخليل في قوله: «وزعم الخليل -رحمه الله- أنه يستقبح أن يقول قائم زيد، وذاك إذا لم تجعل قائماً مقدَّماً مبنياً على المبتدأ، كما تؤخّر وتقدّم فتقول: ضرب زيداً عمرٌو، وعمرٌو على ضرب مرتفع، وكان الحدّ أن يكون مقدَّماً ويكون زيد مؤخّراً، وكذلك هذا، الحدّ فيه أن يكون الابتداء فيه مقدَّماً، وهذا عربي جيد، وذلك قولك تميميٌّ أنا، ومَشنوءٌ مَن يشنَؤك، ورجلٌ عبدُ الله، وخزٌّ صُفّتك».[١٣]

ويوضح ذلك السيرافي بقوله:«يريد أن قولك :(قائم زيد) قبيح إن أردت أن تجعل قائم مبتدأ، والنية فيه التأخير، كما تقول: «ضرب زيدا عمرو» والنية تأخير زيد، تريد الذي هو مفعول، وتقديم عمرو الذي هو فاعل.»[١٤]

فنلاحظ أن «التقديم عند الخليل إنما هو على نية التأخير؛ حيث يبقى على حكمه الذي كان عليه قبل التقديم، ويرى الخليل أن تقديم الخبر في قولنا: (قائم زيد) يبقى خبرا كما في تقديم المفعول على الفاعل، هذا هو مراد الخليل، وبدون مراعاة ذلك يصبح الكلام قبيحا ؛ لأنه يؤدي إما إلى لبس كما في تقديم المفعول، حيث يصبح فاعلا ، أو يؤدي إلى المحال كما في تقديم الخبر، حيث يخبر عن النكرة بالمعرفة .»[١٥]

ونخلص من ذلك إلى أن ثمة أقساما للتقديم والتأخير بجسب الجهة التي ينظر منها، فتارة يقسمون التقديم إلى وجهين، وذلك باعتبار معنى الكلام، وتارة يقسمونه إلى نمطين، وذلك بمراعاة المرتبة النحوية للمقدم، ونية المتكلم في إبقاء المقدم على حكمه من حيث التأخير، أو تحويله عنه، وتارة يقسمونه من حيث التقدم على العامل وعكسه، وقد يقسم غير ذلك ؛ فمن ثم تظهر لدينا الصور والأنماط التالية :

أولا :صور التقديم من حيث المعنى :

يقسم الطبري صور التقديم والتأخير إلى :

مقدم أصالة، ومقدم بمعنى المؤخر:

وقد ذكر النوع الثاني وهو المقدم بمعنى المؤخر، وهو اللفظ يكون مقدَّما لفظا وحكما، ولكنه من جهة المعنى في معنى المؤخر، ويتضح ذلك من خلال كلام الطبري في تفسيره لقوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ (الفاتحة:٥)

قال أبو جعفر: وقد ظنّ بعض أهل الغفلة أنّ ذلك من المقدّم الذي معناه التأخيرُ،[١٦] كما قال امرؤ القيس:

ولَوْ أَنّ مَا أَسْعَى لأَدْنَى مَعِيشةٍ... كَفاني، ولم أطلُبْ، قليلٌ من المالِ [١٧]

يريد بذلك: كفاني قليلٌ من المال ولم أطلب كثيرًا، وذلك -من معنى التقديم والتأخير، ومن مشابهة بيت امرئ القيس- بمعْزِل، من أجل أنّه قد يكفيه القليلُ من المال ويطلُب الكثيرَ، فليس وُجودُ ما يكفيه منه بموجبٍ له تركَ طلب الكثير، فيكونَ نظيرَ العبادة التي بوجُودها وجود المعونة عليها، وبوجود المعونة عليها وُجُودها، فيكونَ ذكرُ أحدهما دالا على الآخر، فيعتدلَ في صحة الكلام تقديمُ ما قُدِّم منهما قبلَ صاحبه، أن يكونَ موضوعًا في درجته ومرتَّبًا في مرتَبته."[١٨]

نلاحظ أن نوع التقديم الذي يناقشه الطبري – هنا – في تقديم العبادة على الاستعانة ليس متعلقا بالرتبة النحوية، وإنما هو أمر متعلق بالمعنى المراد تقريره .

ومن ذلك أيضا تقديم المغفرة على العذاب أو العكس في قوله تعالى: ﴿فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ﴾الآية[١٩]. حيث قدم المغفرة. وفى سورة المائدة ﴿وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾[٢٠] قدم العذاب.

قال ابن جماعة: جوابه: أن آية البقرة وغيرها جاءت ترغيبا في المسارعة إلى طلب المغفرة، وإشارة إلى سعة مغفرته ورحمته، وآية المائدة جاءت عقب ذكر السارق والسارقة، فناسب ذكر العذاب؛ لأنه لهم في الدنيا والآخرة.[٢١]

فهذا ونحوه مما سبق لا تعلق لنا به، من جهة أن التقديم والتأخير فيه لا يرجع لتقديم رتبة نحوية على غيرها، وإنما هو راجع إلى المعنى وحده ؛ فمن الجائز -في قواعد اللغة - أن تقدم العبادة أو أن تقدم الاستعانة، ومن الجائز كذلك تقديم المغفرة أو العذاب بحسب ما يتطلبه الغرض والمقام، وتعيين تقديم أحدهما إنما هو أمر يرجع إلى المعنى لا غير .

ثانيا: تقسيمه بحسب مراعاة المرتبة النحوية للمقدم، ونية المتكلم:

يقسم التقديم والتأخير بمراعاة المرتبة النحوية للمقدم، ونية المتكلم في إبقاء المقدم على حكمه من حيث التأخير، أو تحويله عنه إلى قسمين:

١-تقديم على نية التأخير: وذلك مثل قولك: (ضربَ عمراً زيدٌ) فالمفعول به مقدم ولكنه باق على حكمه وهو التأخر عن فاعله؛ فلذا يقال فيه: مقدم على نية التأخير.

ومنه في القرآن قوله تعالى: ﴿ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ ﴾ (البقرة:١٢٤)

ومنه قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾[٢٢] (المائدة:٦٩)

٢-تقديم لا على نية التأخير: و ذلك مثل قولك: (زيد ضربته) بدلا من قولك:(ضربت زيدا) حيث أردت بتقديمه تحويله من موقع المفعولية إلى موقع الابتداء.

ومنه في القرآن قوله تعالى: ﴿ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ﴾ (البقرة: ١٢٠) مع قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ ﴾ (آل عمران:٧٣)[٢٣]

ثالثا: صور التقديم من حيث التقدم على العامل، أو غير العامل:

يقسم البعض التقديم والتأخير من حيث التقدم على العامل وغيره إلى قسمين:

الأول: تقديم اللفظ على عامله، نحو: ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ (آل عمران:١٢٢)؛ حيث قدم الجار والمجرور لإفادة الاختصاص.

الثاني: تقديم الألفاظ بعضها على بعض في غير العامل، وذلك نحو قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ ﴾ (البقرة:١٧٣) و قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ﴾ (المائدة:٣)[٢٤]

وقد تعرض بعض الباحثين كذلك لدراسة التقديم والتأخير في القرآن ولكن حسبما اتفق له من المباحث دون خطة شاملة؛ كأن يدرس:

١- التقديم والتأخير في الفاعل.[٢٥]

٢- التقديم والتأخير في المفردات.[٢٦]

٣- التقديم والتأخير في الضمائر.[٢٧]

ومن الباحثين من تعرض لدراسة بعض الآيات الواردة في التقديم والتأخير بغير خطة مبوبة لذلك على أبواب النحو.[٢٨]

ويمكننا أن نقسم متشابه التقديم والتأخير في القرآن إلى أقسام وأنماط أخر، بالنظر إلى صور وأنماط اختلاف التركيب النحوي بالتقديم والتأخير .

أنماط التشابه في التقديم والتأخير :

بعد الاطلاع على الدراسات السابقة حاول البحث تقديم خطة تقرب معظم أنواع المتشابه بالتقديم والتأخير، فكانت كالتالي :

أولا : متشابه التقديم والتأخير بين المبتدأ والخبر .

وله صور :

أ- متشابه التقديم والتأخير بين المبتدأ والخبر الاسمي .

ب- متشابه التقديم والتأخير بين المبتدأ والخبر الفعلي .

ثانيا : تقديم الفضلة على أحد ركني الجملة.

وله صور منها :

(أ) تقدم الفضلة على ركن الجملة الاسمية .

(ب)تقدم الفضلة على ركن الجملة الفعلية .

(ج) تقدم المعمول على العامل .

ثالثا : تقديم بعض الفضلات على بعض .

وله صور، منها :

١. تقديم الظرف على المفعول .
٢. تقديم ضمير التوكيد والفصل على المفعول الثاني وعكسه .
٣. تقديم الصفة أو الحال على الظرف وعكسه .
٤. تقديم أحد متعلقات الفعل على غيره .
٥. تقديم بعض جمل الحال على بعض.
٦. تقديم بعض الجمل المعطوفة بعضها على بعض .
٧. تقديم بعض المفردات المعطوفة بعضها على بعض.
٨. تقديم بعض متعلقات الفعل على بعض .

النمط الأول: متشابه التقديم والتأخير بين المبتدأ والخبر:

الأصل المعهود – عند أغلب النحاة – في تركيب الجملة الاسمية تقدم المبتدأ على الخبر ؛ لأن المبتدأ هو المحكوم عليه والخبر هو الحكم ؛ ومن ثم فلا بد أن يسبق الحكم وجود المحكوم عليه، وهذا ما يقرره الرضي ، حيث يقول:"إنما كان أصل المبتدأ التقديم لأنه محكوم عليه، ولا بدَّ من وجوده قبل الحكم، فقصد في اللفظ أن يكون ذكره قبل ذكر الحكم عليه "[٢٩]

وهذا ما يقرره الدَّماميني كذلك .[٣٠]

ويقرره أبو حيان حيث يقول: " الأصل: تأخير الخبر، ويجب هذا الأصل إذا كانا معرفتين، نحو: زيد أخوك، أو كانا نكرتين نحو: (أفضل منك أفضل منِّي) .."[٣١]

ويقول السيوطي:"الأصل: تقديم المبتدأ وتأخير الخبر ؛ لأن المبتدأ محكوم عليه فلا بد من تقديمه ليتحقق."[٣٢]

من جهة أخرى فإن الخبر مبين لحال المبتدأ ؛ ومن ثم وجب تأخر البيان عن المبيَّن، يقول الأهدل: "الأصل فيه – أي الخبر – أن يكون مؤخرا عن المبتدأ ؛ لأنه إنما يؤتى به لبيان حال المبتدأ، والدال على حال الذات متأخر عنها طبعا."[٣٣]

كذلك فإن الخبر وصف للمبتدأ من حيث المعنى، ومعلوم أن الوصف يتأخر عن الموصوف، قال ابن عقيل :"الأصل تقديم المبتدأ وتأخير الخبر، وذلك لأن الخبر وصف في المعنى للمبتدأ، فاستحق التأخير كالوصف."[٣٤]

وقد خالف البعض في هذا الأصل فيما حكاه الصبان [٣٥]عن اللقاني، وتابعه في ذلك من المحدثين أ/ عباس حسن [٣٦]، ود/عودة خليل أبو عودة [٣٧]؛ حيث يرون أن الأصل جواز التقديم والتأخير، وما ذكرناه آنفا من أن الأصل تأخر الخبر هو الأصح ؛ لما سبق ذكره من الأدلَّة التي استدل بها جمهور النُّحاة.

وإذا كان الأصل تقدُّم المبتدأ وتأخر الخبر فسوف نورد هنا أمثلة للمتشابه مما وافق الأصل وما خالفه.

(أ) متشابه التقديم والتأخير بين المبتدأ والخبر الاسمي.

ومن أمثلته في القرآن قوله تعالى ﴿ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ﴾ مع قوله ﴿ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ ﴾.

وذلك في قوله تعالى: ﴿ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ (البقرة :١٢٠).

وقوله تعالى: ﴿ وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓا۟ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَا تُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ (آل عمران:٧٣).

المبتدأ والخبر في هاتين الآيتين كلاهما معرفان لإفادة الحصر، وقدِّم هذا في موضع، والآخر في موضع ، نحو قولك: (زيد الرجل)، أو (الرجل زيد).

ففي الموضع الأول: ﴿ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ﴾ جاء بجملة اسمية معرفة الطرفين، وأكد الجملة بأن وبالفصل الذي قبل، فدل على الاختصاص والحصر، وجاء الهدى معرّفاً بالألف واللام، وهو مما قيل: إن ذلك يدل على الحصر، فإذا قلت: زيد العالم، فكأنه قيل: هو المخصوص بالعلم والمحصور فيه ذلك ." (٣٨)

ومثل ذلك يقال في الجملة الثانية التي جاءت على النسق نفسه مع التقديم والتأخير.

والتقديم والتأخير هنا جائز بين المبتدأ والخبر، فيقدم هذا أو ذاك باعتبار السياق والمقام، وهذا ما اهتم ببيانه المصنفون في كتب المتشابه.

فذهب الكرماني إلى أن الهدى في (آل عمران :٧٣) هو الدين، وقد تقدم في قوله: ﴿ لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ ﴾، وهدى الله: الإسلام ؛فكأنه قال بعد قولهم: ﴿ وَلَا تُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ ﴾: ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾ كما سبق في أول السورة.

والذي في البقرة معناه القبلة؛ لأن الآية نزلت في تحويل القبلة، وتقديره: قل إن قبلة الله هي الكعبة. (٣٩)

ولم يتعرض لبيان هذه العلة أحد ممن صنفوا في المتشابه – فيما أعلم – فلم يتعرض لها على سبيل المثال كلٌّ من الإسكافي والغرناطي، ولم يزد ابن جماعة وكذلك الأنصاري على ما ذكره الكرماني شيئا ؛ بل اكتفى الأول بتلخيص عبارته في ذلك. (٤٠)

والذي ذكره الكرماني – وتبعه فيه ابن جماعة وغيره – يصلح أن يكون تفسيرا لكلمة الهدى في الموضعين ؛ لكن ليس فيه بيان لعلَّة التقديم والتأخير فيهما.

ولكننا إذا تأملنا كلام الزمخشري في آية البقرة أمكننا أن نستشف منه تلك العلّة، يقول الزمخشري: «كأنهم قالوا: لن نرضى عنك وإن أبلغت في طلب رضانا حتى تتبع ملتنا، إقناطاً منهم لرسول الله ﷺ من دخولهم في الإسلام، فحكى الله عزّ وجلّ كلامهم، ولذلك قال: ﴿إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ﴾ على طريقة إجابتهم عن قولهم، يعني أن هدى الله الذي هو الإسلام هو الهدى بالحق ،وهو الذي يصح أن يسمى هدى، وهو الهدى كله ليس وراءه هدى، وما تدعون إلى اتباعه ما هو بهدى إنما هو هوى . ألا ترى إلى قوله: ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم﴾ أي أقوالهم التي هي أهواء وبدع ﴿بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ﴾ أي من الدين المعلوم صحته بالبراهين الصحيحة».[٤١]

ومعنى ذلك أنه يرى أن الآية قد قصرت الهدى على هدى الله ؛ فناسب ذلك تقديم هدى الله مع الإتيان بضمير الفصل (هو) لإفادة القصر ؛ فيكون المعنى: إن هدى الله لا غيره هو الجدير باسم الهدى الحقيقي الكامل الذي لا ضلالة فيه .

وقد ساعد على ذلك اشتمال (الهدى) على (أل) الجنسية المفيدة للحقيقة والماهية والكمال. والسياق يؤيد ذلك ؛ وذلك أن أهل الكتاب قد أعلنوا للرسول ﷺ أنهم لا يرضون عنه حتى يتبع ملتهم؛ كأنهم يزعمون بذلك أنهم على الهدى الكامل، ويدعون الرسول ﷺ لاتباع هذا الهدى الذي يزعمونه، فكذّبهم الله تعالى، وبين لهم أن الهدى الحقيقي هو ما أنزل على محمد ﷺ لخلوه من التحريف والتغيير.

ويجوز أن يكون المراد بهُدى الله: الذي أنزله إليَّ هو الهدى . يعني أن القرآن هو الهدى ، إبطالاً لغرورهم بأنَّ ما هم عليه من الملة هو الهدى وأن ما خالفه ضلال ، والمعنى أن القرآن هو الهدى وما أنتم عليه ليس من الهدى ؛ لأن أكثره من الباطل ."[٤٢]

«فإضافة الهدى إلى الله تشريف، والقصر إضافي، وفيه تعريض بأن ما هم عليه يومئذ شيء حرفوه ووضعوه، فيكون القصر إما حقيقياً ادعائياً بأن يراد هو الهدى الكامل في الهداية، فهدى غيره من الكتب السماوية بالنسبة إلى هدى القرآن كلاَ هدى؛ لأن هدى القرآن أعم وأكمل...، وإما قصراً إضافياً، أي هو الهدى دون ما أنتم عليه من ملة مبدلة مشوبة بضلالات ،...وقوله: ﴿هُوَ ٱلْهُدَىٰ﴾ الضمير ضمير فصل، والتعريف في الهدى تعريف الجنس الدال على الاستغراق، ففيه طريقان من طرق الحصر، هما: ضمير الفصل، وتعريف الجزأين، وفي الجمع بينهما إفادة تحقيق معنى القصر وتأكيده للعناية به.»[٤٣]

لأجل ذلك كلِّه جاءت الآية على هذا النحو من تقديم ﴿ هُدَى ٱللَّهِ ﴾ وتعريف الجزأين، والفصل بالضمير؛ لإفادة القصر الإضافي -قصر الهدى الحقيقي الكامل على هدى الله تعالى وحده، وهو دين الإسلام وشريعته بما يشتمل عليه من تشريع القبلة وسائر الشرائع كذلك، ولا حاجة لتخصيص معنى هدى الله هنا بالقبلة حسب ما ذهب إليه الكرماني ومن تبعه في ذلك؛ بل الأولى ترك المعنى على إطلاقه شاملا الهداية كلَّها للحقِّ كلِّه الذي لا يخرج عما أنزل على محمد ﷺ من الدين الحق، وهو الإسلام – خلافا لما ذهب إليه اليهود والنصارى من أنَّ ملَّتهم هي الهدى الذي يجب اتباعه ؛ ولذا فهم لا يرضون عن النبي ﷺ حتى يتبع ملتهم اتباعا كاملا – وليس بمجرد موافقتهم في بعض الأمور كأمر القبلة مثلا -ومن ثم تبجحوا بأنه لن يدخل الجنة إلا من كان هودا أو نصارى، زاعمين بذلك أن ملتهم ودينهم هي وحدها الحق ؛ فكذبهم الله تعالى في ذلك وخالف كلامهم ببيان أن هدى الله وحده - الذي هو الإسلام هو الهدى الكامل على الحقيقة.

أما الموضع الثاني في - سورة آل عمران - ﴿ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ ﴾ فهو عكس سابقه ؛ حيث قصر هدى الله على الهدى الكامل ؛ أي إن هدى الله لا يكون إلا كاملا، وقد أفاد ذلك تعريف الهدى بـ(أل) الجنسية المفيدة للحقيقة والماهية، وفي ذلك تعريض بنقص دين أهل الكتاب الذين ذكر القرآن تحريفهم لكتبهم.

(ب)متشابه التقديم والتأخير بين المبتدأ والخبر الفعلي.

فمن أمثلة ذلك قوله تعالى: ﴿ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم ﴾ [٤٥] مع قوله تعالى في سورة الحديد ﴿ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ ﴾. [٤٦]

والتشابه بين الآيتين واضح، أما وجه الاختلاف فيظهر في صياغة الجملة الأولى في صورة الجملة الاسمية :(مبتدأ + مضاف إليه + خبر جملة فعلية فعلها مضارع (يسعى) وفاعله ضمير مستتر يعود على نورهم + بقية الجملة المتفقة في الآيتين .

أما الجملة الثانية فقد صيغت في صورة الجملة الفعلية :(فعل مضارع + فاعل + مضاف إليه+ بقية الجملة المتفقة في الآيتين .

ومعلوم أن الجملة الاسمية تفيد الثبوت ،أما الجملة الفعلية فتفيد التجدد والحدوث مرة بعد مرة.

فلما كانت الجملة الفعلية في سياق بشارة المؤمنين ناسب ذلك التجدد الذي تحسن به

البشارة، ولما كانت الجملة الاسمية في سياق معية المؤمنين لنبيهم صلوات الله وسلامه عليه، ناسب ذلك تقرير الثبوت الذي تتم به تلك المعية.(٤٧)

النمط الثاني: تقديم الفضلة على أحد ركني الجملة .

ومن صوره :

١- تقدم الفضلة على ركن الجملة الفعلية .

٢- تقدم الفضلة على ركن الجملة الاسمية.

وسنعرض هنا بعض النماذج التطبيقية لكلٍّ مما وردت أمثلته في المتشابه اللفظي:

الصورة الأولى: تقدم الفضلة على ركن الجملة الفعلية :

من المتقرر كالأصل أن يؤتى بركني الجملة أولا ثم ما يتبعهما من فضلات أو متعلقات، كالظرف والجار والمجرور والحال ونحو ذلك ،سواء كان الركنان هما المبتدأ والخبر أو الفعل والفاعل، ولكن قد يتقدم ما هو دون الركنين عليهما أو على أحدهما لغرض بلاغيٍّ، يتفرع في الغالب على غرض أساسيٍّ هو بيان الاهتمام بالمقدَّم.

وللتقديم والتأخير في ذلك شروط وضوابط ذكرها النحاة ، فمثلا :"إذا كان العامل في الحال فعل صلح تقديمها وتأخيرها ؛ لتصرف العامل فيها، فقلت: جاء زيدٌ راكباً، وراكباً جاء زيدٌ، وجاء راكباً زيدٌ . قال الله عز وجل: ﴿ خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ﴾ (القمر:٧) . وكذلك قائماً لقيت زيداً، وقائماً أعطيت زيداً درهماً، وذاهباً إليك رأيت زيداً.

وإن كان العامل غير فعل لم تكن الحال إلا بعده، وذلك قولك: زيدٌ في الدار قائماً، وفي الدار قائماً زيدٌ، وفي الدار زيدٌ قائماً. إذا كان قائماً بعد قولك: "في الدار" انتصب. ولا يصلح: قائماً في الدار زيدٌ، ولا زيدٌ قائماً في الدار، ولا قائماً زيدٌ في الدار، لما أخرت العامل، ولم يكن فعلاً لم يتصرف الفعل، فينصب ما قبله، وهذا إذا جعلت في الدار خبراً فقلت: زيدٌ في الدار، وفي الدار زيدٌ، فاستغنى زيد بخبره قلت: قائماً ونحوه، لتدل على أية حال استقر.

فإن جعلت قائماً هو الخبر رفعته، وكان قولك: «في الدار» فضلةً مستغنىً عنها؛ لأنك إنما قلت: زيدٌ قائمٌ، فاستغنى زيد بخبره، ثم خبرت أين محل قيامه؟، فقلت في الدار، ونحوه. وكل ما كان في الابتداء من هذا فكذلك مجراه في باب إن وأخواتها، وظننت وأخواتها، وكان وأخواتها."(٤٨)

ومما ورد من ذلك في كتاب الله: قوله تعالى: ﴿ وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴾ (القصص:٢٠)مع قوله تعالى:

﴿ وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ (يس:٢٠)

قال عز من قائل في سورة القصص في قصة موسى: ﴿ وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ ﴾ فذكر المجرور بعد الفاعل وهو موضعه، وقال في يس في قصة رسل عيسى عليه السلام: ﴿ وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ ﴾ فقدم لما كان أهم .

ويعلل السكاكي ذلك بأنه سبحانه حين أخذ في قصة الرسل اشتمل الكلام على سوء معاملة أصحاب القرية الرسل ، وأنهم أصروا على تكذيبهم وانهمكوا في غوايتهم مستمرين على باطلهم ، فكان مظنة أن يلعن السامع – على مجرى العادة – تلك القرية، قائلا: ما أنكدها تربة، وما أسوأها منبتا، ويبقى مجيلا في فكره أكانت تلك المدرة بحافاتها كذلك، أم كان هناك قطر دان أو قاص منبت خيرا؟ – منتظرا لمساق الحديث: هل يلم بذكره – فكان لهذا العارض مهمًّا ..بخلاف قصة موسى.(٤٩)

وهذه التفاتة جيدة من السكاكي لتعليل ما جاء خارجا على الأصل، وهو تقدم الفاعل؛ حيث رأى أن اشتمال الحديث هنا على ذكر تلك القرية الخبيثة أدعى للتتميم بذكر حال غيرها من التي امتثل فيها أحد فقرائها وضعفائها وسارع بإجابة الرسل.

وقد أجاب الإسكافي عن سبب هذا التقديم والتأخير برأي آخر، مؤداه أن الفاعل في الموضعين لما كان نكرة فالمعنى: جاء جاءٍ، وقد دل الفعل على جاءٍ ،ولا يكون الجائي من أقصى المدينة في الأعم الأغلب إلا رجلا، وكان الذي يفيد المخاطب أن يعلم أنه جاء من مكان بعيد إلى مجتمع الناس في القرية، وهو لم يحضر موضع الدعوة، ومشهد المعجزة، فقدم ما يكون تبكيت القوم به أعظم، والتعجب منه أكثر ؛ فقال: ﴿ وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ ﴾ ينصح لهم ما لا ينصحون مثله لأنفسهم ،ولا ينصح لهم أقربوهم مع أنه لم يحضر جميع ما يحضرونه، ولم يشاهد من كلام الأنبياء ما يشاهدونه، فبعثهم على اتباع الرسل المبعوثين إليهم، وقبول ما يأتون به من عند مرسلهم.

وأما الآية الأولى من سورة القصص فإن المراد: جاء من لا يعرفه موسى من مكان لم يكن مجاورا لمكانه ، فأعلمه ما فيه الكفار من ائتمارهم به، فاستوى حكم الفاعل والمكان الذي جاء منه، فقدم ما أصله التقديم، وهو الفاعل ؛ إذ لم يكن هنا تبكيت القوم بكونه من أقصى المدينة كما كان ذلك في الآية المتقدمة.(٥٠)

وعلَّل الإسكافي تقدم الجار والمجرور في سورة يس بأهمية إبراز البعد المكاني ،ولعله يلمح إلى

بيان أثر هذا البعد في إظهار المفارقة بين من يسعى لإجابة الرسل من أقصى المدينة، وبين من أعرضوا عن دعوة الرسل الذين أتوهم في ديارهم ومحالّهم دون كلفة عليهم ولا عناء ،ونلاحظ أن الإسكافي قد علَّل هنا للآية التي تقدَّم فيها الجار والمجرور على الفاعل الذي هو ركن الجملة، أي اكتفى بالتعليل لما خرج عن الأصل ،ولم ير داعيا لتعليل ما وافق الأصل، وهو آية القصص التي تقدم فيها الفاعل .

أما ابن جماعة فقد ألمح إلى فائدة أخرى في تقديم الجار والمجرور -من أقصى المدينة- وهي انتفاء التواطؤ بينه وبين الرسل، أما الآية الأخرى فلم يعلل لتقدم الفاعل فيها باعتباره جاء على الأصل في تقديم الفاعل على المفعول الفضلة" [٥١]

ووافق الكرماني الإسكافي في تعليله لآية يس بما لا يخرج عن مضمون كلامه ، ثم اجتهد لتعليل التقديم الموافق للأصل معوِّلا على مراعاة النظير السابق في السياق فقال :" خصت هذه السورة –القصص- بالتقديم لقوله قبله:﴿ فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ ﴾ ثم قال ﴿ وَجَآءَ رَجُلٌ ﴾، وخصت سورة يس بقوله: ﴿ وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ ﴾ لما جاء في التفسير أنه كان يعبد الله في جبل فلما سمع خبر الرسل سعى مستعجلا ." [٥٢]

والحق أن التعليل بموافقة الأصل حسب ما ذهب إليه الكرماني وغيره غير كاف ؛ وذلك لاتساع الاختيار بين موافقته أو الخروج عنه، وذلك أن كلا الأمرين – موافقة الأصل، والخروج عنه – بحاجة إلى التعليل من ناحية المعنى.

كما أن التعليل – الذي ذهب إليه الكرماني بمراعاة النظير بأن يقال: إنه قال :(رجل) ليوافق (رجلين) غير مقبول ؛ وذلك لأنه يصلح أن يكون بيانا لعلة تكرر اللفظ، لا بيانا لعلة التقديم ؛ وذلك لأن الآية الأخرى – آية يس - قد ورد فيها لفظ (رجل) مؤخرا ولم يسبقه في السياق لفظ (رجل) ولا (رجلين).

ومن ثم فلا بد من البحث عن علَّة أخرى غير ما ذكرا - أقصد الإسكافي والكرماني- ولعل تلك العلة هي ما ألمح إليها كلام ابن كثير، وإن كان لم يشبعها بالتعليل والإيضاح الكافي؛ حيث قال: قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَجَآءَ رَجُلٌ ﴾ وَصَفَهُ بِالرُّجُولِيَّةِ لِأَنَّهُ خَالَفَ الطَّرِيق فَسَلَكَ طَرِيقًا أَقْرَب مِنْ طَرِيق الَّذِينَ بُعِثُوا وَرَاءَهُ فَسَبَقَ إِلَى مُوسَى فَقَالَ لَهُ يَا مُوسَى ﴿ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ ﴾ أَيْ يَتَشَاوَرُونَ فِيك ﴿ لِيَقْتُلُوكَ ﴾ أَيْ مِنْ الْبَلَد ﴿ إِنِّي لَكَ مِنَ ٱلنَّصِحِينَ ﴾ [٥٣].

والحق ما ألمح إليه كلام ابن كثير في هذا الموضع الذي جاء على الأصل من أن علّة التقديم

ترجع -فضلا عن موافقة الأصل - إلى إبراز صفة الرجولية في هذا الرجل بما أبرز من شجاعة ظاهرة، كما أن ما ألمح إليه السكاكي آنفا تعليل جيد لتقديم ذكر المكان وهو المتعلق على الفعل.

الصورة الثانية: تقدم الفضلة على ركن الجملة الاسمية.

وذلك كما في قوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴾ مع قوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرُۢ ﴾ في الآيات التالية؛ حيث تقدم الجار والمجرور - متعلق الخبر (خبير) - على ركن الجملة - الخبر - في بعض هذه الآيات، وجاء على الأصل في بعضها الآخر:

فورد قوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴾ في المواضع التالية :

قوله تعالى: ﴿ إِذۡ تُصۡعِدُونَ وَلَا تَلۡوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٖ وَٱلرَّسُولُ يَدۡعُوكُمۡ فِيٓ أُخۡرَىٰكُمۡ فَأَثَٰبَكُمۡ غَمَّۢا بِغَمّٖ لِّكَيۡلَا تَحۡزَنُواْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمۡ وَلَا مَآ أَصَابَكُمۡۗ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴾ (آل عمران :١٥٣)

مع قوله تعالى: ﴿ أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تُتۡرَكُواْ وَلَمَّا يَعۡلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمۡ وَلَمۡ يَتَّخِذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَلِيجَةٗۚ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴾ (التوبة :١٦)

مع قوله تعالى: ﴿ ءَأَشۡفَقۡتُمۡ أَن تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَٰتٖۚ فَإِذۡ لَمۡ تَفۡعَلُواْ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴾(المجادلة:١٣)

مع قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ٩ وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقۡنَٰكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوۡلَآ أَخَّرۡتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ١٠ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَاۚ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ١١ ﴾ (المنافقون :١١)

وورد قوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ﴾ في المواضع التالية :

في قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوۡنَ مِنكُمۡ وَيَذَرُونَ أَزۡوَٰجٗا يَتَرَبَّصۡنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرۡبَعَةَ أَشۡهُرٖ وَعَشۡرٗاۖ فَإِذَا بَلَغۡنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ فِيمَا فَعَلۡنَ فِيٓ أَنفُسِهِنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ﴾(البقرة:٢٣٤)

وقوله تعالى: ﴿ إِن تُبْدُواْ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِيَ ۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ (البقرة:٢٧١)

وقوله تعالى: ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُواْ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ (آل عمران:١٨٠)

وقوله تعالى: ﴿ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُواْ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُواْ ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ (الحديد :١٠)

وقوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُواْ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ۚ ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ (المجادلة :٣)

وقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُواْ فِي ٱلْمَجَٰلِسِ فَٱفْسَحُواْ يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ فَٱنشُزُواْ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ (المجادلة :١١)

وقوله تعالى: ﴿ زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبْعَثُواْ ۚ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ ۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ۝٧ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلْنَا ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ (التغابن:٨)

لا نكاد نجد في كتب المتشابه والتفسير في هذه الآيات ما يسعف في جوابها ، ويكشف عن سبب اختلاف التقديم والتأخير بين جميع هذه الآيات.

لكننا إذا تأملنا جميع المواضع التي ورد فيها قوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾

نلاحظ أنها جميعا تتعلق بحدث ماض، أو عمل كان منهم فيه مخالفة فيما مضى ،أو اعوجاج عن المنهج ، يرجع إلى داء باطن وعلَّة دفينة في النفوس ؛ ولذا يأتي مع هذه المواضع جميعها تقديم الخبر (خبير) الذي يدلُّ على سابق علم الله تعالى، وخبرته بما يكنه العباد في نفوسهم، وما تنطوي عليه ضمائرهم من الجبلة المنطوية على الشح والبخل والأثرة ، ونحو ذلك من العلل الدفينة.

فـ «(الخبير) بمعنى: العليم ، لكن العلم إذا أضيف إلى الخفايا الباطنة سمي خبرة وسمي صاحبها خبيراً» قال الألوسي :﴿ وَٱللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ظاهراً وباطناً وقال غيره :«وجملة

﴿ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ تذييل، أي: الله عليم بأعمالكم ومختلف نياتكم»[٥٦]

أما القسم الثاني من الآيات – وهي التي ذُيِّلت بقوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ فهي كثيرة رغم كونها خارجة على الأصل؛ حيث تقدم فيها المتعلق ﴿ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴾ على الركن الخبر ﴿ خَبِيرٌ ﴾.

وإذا تأملنا هذه المواضع جميعها لاحظنا أنها جميعا تتعلَّق بأعمال مطلوبة من العباد قد كلِّفوا بها، لا يقع عملهم بها إلا بعد زمن التكليف، ونزول الخطاب، وقد يقع منهم مخالفة أو خروج عن منهج الله تعالى لأدواء النفوس وأمراضها، وتظهر النكتة في تقديم الجار والمجرور (بما تعملون) في هذه المواضع – بما فيه من دلالة الفعل المضارع الذي يدل إما على الحال أو الاستقبال – وهي أن العمل هو موضع الاهتمام لكونه يقع مستقبلا ؛ ومن ثم فهو مترقب، وهو محل نظر ربِّ العالمين ورقابته واطلاعه ؛ فمن ثم قدم ليحصل للمخاطبين اعتناؤهم به، ومراقبتهم لله في أدائه، لا سيَّما إذا تعلّق الأمر بخبرة الله تعالى، وعميق علمه ببواطن النفوس، وما تنويه من الالتزام بشرع الله تعالى في تلك الأعمال أو مخالفتها له.

ونستطيع أن نلمح اطراد هذا السبب في جميع تلك المواضع – وهو كونها أعمال وقع التكليف بها فلا تقع إلا بعد زمن الخطاب .

النمط الثالث: تقديم بعض الفضلات على بعض:

وله صور، منها:

١- تقديم الظرف على المفعول:

ومن أمثلته قوله تعالى: ﴿ وَتَرَى ٱلۡفُلۡكَ مَوَاخِرَ فِيهِ ﴾ (النحل:١٤) مع قوله تعالى: ﴿ وَتَرَى ٱلۡفُلۡكَ فِيهِ مَوَاخِرَ ﴾ (فاطر:١٢)

جاءت آية النحل بتقديم المفعول الثاني على الظرف، وهو الأصل؛ لأن المفعول الثاني هنا أصله الخبر فحقُّه التقديم، وعدل عن ذلك في فاطر ، فاستحق ذلك بيان المناسبة في كلٍّ.[٥٧]

«فقيل في وجه: لأنه علق ﴿ فِيهِ ﴾ هنا بترى وثمت بمواخر، ولا يحسم مادة السؤال .»[٥٨]

والراجح ماذهب إليه الألوسي من أن آية النحل سيقت لتعداد النعم كما يؤذن بذاك سوابقها ولواحقها[٥٩] وتعقيب الآيات بقوله سبحانه: ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآ ﴾ (إبراهيم: ٣-٤) فكان الأهم هناك تقديم ما هو نعمة، وهو مخر الفلك للماء ، بخلاف ما هنا، فإنه إنما سيق

استطراداً أو تتمة للتمثيل كما علمت آنفاً، فقدم ﴿ فِيهِ ﴾ إيذاناً بأنه ليس المقصود بالذات.[٦٠]

وقد ذكر ابن جماعة وجها قويا من أوجه المناسبة في كلٍّ ، بما يوافق كلام الألوسي في الموضع الأول، لكنه زاد عليه بتوجيه حسن للموضع الثاني ، فقال ما مؤداه: أن آية النحل سيقت لتعداد النعم على الخلق ، بدليل تقديم قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ ﴾.

وآية فاطر: سيقت لبيان القدرة والحكمة ، بدليل قوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ﴾ الآية ...وقدم (مَوَاخِرَ) على (فيه) لأنه امتن عليهم بتسخير البحر، فناسب تقديم (مَوَاخِرَ) أي: شاقة للماء وأيضا ليلي المفعول الثاني المفعول الأول لـ (ترى) فإنه أولى من تقديم الظرف.[٦١]

قلت: وما ذكره ابن جماعة قوي متَّجه ويؤيده سياق الآيات.[٦٢]

ولتقديم الظرف على المفعول نظائر في القرآن ، فقد ذكر الله جل وعلا على لسان آسيا بنت مزاحم امرأة فرعون أنها قالت: ﴿ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ ﴾ (التحريم: من الآية١١)

فالترتيب النحوي المعهود هو :رب ابن لي بيتاً عندك، فقدم الظرف على المفعول به على خلاف الترتيب النحوي لغرض ؛ وهى أنها اختارت جوار الله قبل أن تختار الدار، وقد بين في أكثر من موضع أن هذا من دلالة شوقها إلى ربها جل وعلا ، وأدبها في مخاطبة الرب تبارك وتعالى .

٢- تقديم ضمير التوكيد والفصل على المفعول الثاني وعكسه :

قال تعالى - في سورة المؤمنون: ﴿ بَلْ قَالُوا۟ مِثْلَ مَا قَالَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٨١﴾ قَالُوٓا۟ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٨٢﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾.

وقال في سورة النمل: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ ﴿٦٧﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾.

حيث تقدم توكيد المضمر المرفوع بقوله (نحن) وتأخير المفعول، وهو (هذا) في الآية الأولى، وعكس ذلك في الآية الثانية.

وقد أرجع الإسكافي ذلك إلى مراعاة النظائر في الأفعال ، ففي الآية الأولى حكاية تظاهرت فيها أفعال أسندت إلى فاعليها متصلة بها، وهي: ﴿ بَلْ قَالُوا۟ مِثْلَ مَا قَالَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴾

فهذان فعلان تعلّق بهما هذا المحكي، وكل واحد منهما جاء بعده فاعله مواصلا له غير

منفصل عنه، ثم بعده: ﴿ قَالُوٓاْ أَءِذَا مِتۡنَا ﴾ فكل هذه الأفعال قُصد بها حكاية ما جاء بعدها، فلمّا كان: (لقد وعدنا) وجب في البناء على الأفعال المتقدمة أن يتمّم حكم الفاعل، وهو توكيده، والعطف عليه، فقدّم (نحن وآباؤنا) على المفعول الثاني، وهو (هذا) لذلك، ولأن الأصل إذا أجرى عليه الشيء أولى من غيره.

وأما الآية الثانية من سورة النمل فإن الذي تقدمها: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ ﴾ فأخّر المعطوف على اسم (كان) الذي هو كالفاعل لها، وهو قوله: (وآباؤنا) عن المنصوب الذي هو كالمفعول لها، وهو قوله: (ترابا) فصار ما هو كالمفعول مقدّما على ما هو معطوف على الفاعل، فاقتضى البناء عليه تقديم المفعول ثم العطف على الفاعل المضمر فجاء: ﴿ لَقَدۡ وُعِدۡنَا هَٰذَا نَحۡنُ وَءَابَآؤُنَا ﴾[٦٣]

وقد قيل في ذلك أقوال أقواها ما ذكره الزركشي وسبقه السكاكي إليه ، حيث يرى في سورة النمل ﴾ لقد وعدنا هذا نحن وآباؤنا ﴿ فقدم لكونه منها أهم يدلك على ذلك أن الذي قبل هذه الآية ﴾ أئذا كنا ترابا وآباؤنا أئنا لمخرجون ﴿ والذي قبل الأولى(أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما ﴿ فالجهة المنظور فيها هناك هي كون أنفسهم ترابا وعظاما، والجهة المنظور فيها ههنا هي كون أنفسهم وكون آبائهم ترابا لأجزاء هناك من بناهم على صورة نفسه ولا شبهة أنها أدخل عندهم في تعبيد البعث فاستلزم زيادة الاعتناء بالقصد على ذكره فصيره هذا العارض أهم .[٦٤]

٣- تقديم الصفة أو الحال على الظرف وعكسه :

وذلك كما في قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿ وَقُلۡنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ وَكُلَا مِنۡهَا رَغَدًا حَيۡثُ شِئۡتُمَا وَلَا تَقۡرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ (البقرة :٣٥)

وقوله تعالى فيها أيضا: ﴿ وَإِذۡ قُلۡنَا ٱدۡخُلُواْ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةَ فَكُلُواْ مِنۡهَا حَيۡثُ شِئۡتُمۡ رَغَدًا وَٱدۡخُلُواْ ٱلۡبَابَ سُجَّدٗا وَقُولُواْ حِطَّةٞ نَّغۡفِرۡ لَكُمۡ خَطَٰيَٰكُمۡۚ وَسَنَزِيدُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ (البقرة:٥٨)

قال العكبري: «(رغدا) صفة مصدر محذوف: أي أكلا رغدا أي: طيبا هنيئا، ويجوز أن يكون مصدرا في موضع الحال تقديره: كلا مستطيبين متهنئين، (حيث) ظرف مكان، والعامل فيه كلا، ويجوز أن يكون بدلا من الجنة فيكون (حيث) مفعولا به ؛ لأن الجنة مفعول وليس بظرف»[٦٥]

ونلاحظ أن آية البقرة في الامتنان على آدم وزوجه قدمت ما هو الأهم في القصة؛ وهو أن الله تعالى قد أباح لآدم وزوجه رزقا رغدا واسعا غير محصور، ولم يحرم عليهما سوى شجرة واحدة ، فخالفا ووقعا في معصية الخالق، وطاعة عدوّهما؛ فالمقصود إذا هو إبراز المفارقة بين

توسعة الله تعالى على آدم وزوجه، وتضييقهما على أنفسهما بإيثار شجرة واحدة هي تلك الشجرة التي نهيا عنها دون ما أبيح لهما من الرزق الواسع الرغد.

قال الرازي :«فإنه أطلق له في جميع مواضع الجنة بقوله: ﴿ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا ﴾ (البقرة: ٣٥) ثم منع من شجرة واحدة ، فلم يملك نفسه حتى وقع في الشر»[٦٦]

أما في الآية التي امتن الله فيها على بني إسرائيل بإنعامه عليهم بتمكينهم من دخول الأرض المقدسة التي أبوا أن يدخلوها فاتحين منتصرين، وقد كتب الله لهم دخولها ؛ فحرمها عليهم أربعين سنة ، ثم أباحها لهم، وقد كانت بأيدي عدوهم فمكنهم منها ؛ لذا كان المقدم والأهم في الامتنان هو الامتنان عليهم بإباحة القرية لهم بكاملها ؛ بحيث يكون لهم وحدهم فيها مطلق التصرف، حيث شاءوا لا سلطان عليهم من أحد في ذلك، مع ما أبيح لهم فيها من الرزق الواسع الرغد، لكن المقدم والمقصود الأعظم، والمنة العظمى عليهم هي في إطلاق أيديهم في تلك القرية، ونيل حريتهم فيها بعدما كان مضيقا عليهم من أعدائهم ،قال الألوسي :«﴿ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا ﴾ أي واسعاً هنيئاً ، ونصبه على المصدرية أو الحالية من ضمير المخاطبين، وفي الكلام إشارة إلى حلّ جميع مواضعها لهم، أو الإذن حاصلها إلى أي موضع شاءوا مع دلالة (رغداً) على أنهم مرخصون بالأكل منها واسعاً وليس عليهم القناعة لسد الجوعة.»[٦٧]

٤- تقديم أحد متعلقات الفعل على غيره :

فمن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَمَا أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ ﴾ (البقرة:١٧٣) مع قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ﴾ (المائدة:٣)

وقد ورد ذلك في عدَّة آيات في سياقات متعددة :

فمن ذلك قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٧٢﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (البقرة:١٧٣)

مع قوله تعالى: ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا۟ بِٱلْأَزْلَٰمِ ۚ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ ۗ ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ ۚ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِى مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ ۙ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (المائدة:٣)

مع قوله تعالى: ﴿ فَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَٱشْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١١٤﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ۖ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٥﴾ وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ ۖ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ (النحل: ١١٨)

مع قوله تعالى: ﴿ قُل لَّآ أَجِدُ فِى مَآ أُوحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (الأنعام :١٤٥)

وقد حاول بعضهم التوفيق بأن تقديم الباء هو الأصل، ولما كانت آية البقرة هي الأسبق «كان الموضع الأول أولى بما هو الأصل ؛ ليعلم ما يقتضيه اللفظ»[٦٨]

وأرى أن هذا غير مقبول؛ إذ إن سورة البقرة مدنية باتفاق، والنحل والأنعام مكيتان باتفاق كذلك ؛ فكيف تكون البقرة هي الأسبق، أما إذا كان يعني ترتيب السور في المصحف؛ فهذا مناقض لكلامه أن «الموضع الأول أولى بما هو الأصل؛ ليعلم ما يقتضيه اللفظ» فمعنى ذلك أنه لم يعلم ما يقتضيه اللفظ حتى نزلت الآية المتأخرة، وليست الأسبق كما يقول .

أما ابن جماعة فقد كان كلامه أكثر قبولا ، حيث قال :«إن آية البقرة وردت في سياق المأكول وحلِّه وحرمته ؛ فكان تقديم الضمير وتعلق الفعل به أهم، وآية المائدة وردت بعد تعظيم شعائر الله وأوامره والأمر بتقواه، وكذلك آية النحل بعد قوله: ﴿ وَٱشْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ﴾. (النحل: ١١٤) ، وكان تقديم اسمه أهم، وأيضا فإن آية النحل والأنعام نزلتا بمكة ؛ فكان تقديم ذكر الله بترك ذكر الأصنام على ذبائحهم، لما يجب من توحيده وإفراده بالتسمية على الذبائح، وآية البقرة نزلت بالمدينة على المؤمنين لبيان ما يحل ويحرم فقدم الأهم، والله أعلم.»[٦٩]

وهذا كلام جيد يؤيده سياق الآيات؛ فآية البقرة إنما سبقها قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ﴾ فكان تقديم ما يتعلق بالمأكول وهو (به) أهم .

أما المواضع الأخرى؛ فآية المائدة وردت بعد الأمر بتعظيم شعائر الله مما يقتضي توحيده وعدم الإشراك به في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَوْفُوا۟ بِٱلْعُقُودِ ۚ أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ

ٱلْأَنْعَٰمِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّى ٱلصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ ﴿١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحِلُّوا۟ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ ﴾ (المائدة :١-٢)

وكذلك آية النحل كما بين، وآية الأنعام سبقها قصة إشراك المشركين بالله تعالى غيره في ذبائحهم ونسكهم ، وغير ذلك في آيات كثيرة منها قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ ۗ وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْ ۖ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴾ (الأنعام :١٢١)

٥ - تقديم بعض جمل الحال على بعض.

قد تتشابه الآيتان في اشتمالهما على أكثر من حال، مع تقارب ألفاظهما؛ ولكن يكون بين الآيتين تقديم وتأخير لأحد الحالين على الأخرى تختلف فيه الآيتان، وذلك كما في قوله تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا ﴾ (مريم:٨)

وقوله ﴿ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِىَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِى عَاقِرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴾ (آل عمران :٤٠)

جملة وقد «بلغني» حالية، وجملة «وامرأتي عاقر» معطوفة على الحالية في محل نصب.[٧٠]

أورد الغرناطي الإشكال في اختلاف سياق الآيتين رغم اتحاد معناهما ، ثم أورد جوابه عن ذلك الذي مؤداه أن المعنى وإن كان فى السورتين واحدا وفى قضية واحدة ؛فإن مقاطع آي وسورة مريم وفواصلها استدعت ما يجرى على حكمها ويناسبها من لدن قوله تعالى فى افتتاح السورة: ﴿ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ﴾ إلى قوله في قصة عيسى عليه السلام: ﴿ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴾ لم تخرج فاصلة منها عن هذا المقطع ولا عدل بها إلى غيره ، ثم عادت إلى ذلك من لدن قوله تعالى: ﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴾ إلى آخر السورة ، فاقتضت مناسبة آي هذه السورة ورود قصة زكريا عليه السلام على ما تقدم ،ولم يكن غير ذلك ليناسب ،أما آية آل عمران فلم يتقيد ما قبلها من الآي وما بعدها بمقطع مخصوص ، فجرت هي على مثل ذلك والله أعلم.[٧١]

فالغرناطي عزى الاختلاف بين الآيتين بالتقديم والتأخير إلى مراعاة الفاصلة، لا غير، أما الكرماني فقد زاد على ذلك بمراعاة السياق في أحد الموضعين - وهو سورة مريم - بالإضافة إلى مراعاة الفاصلة، وهو أجود - بلا شك من الغرناطي في ذلك.

قال الكرماني: «قوله: ﴿ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِي عَاقِرٌ ﴾ (آل عمران :٤٠) قدم في هذه السورة ذكر الكبر وأخر ذكر المرأة، وقال في سورة مريم ﴿ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا ﴾ فقدم ذكر المرأة؛ لأن في مريم قد تقدم ذكر الكبر في قوله: ﴿ وَهَنَ ٱلْعَظْمُ ﴾ وتأخر ذكر المرأة في قوله: ﴿ وَإِنِّي خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِي وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا ﴾ ثم أعاد ذكرها فأخر ذكر الكبر ليوافق عتيًّا ما بعده من الآيات وهي سويًّا، عشيًّا، و صبيًّا .»[٧٢]

وذهب ابن جماعة إلى نحو ما ذهب إليه الكرماني وعدَّ ذلك :«تفننا في الفصاحة»[٧٣]

أما الشيخ زكريا الأنصاري فهو وإن وافق من سبقه في التعليل لسورة مريم برعاية الفاصلة؛ فإنه قد انفرد عنهم بتعليل التقديم في آل عمران بتقديم ذكر الذكر على الأنثى «لأن الذكر مقدم على الأنثى فقدم كبره هنا وأخَّر ، ثمَّ لتتوافق الفواصل.»[٧٤]

ويمكن أن نعلِّل لاختصاص سورة مريم بتقديم سبب عقم المرأة بما علَّل به الكرماني؛ وهو أن ذلك كان لسبق تقدم ذكر الكبر في قوله (وهن العظم مني) ويمكن أن نضيف لذلك أن سياق السورة كلها تكريم للمرأة في شخص مريم – عليها السلام – فلذا ناسب تقديم المرأة فيها، أما سورة آل عمران فقد جاءت على الأصل في تقديم الرجال، وسياق السورة هو في اصطفاء النبيين من الرجال؛ حيث بدأ السياق بقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ (آل عمران :٣٣)وهذا التعليل لاختصاص سورة آل عمران بتقديم كبر يعقوب يوافق ما علَّله به الأنصاري من اعتبار تقديم الرجل على المرأة، والله تعالى أعلم.

٦- تقديم بعض الجمل المعطوفة بعضها على بعض .

قال تعالى: ﴿ وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾. (البقرة: ٤٨)

وقال: ﴿ وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾(البقرة :١٢٣)

نلاحظ هنا تشابه الآيتين في أغلب ألفاظهما مع اختلافهما بالتقديم والتأخير في الجمل التي وقعت نعوتا لذلك اليوم .

وذلك أن (يوما) مفعول به، وجملة «لا تجزي نفس» نعت لـ «يوم»، والأصل: لا تجزي فيه، ثم

حُذف. «شيئا»: نائب مفعول مطلق، أي: لا تجزي جزاء قليلا ولا كثيرا. جملة «ولا هم ينصرون» معطوفة على جملة «ولا يؤخذ منها عدل» في محل نصب.[٧٥]

وهاتان الآيتان قد وقف عندهما كثيرٌ من المفسرين ،وممن صنفوا في متشابه القرآن، متسائلين عن سرِّ الاختلاف بينهما بالتقديم والتأخير ؛ حيث قدم جملة النعت النافية لقبول الشفاعة في الآية الأولى على النافية لقبول العدل، وعكس ذلك في الآية الثانية .

فذكر الكرماني أنه سبحانه إنما قدم الشفاعة قطعا لطمع من زعم أن آباءهم تشفع لهم، وأن الأصنام شفعاؤهم عند الله. وأخرها في الآية الأخرى ؛لأن التقدير في الآيتين معا لا يقبل منها شفاعة فتنفعها تلك الشفاعة ؛ لأن النفع بعد القبول، وقدّم العدل في الآية الأخرى ؛ ليكون لفظ القبول مقدما فيها .[٧٦]

ثم عاد للكلام عنهما في الموضع الثاني ، فقال :"هذه الآية والتي قبلها متكررتان ، وإنما كررت لأن كل واحدة منهما صادفت معصية تقتضي تنبيها ووعظا ؛لأن كل واحدة وقعت في غير وقت الأخرى ، والمعصية الأولى ﴿ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ ﴾(البقرة: ٤٤) والثانية:﴿ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ﴾. (البقرة: ١٢٠)"[٧٧]

والحق أن كلام الكرماني في الموضعين ليس كلُّه مقنعا ؛ فلئن قبلنا كلامه في أنه: «إنما قدم الشفاعة قطعا لطمع من زعم أن آباءهم تشفع لهم، وأن الأصنام شفعاؤهم عند الله» – أقول إن قبلنا ذلك– فإنا لا نقبل تعليله لتأخير الشفاعة في الآية الأخرى .

فقوله: «قدم العدل في الآية الأخرى؛ ليكون لفظ القبول مقدما فيها» غير مقبول؛ لأنه لا تلازم بين ذكر العدل والقبول ، بدليل أنه جاء في الآية الأخرى ﴿ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ ﴾؛ فضلا عن ذلك إن قلنا :(إن العدل والقبول متلازمان) فقبول العدل لا يلزم منه قبول الشفاعة – حيث يرى أنه قدم قبول العدل لأن الشفاعة لا بد أن يسبقها القبول.

وكذلك إجابته في الموضع الثاني غير مقنعة ،إذ عزا تكرر الآيتين لأن كل واحدة منهما صادفت معصية تقتضي تنبيها ووعظا؛ وهذا كلام غير مقبول؛ لأن جرائم بني إسرائيل المسرودة في سورة البقرة بين هاتين الآيتين عديدة يصعب حصرها من تجرؤهم على نبيهم، واستطالتهم عليه، وسوء أدبهم معه، وتلكؤهم في تنفيذ أوامره، والاستجابة لأمر الله، مع كثرة سؤالهم وتعنتهم في قصة ذبح البقرة، وغير ذلك .

أما الرازي فقد جعل الجواب: أن من كان ميله إلى حبِّ المال أشدَّ من ميله إلى علوِّ النفس

فإنه يقدم التمسك بالشافعين على إعطاء الفدية، ومن كان بالعكس يقدم الفدية على الشفاعة، ففائدة تغيير الترتيب، الإشارة إلى هذين الصنفين"[٧٨]

وبنحو هذا أجاب الشيخ زكريا الأنصاري.[٧٩] فنزل الآيتين على صنفين من الشافعين؛ وهذا أحسن من جواب الكرماني السابق .

أما الغرناطي فقد نظر نظرة أعمق في سياق الآيتين ، فقال: «وجه ذلك والله أعلم أنه لما تقدم في الآية الأولى قوله تعالى: ﴿ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ ﴾ والمأمور بالبر قد يأخذ به ويتمسك بموجبه فيسلم من العصيان وتكون في ذلك نجاته ،وإذا أمكن هذا فقد وقع الاهتداء بأمر هؤلاء الذين قيل لهم: ﴿ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ ﴾ فهو مظنة عندهم لرجائهم أن ينفع عند مشاهدة الجزاء الإحسانى للمأمورين بالبرِّ حين قبلوا وامتثلوا أخذاً بظاهر حال الآمرين ، وان كانوا يبطنون خلاف ما يظهرون.»[٨٠]

فهو يوجه بذلك مناسبة تقدم الشفاعة في هذا الموضع بأنه قد سبقها ما يرشح لاتكالهم عليها - في أفهامهم السقيمة، وهو الأمر بالبرِّ وامتثال الآمرين له - حسب ظاهر الأمر -أما الموضع الثاني فلم يسبقه ما يشير لشيء من ذلك؛ فلذا لم تقدم الشفاعة فيه .

وهذا الكلام لا يبعد كثيرا عما علل به الكرماني، وإن كان يدل على تعمق صاحبه في سياق الآيات بصورة أكبر.

وقد أجاب الإسكافي جوابا بديعا مؤداه أن الوجه في الأولى: أنه لما قال: ﴿ لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا ﴾ بمعنى لا يغني أحد عن أحد فيما يلزمه من العقاب، ولا يكفر سيآته ما له من الثواب، وهو كقوله عز من قائل: ﴿ وَٱخْشَوْا۟ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا ﴾ (لقمان: ٣٣) ، فهذه الأشياء التي ذكر - في هذه الآية - امتناع وقوعها في الآخرة أربعة أنواع تنفى بها المكاره، وتتداوى بها الشدائد ، ألا ترى العرب إذا دفع أحدهم إلى كريهة، وارتهنت نفسه بعظيمة، وحاولت أعزته دفاع ذلك عنه، وتخليصه منه بدأت بما في نفوسها الأبية من مقتضى الحمية، فذبت عنه كما يذب الوالد عن ولده بغاية قوته وجلده فإن رأى من لا قبل له بممانعته، ولا يد له بمدافعته عاد بوجوه الضراعة، وصنوف المسألة والشفاعة، فحاول بالملاينة ما قصر عنه بالمخاشنة، فإن لم تغن عنه الحالتان، ولم تنجه الخلتان من الخشونة واللين لم يبق بعدهما إلا فداء الشيء بمثله، وفكّه من الأسر بعدله إما بمال وإما بغيره .

فإن لم تغن عنه هذه الثلاثة في العاجلة تعلل بما يرجوه من نصر في الآجلة ....فأخبر الله

تعالى أن ما يغني في هذه الدنيا عن المجرمين، وترتب هذه المراتب بين العالمين، لا يغني منه شيء في الآخرة عن الظالمين.[٨١]

ورغم هذا التحليل الرائع لبيان مناسبة الترتيب في الآية الأولى؛ فإن بيانه لمناسبة اختلاف الترتيب في الآية الثانية لم يكن مقنعا للوقوف على علة الاختلاف بين الآيتين حيث جعل تقديم العدل وتأخير الشفاعة فيه ليفيد أن معنى :﴿ لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا ﴾ لا تغني عنها بفداء.. ويكون بعد ذلك ﴿ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٌ ﴾ معناه: ولا تخفف مسألة من عذابها، ولا ينقص شفيع من عقابها.[٨٢]

والحق أن هذا الكلام منه غير مقنع ؛لأنه لم يبين لنا ما الذي اقتضى هذه المخالفة في المعنى بين الموضعين مع اتحاد الألفاظ (العدل - الشفاعة) فضلا عن أن ما ذكره في معنى العدل والشفاعة في الآية الثانية ليس مخالفا في الحقيقة لما ذكره من معناهما في الآية الأولى بل هو من مقتضاه ولوازمه.

غير أن أمثل ما رأيته من كلام المصنفين في المتشابه في هاتين الآيتين: كلام ابن جماعة ، يقول في جوابه عن سر التقديم والتأخير في الآيتين :"إن الضمير في (منها) راجع في الأولى إلى النفس الأولى، وفي الثانية راجع إلى النفس الثانية، كأنه يبين في الآية الأولى أن النفس الشافعة الجازية عن غيرها لا تقبل منها شفاعة، ولا يؤخذ منها عدل؛ ولأن الشافع يقدم الشفاعة على بذل العدل عنها .

ويبين في الآية الثانية أن النفس المطلوبة بجرمها لا يقبل منها عدل عن نفسها، ولا تنفعها شفاعة شافع فيها ..؛ فلذلك كله قال في الأولى: ﴿ وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَٰعَةٌ ﴾ وفي الثانية: ﴿ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٌ ﴾؛ لأن الشفاعة إنما تقبل من الشافع، وإنما تنفع المشفوع له.[٨٣]

وهذا - في رأيي - أحسن ما قيل في توجيه متشابه التقديم والتأخير في الآيتين .

٧- تقديم بعض المفردات المعطوف بعضها على بعض.

ومنه قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾.(البقرة:٦٢)

مع قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾[٨٤] (المائدة :٦٩)

مع قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ (الحج :١٧)

وقد أورد الإسكافي في سر التقديم والتأخير في هذه الآيات كلاما بديعا مفصلا، فقال في آية البقرة: «المعنى: إن الذين آمنوا بكتب الله المتقدمة مثل صحف إبراهيم، والذين آمنوا بما نطقت به التوراة، وهم اليهود، والذين آمنوا بما أتى به الإنجيل، وهم النصارى، فهذا ترتيب على حسب ما ترتب عليه تنزيل الله تعالى كتبه؛ فصحف إبراهيم عليه السلام قبل التوراة المنزلة على موسى عليه السلام، والتوراة قبل الإنجيل المنزل على عيسى عليه السلام، فرتبهم الله عز وجل في هذه الآية على ما رتبهم عليه في بعثة الرسالة».

ثم أتى بلفظ (الصابئين) وهم الذين لا يثبتون على دين، ويتنقلون من ملة إلى ملة، ولا كتاب لهم، كما للطائفتين اللتين ذكرهما الله تعالى في قوله: ﴿ أَن تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَٰفِلِينَ ﴾ (الأنعام :١٥٦) فوجب أن يكونوا متأخرين عن أهل الكتاب.

وأما بعد هذا الترتيب فترتيبهم في سورة المائدة تقديم (الصابئين) على (النصارى)، ورفعه هنا ونصبه هناك ترتيب ثان لهم.

فالأول على ترتيب الكتب، والثاني على ترتيب الأزمنة؛ لأن الصابئين - وإن كانوا متأخرين عن النصارى، بأنه لا كتاب لهم - فإنهم متقدمون عليهم بكونهم قبلهم؛ لأنهم كانوا قبل عيسى عليه السلام.

فرفع (الصابئون) ونوى به التأخير عن مكانه؛ كأنه قال بعد ما أتى بخبر :إن الذين آمنوا والذين هادوا من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون، والصابئون هذه حالهم أيضا، وهذا مذهب سيبويه ... وإنما قدّم في اللفظ وأخّر في النية؛ لأن التقديم الحقيقي التقديم لكتب الله المنزلة على الأنبياء عليهم السلام، فإذا فعل ذلك في الآية الأولى - وكان هنا تقديم آخر بتقديم الزمان، وجاءت آية أخرى قدم فيها هذا الاسم على ما أخر عنه في الآية التي قبل ثم أقيمت في لفظه أمارة تدل على تأخره عن مكانه - كان هذا دليلا على أن هذا الترتيب بالأزمنة، وأن النية به التأخير والترتيب بالكتب المنزلة.

وأما الترتيب الثالث في سورة الحج فترتيب الأزمنة الذي لا نية للتأخير معه؛ لأنه لم يقصد في هذا المكان أهل الكتب؛ إذ كان أكثر من ذكر ممن لا كتاب لهم، وهم الصابئون والمجوس والذين أشركوا عبدة الأوثان، فهذه ثلاث طوائف، وأهل الكتاب طائفتان.

فلما لم يكن القصد في الأغلب الأكثر من المذكورين ترتيبهم بالكتب رتّبوا بالأزمنة ،وأخروا «الذين أشركوا»؛ لأنهم وإن تقدمت لهم أزمنة وكانوا في عهد أكثر الأنبياء الذين تقدمت بعثتهم – صلوات الله عليهم –؛ فإنهم كانوا أكثر ممن مُني رسول الله بهم، وصلي بجهادهم، وكأنهم لما كانوا موجودين في عصر النبي (كانوا أهل زمانه، وهذا الزمان متأخر عن أزمنة الفرق الذين قدِّم ذكرهم.[٨٥]

وقد أوجز الكرماني وغيره[٨٦] كلام الإسكافي مع حسن بيان وإيضاح ، فقال: قوله ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ ﴾ (البقرة:٦٢)، وقال في الحج ﴿ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ ﴾ (الحج:١٧)، وقال في (المائدة:٦٩) ﴿ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ ﴾؛ لأن النصارى مقدمون على الصابئين في الرتبة ؛لأنهم أهل كتاب فقدمهم في البقرة، و(الصابئون) مقدمون على النصارى في الزمان ؛لأنهم كانوا قبلهم فقدمهم في الحج وراعى في المائدة بين المعنيين، وقدمهم في اللفظ وأخرهم في التقدير ؛لأن تقديره (والصابئون كذلك)، قال الشاعر :

فمن يك أمسى بالمدينة رحله... فإني وقيار بها لغريب ...

أراد :إني لغريب وقيار كذلك

فتأمل فيها وفي أمثالها يظهر لك إعجاز القرآن.[٨٧]

فنلاحظ هنا أن الكرماني قد كشف عن سرٍّ تقديم (الصابئون) في آية المائدة، وعن سرٍّ مجيئها مرفوعة مقطوعة عن التبعية لما قبلها؛ لكونها مقدمة على نية التأخير رعاية لوجهي الترتيب الممكنين، وهما الترتيب بحسب الرتبة أو بحسب الزمن، بينما نلاحظ أن الإسكافي قد أطال الكلام دون إيضاح كاف لهذا المعنى ، حيث نلاحظ تعسف عباراته في هذا الموضع، من لدن قوله :" وإنما قدم في اللفظ وأخر في النية؛ لأن التقديم الحقيقي التقديم لكتب الله المنزلة ...، وجاءت آية أخرى قدم فيها هذا الاسم على ما أخر عنه في الآية التي قبل ثم أقيمت في لفظه أمارة تدل على تأخره عن مكانه – كان هذا دليلا على أن هذا الترتيب بالأزمنة، وأن النية به التأخير والترتيب بالكتب المنزلة."

وعلى كلٍّ فإن له فضل السبق والإلماح إلى هذا المعنى على طول عبارته فيه .

ومن ذلك أيضا (من تقديم بعض المفردات المعطوفة بعضها على بعض):

قوله تعالى: ﴿ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۖ وَلَلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ (الأنعام:٣٢)

وقوله تعالى: ﴿ وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمۡ لَعِبٗا وَلَهۡوٗا وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۚ وَذَكِّرۡ بِهِۦٓ أَن تُبۡسَلَ نَفۡسُۢ بِمَا كَسَبَتۡ لَيۡسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيّٞ وَلَا شَفِيعٞ وَإِن تَعۡدِلۡ كُلَّ عَدۡلٖ لَّا يُؤۡخَذۡ مِنۡهَآۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أُبۡسِلُواْ بِمَا كَسَبُواْۖ لَهُمۡ شَرَابٞ مِّنۡ حَمِيمٖ وَعَذَابٌ أَلِيمُۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡفُرُونَ ﴾ (الأنعام:٧٠)

وقوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞۚ وَإِن تُؤۡمِنُواْ وَتَتَّقُواْ يُؤۡتِكُمۡ أُجُورَكُمۡ وَلَا يَسۡـَٔلۡكُمۡ أَمۡوَٰلَكُمۡ ﴾ (محمد:٣٦)

وقوله تعالى: ﴿ ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞ وَزِينَةٞ وَتَفَاخُرُۢ بَيۡنَكُمۡ وَتَكَاثُرٞ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِۖ كَمَثَلِ غَيۡثٍ أَعۡجَبَ ٱلۡكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصۡفَرّٗا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمٗاۖ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٞ شَدِيدٞ وَمَغۡفِرَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٞۚ وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ ﴾ (الحديد:٢٠)

وقوله تعالى: ﴿ وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ أَنۡ أَفِيضُواْ عَلَيۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ أَوۡ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُۚ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمۡ لَهۡوٗا وَلَعِبٗا وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۚ فَٱلۡيَوۡمَ نَنسَىٰهُمۡ كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوۡمِهِمۡ هَٰذَا وَمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ ﴾ (الأعراف٥١)

وقوله تعالى :﴿ وَمَا هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا لَهۡوٞ وَلَعِبٞۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ لَهِيَ ٱلۡحَيَوَانُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ﴾ (العنكبوت:٦٤)

وقد اجتهد المفسرون في بيان سرِّ التقديم والتأخير بين هذه الآيات ، فقال الرازي: «قال هناك: (إِلاَّ لَعِبٌ وَلَهْوٌ) وقال ههنا: (إِلاَّ لَهْوٌ وَلَعِبٌ) (الأعراف٥١)فنقول :لمّا كان المذكور هناك من قبل الآخرة وإظهارهم للحسرة، ففي ذلك الوقت يبعد الاستغراق في الدنيا بل نفس الاشتغال بها فأخّر الأبعد، وأما ههنا لما كان المذكور من قبل الدنيا وهي خداعة تدعو النفوس إلى الإقبال عليها والاستغراق فيها، اللهم إلا لمانع يمنعه من الاستغراق فيشتغل بها من غير استغراق فيها، ولعاصم يعصمه فلا يشتغل بها أصلاً ، فكان ههنا الاستغراق أقرب من عدمه فقدم اللهو .»[٨٨]

وتبعه في ذلك ابن عادل في اللباب، ولم يزد عليه.[٨٩]

وكلامهما في هذا الموضع – إن قبل في هذين الموضعين – غير شامل لكل المواضع.

وقد حاول الطاهر بن عاشور التوجيه البلاغي لهذا التقديم عند آية العنكبوت، فقال: وقد زادت هذه الآية بتوجيه اسم الإشارة إلى الحياة ، وهي إشارة تحقير وقلة اكتراث ، كقول قيس

بن الخطيم مشيرا إلى الموت:

متى يأت هذا الموت لا يلف حاجة ... لنفسي إلا قد قضيت قضاءها

ولم توجه الإشارة إلى الحياة في سورة الأنعام ، ووجه ذلك أن هذه الآية لم يتقدم فيها ما يقتضي تحقير الحياة ، فجيء باسم الإشارة لإفادة تحقيرها ، وأما آية سورة الأنعام فتقدم قوله ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتۡهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغۡتَةً قَالُواْ يَٰحَسۡرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطۡنَا فِيهَا ﴾ فذكر لهم في تلك الآية ما سيظهر لهم إذا جاءتهم الساعة من ذهاب حياتهم الدنيا سدى .

وأما تقديم ذكر اللهو هنا وذكر اللعب في سورة الأنعام ، فلأن آية سورة الأنعام لم تشتمل على اسم إشارة يقصد منه تحقير الحياة الدنيا ، فكان الابتداء بأنها لعب مشيرا إلى تحقيرها ؛ لأن اللعب أعرق في قلة الجدوى من اللهو.(٩٠)

وينتقض عليه هذا الكلام بأن آية الأعراف لم تشتمل كذلك على اسم الإشارة ؛ ومع ذلك فلم تبدأ باللهو.

أما الكرماني فقد كان أكثر دقة وشمولية ، حيث ذهب إلى أنه "إنما قدم اللعب في الأكثر لأن اللعب زمانه الصبا ،واللهو زمانه الشباب، وزمان الصبا مقدم على زمان الشباب ، يبينه ما ذكر في الحديد: ﴿ ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ ﴾ كلعب الصبيان ،ولهو كلهو الشبان ،وزينة كزينة النسوان، وتفاخر كتفاخر الإخوان ،وتكاثر كتكاثر السلطان...

وقدم اللهو في الأعراف لأن ذلك في القيامة،فذكر على ترتيب ما انقضى،وبدأ بما به الإنسان انتهى من الحالتين ،وأما العنكبوت فالمراد بذكرها زمان الدنيا،وأنه سريع الانقضاء قليل البقاء وإن الدار الآخرة لهي الحيوان، أي الحياة التي لا أمد لها ولا نهاية لأبدها، بدأ بذكر اللهو لأنه في زمان الشباب وهو أكثر من زمان اللعب وهو زمان الصبا."(٩١)

فالكرماني قد بيَّن سرَّ تقديم اللعب في الجملة بما يشبه مونه الأصل الذي لا يحتاج إلى تبرير ؛وذلك لأن الأصل البدء باللعب ؛ لأنه زمن الصبا، وهو أسبق من اللهو الذي يكون في زمن الشباب، واستشهد لذلك بآية الحديد التي رأى أنها قد جاءت مقسمة على أزمان الدنيا و أحوالها.

ثم فسر تقدم اللهو في الأعراف لأن ذلك في القيامة،فذكر على ترتيب ما انقضى ؛ أي فسِّر على آخر عهدهم بالدنيا قبل القيامة، وهو اللهو الذي أوردهم المهالك.

أما العنكبوت فلما كان المقصد هو مقارنة الدنيا بالآخرة وبيان أنها سريعة الانقضاء قليلة البقاء، بدأ بذكر اللهو لأنه في زمان الشباب وهو أكثر من زمان اللعب وهو زمان الصبا.

واقتصر الإسكافي على موضعين لكل نوع؛ فذكر في تقدم اللعب آيتي الأنعام والحديد، وفي تقدم اللهو آيتي الأعراف والعنكبوت .

وذهب في تعليل تقدم اللعب في الأنعام بأنه ورد في جماعة من الكفار كانوا يستهزئون بآيات الله ويتخذونها هزوا ولعبا ، مستشهدا بما ورد من قوله تعالى: ﴿ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴾ (النساء:١٤٠). قال: «فهؤلاء قوم حضروا النبي ﷺ، وسمعوا القرآن، وعبثوا عند سماعه، ولعبوا بآياته ...فهؤلاء لما فعلوا عند سماع القرآن من الاستهزاء والعبث أطلق على فعلهم: اسم اللعب.»(٩٢)

وعلل لترتيب آية الحديد بنحو ما علل به الكرماني من بعده.

وعلل لترتيب آية الأعراف في تقديم اللهو بأنها إنما وردت في عامة الكفار «الذين شغلتهم الحياة الدنيا وحلاوتها، والولاية وغباوتها. واستجلاء ما مرنت عليه طباعها، وهذا هو اللهو.»(٩٣)

وذهب في في بيان سرِّ ترتيب آية العنكبوت إلى نحو ما ذكره الكرماني من بعده مع شيء من التفصيل والتطويل.

وقد أطال الغرناطي في هذا الموضع بكلام طويل لا يخرج عما ذكره الإسكافي وما نقلناه عن الكرماني فلم نشأ التطويل بذكر شيء منه.

وما قدمناه من كلام كلٍّ من الإسكافي والكرماني يعد تعليلا وافيا وشاملا لبيان سرِّ التقديم والتأخير في هذه الآيات.

٨- تقديم بعض متعلقات الفعل على بعض.

سبق أن عرضنا لتقدم متعلقات الفعل على ركن الجملة، وبقي أن نشير إلى أن التقديم الفني للمتعلقات لا يقتصر على ذلك؛ «بل هو يشمل كذلك تقديم بعضها على بعض؛ فترتيب تلك المتعلقات في الأساليب الفنية هو الترتيب الفني الذي يكون لكل لفظة من ألفاظه - في موضعها - وظيفتها الخاصة التي يفرضها السياق، ويقتضيها الغرض.»(٩٤)

فمن ذلك قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ ﴿٣٣﴾ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴾ (عبس:٣٧)

وقوله: ﴿ يُبَصَّرُونَهُمْ ۚ يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍۭ بِبَنِيهِ ﴿١١﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ ﴿١٢﴾ وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِى تُـْٔوِيهِ ﴿١٣﴾ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ ﴾ (المعارج:١٤)

قال الرازي: «المراد أن الذين كان المرء في دار الدنيا يفر إليهم ويستجير بهم، فإنه يفر منهم في دار الآخرة، ذكروا في فائدة الترتيب كأنه قيل: يوم يفر المرء من أخيه ، بل من أبويه فإنهما أقرب من الأخوين بل من الصاحبة والولد، لأن تعلق القلب بهما أشد من تعلقه بالأبوين .»[٩٥]

فالمراد إذن أن ترتيب الآية قد ورد على الترقّي من الأدنى إلى الأعلى، على سبيل الإضراب عن الأدنى إلى الأعلى.

فالآيات مسوقة لتصوير هول الموقف في يوم القيامة، واضطرار الإنسان إزاء هذا الهول إلى التخلّي عن أهله والفرار من أحبابه وعشيرته، وقد رتبت الآيات هؤلاء الذين يفر منهم ترتيبا يوحي بتصاعد الإحساس بهول هذا اليوم وكربه؛ فالمكروب يفر من أخيه قبل أن يفر من أبويه، فإذا زاد عليه الكرب فرَّ من الأبوين، وبقي مستمسكا بالصاحبة والبنين؛ فإذا تضاعف عليه الهول فرَّ من الصاحبة، وبقي متعلّقا بولده، حتى إذا بلغ به الكرب ذروته نسي فلذات كبده، ولم يعد مهموما إلا بذاته ومصيره.[٩٦]

وبينما جاء الترتيب في آية الفرار تصاعديا، فقد جاء الترتيب في آية الافتداء تنازليا على العكس من موقف الفرار؛ وذلك لأنه موقف قد بلغ فيه الكرب والهول ذروته؛ وهذا ما تكشف عنه الآيات السابقة لهذه الآية من أول السورة إلى هذا الموضع، قال تعالى: ﴿ سَأَلَ سَآئِلٌۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ﴿١﴾ لِّلْكَٰفِرِينَ لَيْسَ لَهُۥ دَافِعٌ ﴿٢﴾ مِّنَ ٱللَّهِ ذِى ٱلْمَعَارِجِ ﴿٣﴾ تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴿٤﴾ فَٱصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا ﴿٥﴾ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا ﴿٦﴾ وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا ﴿٧﴾ يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ ﴿٨﴾ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ﴿٩﴾ وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ﴿١٠﴾ يُبَصَّرُونَهُمْ ۚ يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍۭ بِبَنِيهِ ﴾ (المعارج :١١)

فلشدَّة الكرب وهوله ورغبة المجرم في سرعة الخلاص من الكرب والهول ، فإنه يسارع بالافتداء بأعزِّ ما يملك - إن كان يملك في ذلك اليوم شيئا - فليس الموقف موقف مساومة؛ ثم إذا لم يقبل ذلك منه زاد أكثر وأكثر حتى يفتدي بمن في الأرض جميعا إن كان يملك ذلك على أن ينجو بذلك.

خاتمة في أغراض التقديم والتأخير في متشابه القرآن:

من خلال ما سبق عرضه - من أمثلة البحث ومادته - نستطيع أن نلخص الأغراض التي ذكرها المفسرون والمصنفون في متشابه القرآن للتقديم والتأخير في الآتي:

١- الاهتمام: وذلك هو الغرض الأساسي للتقديم والتأخير وهو ما عوَّل عليه معظم المفسرين والنحاة والبلاغيين، وعليه دارت أكثر الأمثلة التي ذكرناها في هذا البحث، وهو ما نص عليه سيبويه كغرض أساسيّ في التقديم والتأخير، حيث قال: «كأنهم إنما يقدمون الذي بيانه أهم لهم وهم ببيانه أعنى، وإن كانا جميعاً يهمانهم ويعنيانهم.»[٩٧]

٢- التخصيص: وذلك كما مرَّ بيانه عند قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ﴾، حيث جاءت الآية على هذا النحو من تقديم (هدى الله) وتعريف الجزأين، والفصل بالضمير؛ لإفادة القصر الإضافي – قصر الهدى الحقيقي الكامل على هدى الله تعالى وحده.

٣- رعاية الفاصلة: وهو مما عوّل عليه بعض المفسرين والمصنفين في المتشابه حينما أعيتهم الحيلة في تأويل ما تشابه عليهم، وقد أوردنا لذلك في هذا البحث عددا من الأمثلة من كلامهم[٩٨]، وبينا أن النكتة في التقديم أو التأخير في تلك الأمثلة لا ترجع لمجرد رعاية الفاصلة ما لم يكن لذلك فائدة في المعنى بحيث يقتضيه المعنى تمام الاقتضاء، ولو كان ذلك سائغا لما اشتدَّ نكير البلاغيين على من يتكلف الجناس أو السجع أو غير ذلك دون رعاية للمعنى بحيث يكون المعنى هو الذي يتطلبه، كما يقرر ذلك عبد القاهر وغيره من عمالقة البيان.[٩٩]

٤- موافقة الأصل: وهذا أيضا مما عوَّل عليه بعضهم [١٠٠]، وقد بينتُ في البحث أن موافقة الأصل تصلح للتعليل النحوي أو اللغوي البحت، ولكن لا يُكتفى بها في التعليل البلاغي الذي لا يكتفى فيه بموافقة الأصل، أو مجرد البحث عن الصحة اللغوية؛ وذلك لأنه كان في مقدور المتكلم الخروج على الأصل والعدول عنه، كما هو وارد في أساليب البلغاء والفصحاء بما لا يمكن إنكاره، وهو متقرر في نظام اللغة، لا تأباه ولا تنفر منه، بل تزدان به وتزداد به رونقا وبهاء، وهذا مما قرره البلاغيون في مواضع عديدة لا نطيل بذكرها.[١٠١]

هوامش البحث

١. من هذه الكتب:
١- درة التنزيل وغرة التأويل لأبي عبد الله محمد بن عبد الله الأصبهاني المعروف بالخطيب الإسكافي ت ٤٢٠ هـ
٢- البرهان في متشابه القرآن لما فيه من الحجة والبيان تأليف تاج القراء محمود بن حمزة بن نصر الكرماني ت ٥٠٥ هـ تقريبا
٣- ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظ من آي التنزيل للإمام الحافظ العلامة أحمد بن إبراهيم بن الزبير الثقفي العاصمي الغرناطي ت ٧٠٨ هـ
٤- كشف المعاني في المتشابه من المثاني تأليف شيخ الإسلام بدر الدين بن جماعة ت ٧٣٣ هـ
٥- فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن تأليف شيخ الإسلام زكريا الأنصاري ت ٩٢٦هـ

٢. عبد القاهر الجرجاني - دلائل الإعجاز – تصحيح السيد محمد رشيد رضا – ط دار المعرفة – بيوت – لبنان - ص ٨٣

٣. الكرماني – البرهان في متشابه القرآن – اعتنى به : أحمد عز الدين خلف الله – ط دار الوفاء – المنصورة – ط ٢ – ١٩٩٨م - ص ٩٧ - ٩٨

٤. انظر :الخطيب الإسكافي : أبو عبد الله محمد بن عبد الله الأصفهاني - درة التنزيل وغرة التأويل – ط الخانجي – ص٣ ، و ابن الزبير الغرناطي -ملاك التأويل القاطع لذوي الإلحاد والتعطيل – تحقيق د/ محمود كامل - ط دار النهضة العربية –١٩٨٥ -ص٣

٥. ابن جماعة : محمد بن إبراهيم بن سعد الله - كشف المعاني في متشابه المثاني- تحقيق د/ مجمد داود – ط١ – دار المنار – ١٤١٨هـ - ١٩٩٨ م - المقدمة

٦. الزركشي - البرهان في علوم القرآن – تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم – ط دار التراث - ١٩٧٢ -١/١١٢، والسيوطي - الإتقان في علوم القرآن - تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم - ط الهيئة المصرية العامة للكتاب – ١٩٧٤ - ٣/٢٩٠

٧. سيبويه أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر- الكتاب – تحقيق عبد السلام هارون – مكتبة الخانجي – القاهرة - ط٣ – ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨م - (ج ٢ / ص١٢٧) وسيأتي بيانه تفصيلا.

٨. انظر د/ تمام حسان - مقالات في اللغة والأدب ص ٣٥٧-٣٥٨.

٩. محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن (٢٢٤ - ٣١٠ هـ) المحقق : أحمد محمد شاكر،الناشر : مؤسسة الرسالة ،الطبعة : الأولى ، ١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٠ م - (ج ٩ / ص ٣٥٩) وهذا على رأي من يرى أن (جهرة) حالا من واو الجماعة في قالوا أي قالوا مجاهرين أرنا الله. وخالف في ذلك السمين الحلبي. فالآية عنده لا تقديم فيها ولا تأخير قال بعد أن حكى إعراب (جهرة) حالاً من ضمير الجماعة: " وقال بعضهم فيكون في الكلام تقديم وتأخير ومثل هذا لا يقال فيه تقديم وتأخير...، بل أتى بمفعول القول ثم بالحال من فاعله فهو نظير (ضربتُ هنداً قائماً) الدّر المصون ١:٣٦٨.
أما إن جعلنا جهرة حالا من لفظ الجلالة (الله) فلا يكون في الآية تقديم ألبتة ،والمعنى : أرنا الله جهرة ظاهرا غير مستتر بشيء كما تقول رأيته جهرة وكلمته جهرة. وكون (جهرة) حالاً من لفظ الجلالة أجازه معربوا القران الكريم.
انظر السمين الحلبي في الدّر المصون ١:٣٦٨ والمنتجب الهمداني : الفريد في إعراب القران المجيد ١:٢٩٣ ، والذي أميل إليه هو القول المذكور في أصل البحث ، وقد أيدته بكلام ابن عباس – رضي الله عنه.

١٠. تفسير الطبري - (ج ١ / ص ١٢)

١١. الكتاب - (ج ١ / ص ٣٤)
١٢. دلائل الإعجاز -ج ١ / ص ٩٦
١٣. سيبويه أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر- الكتاب – تحقيق عبد السلام هارون – مكتبة الخانجي – القاهرة - ط٣ – ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨م - (ج ٢ / ص١٢٧)
١٤. السيرافي – الكتاب – ط بولاق ٢٨٦/١
١٥. العامري التقديم والتأخير في القرآن الكريم- ص ١٣
١٦. أي :ظن أن العبادة مقدمة في اللفظ ، ولكن المعنى على تأخير العبادة عن الاستعانة ؛ من حيث كونها متوقفة على المعونة.
١٧. ديوانه – ط المكتبة العصرية – بيروت - ٧١/١
١٨. تفسير الطبري - (ج ١ / ص ١٦٤)
١٩. " لِلَّه مَا فِي السَّمَوَات وَمَا فِي الأَرْض وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْء قَدِيرٌ "(البقرة :٢٨٤)
٢٠. قال تعالى: " وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالا مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٣٨) فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٣٩) أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ" (المائدة:٤٠)
٢١. كشف المعاني – ص٧٤ -٧٥
٢٢. سيأتي قريبا بيان علة التقديم للصابئين أو تأخيرهم بين هذه الآية والآيات المتشابهة معها.
٢٣. سيتم الوقوف عند هذه الأمثلة لتحليلها ، وبيان علة التقديم فيها في موضعها من البحث .
٢٤. انظر : د/ فاضل السامرائي – التعبير القرآني – دار عمار – عمان ط ٦- ص ٤٩ – ٥٠ ، وسوف نعود للكلام عن الموضع الثاني تفصيلا ضمن الحديث عن تقدم بعض متعلقات الفعل على بعض .
٢٥. د/ مشهور موسى – المتشابه اللفظي في القرآن الكريم – دراسة نقدية بلاغية – عالم الكتب الحديث – الأردن – ط١ -١٤٣١هـ- ٢٠١٠م - ص ١٩٧
٢٦. السابق :٢٠٥
٢٧. السابق :٢١٠
٢٨. انظر : د/ صالح عبد الله الشثري – المتشابه اللفظي قي القرآن الكريم وأسراره البلاغية – دكتوراه – جامعة أم القرى – كلية اللغة العربية - ص ٣٩٠
٢٩. شرح الرِّضي على الكافية ٨٨/١ ، وهذا الأصل مقرر قبل الرضي قال الجرجاني في كتابه (المقتصد في شرح الإيضاح) : قال :" اعلم أن مرتبة الخبر أن يكون بعد المبتدأ، لأنه إذا لم يُعلم ما يُخبر عنه لم يستفد من الخبر شيء..." ٢٠٣/١.
ولعله مقرر أيضا قبل الجرجاني فالمسألة تحتاج إلى تتبع.
٣٠. تعليق الفرائد على تسهيل الفوائد ٥٨/٣
٣١. أبو حيان الأندلسي - ارتشاف الضرب - تحقيق رجب عثمان محمد – مكتبة الخانجي – القاهرة – ط١ – ١٤١٨ هـ ٣٧٥/٢
٣٢. جلال الدين السيوطي - همع الهوامع – تحقيق أحمد شمس الدين - ط دار الكتب العلمية – بيروت – ط١- ١٤١٨هـ ٣٢٩/١
٣٣. محمد بن أحمد الأهدل - الكواكب الدُّريَّة شرح متممة الأجرومية – ط دار الكتب العلمية – بيروت – ١٤١٦ هـ١٩٠/١

٣٤. ابن عقيل (بهاء الدين) - شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك – تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد – ط دار إحياء التراث العربي - بيروت ٢٧٦/١

٣٥. محمد بن علي الصبان - حاشية الصبان على الأشموني على الألفية تحقيق إبراهيم شمس الدين – ط دار الكتب العلمية - بيروت ٣٠٥/١، وقد ذكر ذلك عن اللقاني كذلك الشيخ يس في حاشيته وغلَّطه فيه ، انظر : شرح التصريح على التوضيح للشيخ خالد الأزهري – دار إحياء التراث - بيروت ١٧٠/١

٣٦. عباس حسن – النحو الوافي – ط دار المعارف ٤٩٢/١

٣٧. د/ عودة خليل أبوعودة - بناء الجملة في الحديث النبوي الشريف في الصحيحين دار البشير ط ٢ – ١٤١٨هـ ص ١٠٣

٣٨. أبو حيان الأندلسى (محمد بن يوسف) - البحر المحيط- مطبعة السعادة ط الأولى- مصر- ١٣٢٨هـ - (ج ١ / ص ٤٨٢)

٣٩. الكرماني :٣٥

٤٠. ابن جماعة:ص ٦٣ ، شيخ الإسلام زكريا الأنصاري الشافعي – تحقيق د/ السيد الجميلي ، د/ أحمد السايح – ط مركز الكتاب للنشر – ط١ – ١٩٩٩ - ص: ٢٦

٤١. الكشاف - أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله - ط العبيكان - (ج ١ / ص ١٢٧)

٤٢. الطاهر بن عاشور- التحرير والتنوير – ط الدار التونسية (ج ١ / ص ٤٥٨)

٤٣. التحرير والتنوير (ج ١ / ص ٤٥٩)

٤٤. وذلك كما جاء في قوله تعالى في (آل عمران : ١٩) "إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلامُ"

٤٥. وذلك في قوله تعالى:" يأيها الَّذينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ يَوْمَ لا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ"(٨)

٤٦. في قوله تعالى : " يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ" (الحديد:١٢)

٤٧. ينظر ملاك التأويل : ٨٩٣/٢

٤٨. المبرد - المقتضب - (ج ١ / ص ٢٦٥) ، وقد أجاز الفراء والأخفش وابن مالك تقديم الحال على عاملها على المتصرف إذا كان ظرفاً أو جاراً ومجروراً، ومثّل له ابن مالك في (الألفية حين قال:

×نحو سعيدٌ مستقراً في هجر × شرح ابن عقيل - بهاء الدين عبد الله بن عقيل العقيلي المصري الهمذاني - الناشر : دار الفكر - دمشق - الطبعة الثانية ، ١٩٨٥ - تحقيق : محمد محيي الدين عبد الحميد – ٢٧١/٢

واستدل المجيزون بقراءة: (والسماواتُ مطويات بيمينه) في قراءة أن كسر التاء، فتكون (السماواتُ حالاً متقدمة على العامل فيها وهو الجار المجرور (بيمينه) الواقع خبراً عن مبتدأ (السماواتُ).

انظر في هذه المسألة معاني القرآن للفراء ٤٢٥/٢، والتبيان للعكبري ٢/ ١١١٤، وشرح الأشموني على الألفية ١٨٧/٢، وهمع الهوامع ٣٢/٤-٣٣.

٤٩. السكاكي - مفتاح العلوم - (ج ١ / ص ١٠٤)

٥٠. الخطيب الإسكافي : أبو عبد الله محمد بن عبد الله الأصفهاني - درة التنزيل وغرة التأويل رسالة دكتوراة – جامعة أم القرى - تحقيق محمد مصطفى آيدين – ١٤٢٢هـ ٢٠٠١م - ص ١٠٨٤ – ١٠٨٥.

٥١. ابن جماعة : ص ٣٠٤

٥٢. الكرماني :١٤٥

٥٣. تفسير ابن كثير (ج ١٢ / ص ٧٨)

٥٤. تفسير الألوسي – ط دار إحياء التراث – بيروت (ج ٣ / ص ٢٧٠)
٥٥. تفسير الألوسي – (ج ٢٠ / ص ٣٩٢)
٥٦. التحرير والتنوير– ط التونسية (ج ١٤ / ص ٤٦٠)
٥٧. هذا على رأيي مَنْ يُعرب (مواخر) في الآيتين المتقدمتين مفعولاً ثانياً. ومنهما الكرماني وغيره، وثمة رأي آخر أن (مواخر) ليست مفعولاً ثانياً ، بل هي حال من (الفُلك)، لأن رأى في الآيتين بصرية وليست علميّة وقد نصبت مفعولاً واحداً وهو (الفلك) وقد أوجب المنتجب الهمداني إعراب مواخر حالاً، قال عند قوله تعالى (وترى الفلك مواخر فيه) .. " انتصب (مواخر) على الحال من الفلك، لا أنه مفعول ثانٍ (لترى) كما زعم بعضهم ؛ لأن ترى هنا من رؤية العين، لا من رؤية القلب ... " الفريد في إعراب القرآن المجيد ٢١٩/٣-٢٢٠.
٥٨. تفسير الألوسي – (ج ١٦ / ص ٣٧١)
٥٩. قال تعالى :" هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ (١٠) يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (١١) وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (١٢) وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ (١٣) وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٤) وَأَلْقَى فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٥) وَعَلامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ " (النحل:١٦)
٦٠. تفسير الألوسي – (ج ١٦ / ص ٣٧١)
٦١. كشف المعاني ص ١٣٠
٦٢. قال تعالى :" وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلا تَضَعُ إِلا بِعِلْمِهِ وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (١١) وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِنْ كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٢) يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُسَمًّى ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ" (فاطر:١٣)
٦٣. درة التنزيل وغرة التأويل – (ج ١ / ص ٩٤٣)
٦٤. مفتاح العلوم – المطبعة الأدبية بمصر – ١٣١٧هـ ط١ (ص ١٢٩) ، وانظر الزركشي – البرهان في علوم القرآن – تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم – ط دار الفكر – ١٤٠٠هـ ط ٣ - ٢٨٤/٣
٦٥. العكبري – إملاء ما من به الرحمن – (ج ١ / ص ٣٠)
٦٦. تفسير الرازي – (ج ١ / ص ٤٩٨)
٦٧. تفسير الألوسي – (ج ١ / ص ٣٢٦)
٦٨. الكرماني – تحقيق أحمد خلف الله – ص١٢١
٦٩. ابن جماعة – تحقيق د / محمد داود – ص ٦٧
٧٠. مشكل إعراب القرآن – ط دار الكتب العلمية – بيروت (ج ١ / ص ٥٥)
٧١. الغرناطي ص ١١٠
٧٢. الكرماني : ص ٣٢
٧٣. ابن جماعة : ص ٧٧
٧٤. الشيخ زكريا الأنصاري : ص ٥٠
٧٥. مشكل إعراب القرآن – (ج ١ / ص ٧)
٧٦. الكرماني :ص ١٢

٧٧. أسرار التكرار في القرآن - (ج ١ / ص ٣٤)
٧٨. تفسير الرازي - (ج ٢ / ص ٨٠)
٧٩. الشيخ زكريا الأنصاري : ص ٢٠
٨٠. الغرناطي : ص ٣٩
٨١. الإسكافي – تحقيق محمد آيدين ٢٢٨
٨٢. السابق
٨٣. ابن جماعة : ص ٥٧ – ٥٨
٨٤. سيأتي قريبا بيان علة التقديم للصابئين أو تأخيرهم بين هذه الآية والآيات المتشابهة معها.
٨٥. الإسكافي – نحقيق محمد آيدين – ص ٢٥٠ – ٢٥٨
٨٦. انظر نحوا من كلام الإسكافي والكرماني عند ابن جماعة ص ٦١ ، والأنصاري ص ٢٣
٨٧. الكرماني :٣١
٨٨. تفسير الرازي - (ج ١٢ / ص ١٩٧)
٨٩. ابن عادل - تفسير اللباب (ج ١٢ / ص ٤٦٧)
٩٠. التحرير والتنوير - (ج ١ / ص ٣٢١٥)
٩١. أسرار التكرار في القرآن - (ج ١ / ص ٦٨)
٩٢. الإسكافي – تحقيق محمد آيدين – ٤٤/٢
٩٣. السابق
٩٤. د/ حسن طبل – علم المعاني في الموروث البلاغي – تأصيل وتقييم – مكتبة الإيمان بالمنصورة – ط٢- ٢٠٠٤ - ص ١٣٤
٩٥. تفسير الرازي - (ج ١٦ / ص ٣٧٠)
٩٦. بلاغة العطف في القرآن الكريم ص ١٠٤
٩٧. الكتاب - (ج ١ / ص ٣٤)
٩٨. وذلك كما في تعليلهم لتأخر ذكر الكبر في قوله تعالى :" وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا" (مريم:٨) ، فيما أوردناه في أصل البحث عن كل من الكرماني والغرناطي وابن جماعة وزكريا الأنصاري ،وكذلك في قوله تعالى :"والله بما تعملون خبير " والله خبير بما تعملون " حيث عزاه بعضهم لرعاية الفاصلة ، وكما في قوله تعالى في غير ما ذكرنا من الأمثلة : تعليلهم لتقدم هارون ، في قوله تعالى "رب هارون وموسى " حيث ذهب جمع منهم إلى أنه لرعاية الفاصلة .
٩٩. أسرار البلاغة - (ج ١ / ص ٣)
١٠٠. انظر على سبيل المثال فيما مرَّ في البحث تعليل الكرماني وغيره تقدُّم (رجل) في قوله تعالى "وجاء رجل من أقصى المدينة " بأن هذا هو الأصل ، وكذلك كما جاء عن بعضهم في قوله تعالى : "والله بما تعملون خبير " والله خبير بما تعملون " حيث عللت الجملة الأخيرة بأنها الأصل كذلك، وقد بينت ما يرد ذلك به.
١٠١. قال ابن الأثير :"موضوع علم البيان هو الفصاحة والبلاغة وصاحبه يسأل عن أحوالهما اللفظية والمعنوية وهو والنحوي يشتركان في أن النحوي ينظر في دلالة الألفاظ على المعاني من الوضع اللغوي، و تلك دلالة عامة،و صاحب علم البيان ينظر في فضيلة تلك الدلالة، و هي دلالة خاصة،و المراد بها أن يكون على هيئة مخصومة من الحسن، و ذلك أمر وراء النحو و الأعراب." المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر - (ج ١ / ص ٢)